کتابخانهٔ مجلس شورای اسلامی

اسم کتاب: مثلث ابن ابی ربیعه و شعره
مؤلف: زکی مبارک
موضوع تألیف:

مؤسسهٔ ۱۳۰۲
شمارهٔ دفتر
۳۲۱

کتابخانهٔ مجلس شورای اسلامی

مؤسسهٔ ۱۲۰۲

اسم کتاب: مصعب ابن ابی ربیعه و شعره

مؤلف: زکی مبارک

موضوع تألیف:

شمارهٔ دفتر
۷۳۲۱

کتابخانه مجلس شورای اسلامی
۷
۳۷۹

ف ١٩

ابن أبي ربيعة وشعره

كتابخانه
مجلس شورای ملی
شماره ۱۳۰۲

تأليف

زكي مبارك
دكتور فى الآداب

« يا ابنَيْ أخى !
لقد كنت مُوَكَّلاً بالجمال أَتْبعهُ ،
وانى رأيتكما فراقنى حسنكما وجمالكما ،
فاستمتِعا بشبابكما قبل أن تندما عليه »
عمر بن أبى ربيعة المخزومى

الطبعة الثالثة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يُطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد
المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

الاهداء

إلى الوالد الكريم

الشيخ عبد السلام مبارك

مازلتُ أَمْرَحُ فى نُعْمَى وعافيـةٍ
من نَيْلكَ الجَزْلِ أومن رأيك الحسَنِ
وأسهرُ الليلَ فى علمٍ وفى أدبٍ
أبغي رضاءَكَ عن قصدى وعن سَنَنِي
وأستقلُّ لأجل الفضلِ ماسمَحتْ
به الليـالى لأهل الفضل من مِحَنِ
حتى بلغتُ بجدى بعض ما طمحتْ
إليـه نفسى كما يرجوه لى وطنى
فاليوم أُهديك ما أبدعتُ من أثرٍ
أبقى على الزمن الباقى من الزمنِ

ولدكم

زكى مبارك

٢٧ فبراير سنة ١٩١٩

كلمـــــة

الشيخ مصطفى القاياتى [1]

من كان بطبعه ميّالا إلى الحرية في الفكر ، والاستقلال فى الرأى ، وكان مع ذلك محباً للانصاف ، راغباً فى الاعتدال : فليقرأ هذا الكتاب . فانه ينمّى فكرته ، ويقوّى شخصيته ، ويزيده بصراً بالنقد ، وعلما بالشعر ، ويهديه السبيل إلى فهم الأدب ، والحكم على الشعراء .

وجدير بمن نظر فيه أن يكمل علمه ، ويكبر عقله ، لما عرف به الأستاذ زكى مبارك من سلامة الذوق ، وأصالة الرأى ، وما امتاز به من بعد النظر ، ودقة الملاحظة ، مع ما له من رشاقة الأسلوب ، ومتانة التركيب ، إلى غير ذلك من الميزات التى تجعلنا نأمل كثيراً أن يكون هذا الابن البار اماماً من أئمة الأدب ، وعظيما من عظماء الأمة .

جعله الله قدوة لشباننا العاملين ، وأبنائنا الناهضين ، والسلام ؟

٢٥ فبراير سنة ١٩١٩ — مصطفى القاياتى

---

(١) تفضل المرحوم الاستاذ الشيخ مصطفى القاياتى بكتابة هذه الكلمة لتوضع على صدر الكتاب فحليت بها الطبعة الأولى والثانية ، وكان في النية رفعها من هذه الطبعة فراراً من الاعتماد على التقريظ ، ولكن انتقال الاستاذ إلى جوار ربه فرض علينا في سبيل الوفاء له والبر به ابقاء هذه الكلمة الطيبة مشفوعة بالاعتراف بما كان له من الفضل والابتهال الى الله أن يسكنه فراديس الجنان .

كلمة نقد

لحضرة الباحث الكبير

الدكتور طه حسين

« أقول هذا كله بعد أن فرغت من قراءة رسالة صغيرة ، ولكنها قيِّمة مُمْتعة ، للدكتور زكى مبارك خرِّيج الجامعة المصرية ، تناول فيها شعر عمر بن أبى ربيعة فدرسه من بعض نواحيه درساً حسناً يسرنى أن أهنئه به ، ويسرنى أيضاً أن أنتهز هذه الفرصة لتسجيل ما للجامعة المصرية من فضل على عقول الشباب . ولكن الدكتور زكى مبارك وهو شابٌّ حادّ الشباب عنيفه ، أسرف فى نقد مصعب ابن عبد الله اسرافاً جعله إلى الظلم أقرب منه إلى الانصاف . وليس مصدر هذا الاسراف إلا أنه لم يقدر كما ينبغي اختلاف المُثُل الأدبية باختلاف العصور والأجيال . وما أحسب إلا أنه عائد إلى هذا النقد فلطِّفٌ ما فيه من حدَّةٍ ومُزِيل ما فيه من جور »

حديث الاربعاء ج ٢ ص ١٤٢

كلمة المؤلف

فى الطبعة الأولى

هذه المحاضرات أُلقِيتْ فى فبراير سنة ١٩١٩ فى الجامعة المصرية على أنها دروس تمرين ، وكنت لقيت من اعجاب الاستاذ الدكتور احمد ضيف والاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار والاستاذ الشيخ مصطفى القاياتى ماحبَّبَ إلىَّ ظهورها فى كتاب يتناوله عشاق الآداب . ثم لم أكد أشرع فى طبعها حتى كانت النهضة المصرية فكتب الله لنا أن نمت بسبب إلى الذائدين عن مصر والسودان ، ثم اعتقلت مدة غير قليلة أنكرت فيها كل ما يوحى به الشباب ! ثم عدت من المعتقَل ، ونظرت ثانيةً فى تلك الصحائف المطوية ، فرأيت فيها أثراً من آثار الثقة بالنفس ، وعزَّ علىَّ أن لا يجد نسيم الشباب فضاءً يملؤه بالعزيمة والثبات

وانى لموقن أن فى الناس من لا يطرب لهذا النحو من البيان ، ولكنى لم أكتبه إلا لمن قُدِّرَ له أن يدرك أسرار الجمال ، وهدى الله من يحسب أن التأليف لايصح إلا فى الأبحاث التى تشبه بعض الأدهان فى الجمود !! ولعلى أجد من الشجاعة الأدبية ما أعيد به طبع

هذا الكتاب مع ما سيقال فيه من مدح وهجاء ! وانى لأرحب بكل كلمة فيها نفحة من النقد المبنى على فهم وإدراك . فمن شاء أن يُنشَر له شيء من ذلك فى الطبعة الثانية فليبعث به إلىّ لأعرض على الناس طائفة من العقول ! وكل امرئ بما كسب رهين !

*
* *

وإنى أقدم الشكر الخالص من شوائب العقوق لأساتذتي فى اللغة والأدب : الشيخ سيد المرصفى ، ومحمد بك المهدى ، والشيخ على عبد الرازق ، والشيخ مصطفى القاياتى ، والدكتور احمد ضيف [1]

(١) كان ذلك قبل أن يعود حضرة الاستاذ الدكتور طه حسين من فرنسا واليوم يتشرف المؤلف بأن يضيف إلى أساتذته في اللغة والأدب اسم هذا الباحث العظيم الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، وطبع الأدب فى هذا العصر بطابع القوة والحياة

من النفس الى النفس

[فى كتاب « البدائع » كلمة للمؤلف في نقد هذا الكتاب ، رأينا إثباتها هنا ليرى القارىء كيف تعز سيئات الكاتب عليه فلا يمحوها ، وانما يعتذر عنها برفق ليسوغ لها البقاء]

فى فبراير سنة ١٩١٩ ألقيت ثلاث محاضرات فى الجامعة المصرية عن حب ابن أبى ربيعة وشعره ، تحت إشراف الأستاذ الدكتور احمد ضيف وقد طُبعت هذه المحاضرات بعد إلقائها بقليل . ويرى الناظر فى تقدمة الكتاب هذه الكلمة الجريئة :

« وإنى لموقن أن فى الناس من لا يطرب لهذا النحو من البيان . ولكنى لم أكتبه إلا لمن قُدِّر له أن يُدرك أسرار الجمال ! وهدى الله من يحسب أن التأليف لا يصح إلا فى الأبحاث التى تشبه بعض الأذهان فى الجمود ! ! »

وقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وستظهر الطبعة الثانية عما قريب . من أجل هذا أَسبِقُ النقاد الى بعض المآخذ التى أرانى مضطرا الى إبقائها ، إجلالاً للثقة بالنفس ، وإكباراً لنزق الشباب ! !

أُنظر قول ابن أبى ربيعة :

أبرزوها مثل المهاة تهادى ... بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ
وهى مكنونةٌ تحيَّر منها ... فى أديم الخدين ماء الشباب
ثم قالوا تحبها ؟ قلت بهراً ... عدد الرمل والحصا والتراب

أتدرى كيف علقت على هذه الأبيات الحِسان؟ اقرأ الكلمة الآتية:

« ووجه الحسن فى تحيير ماء الشباب أنك تنظر الى الخدود الموردة، فتراها كالشفق تتنقَّل من تحته الشمس، أو كالمشكاة يتموَّج فى قلبها المصباح

فى سبيل الحب تلك النظرة ! يوم رأيته وقد أبلَّ من حمى أَضْرعَتْه، فرأيت ماء الشباب يدبُّ فى تلك الخدود وهى صفراء كالورس، فيعيدها حمراء كالورد، وإذا الأنس يتمشَّى فى فؤادى لشفائه، تمشِّيَ البرء فى أعضائه »

وهـذا استطراد لايشك القارئ فى أنه غير محمود، ولكنى أستغفر الله ! !

وفى موطن آخر يجد القارئ هذه الكلمة :

« لم يكن ابن أبى ربيعة ممن اذا غاب عنه حبيب أخذ فى البكاء عليه، والحنين اليه . تلك سبيل الشعراء المفجَّعين، الذين كانت قلوبهم أعواناً للدهر عليهم، وكانت نفوسهم أخصاما لهم . أولئك هم المعوزون فى عالم المحبة، والمحرومون فى دولة الصبابة . أولئك الذين يرون الجمال

ظلا ظليلا، ثم لا يستطيعون أن يتفيئوا ماله من وارف الظِّلال . أولئك الذين يحسدون الغلائل على الاعطاف، والعقود فى النحور، وكيف يكون ابن أبى ربيعة مثلهم مسكيناً فى شعره، وما كان مسكيناً فى حبه؟ أم كيف يصف البكاء والمدامع، وما أَلِمَتْ نفسه، ولا دَمَعَتْ عينه ؟

بعداً للذلة حتى فى الحب ؛ وتباً للمسكنة حتى فى الغرام ! »

وهذه صورة نفسية قد لايقتضيها موضوع الحديث . ولكن هذا الذى كان !

ويرى القارئ فى هامش الصفحة الثانية عن ترجمة الشيخ حسين الحكيم مانصه :

« وكان رحمه الله آية الآيات فى حُسن الخَلق، وصَباحة الوجه، وأَصالة الرأى، وحلاوة الحديث، وكان لا يعدله عندى غير شقيق (سيد مبارك) الذى فقدته معه فى أسبوع واحد . وكان موتهما معاً بالحمى الاسبانية . لا رد الله لها غربة، ولا قدّر لها رجعة . وكان أخى سيد من أقوى الفتيان بأساً وأمضاهم عزيمة، ولو عاش لضُرِبت بشجاعته الأمثال »

وقد سألنى بعضهم عما يعنى القارىء من هذا التفصيل، فأجبته : إنه يعنى مؤلف الكتاب !

ويرى القارىء هذه الكلمة عن عواطف أهل الحضر :

« وقلما يصدُق للحضريين حب ، أو تبقى لهم صبابة . إذ يرون من متممات الظَّرف ، ومكملات الأدب ، أن يحيى الرجل بعين باكية ، وقلب خفاق ، فلا يزالون يتلمَّسون الهوى ويتحسَّسون الصبابة ، حتى تُتاح لهم أسبابها ، وتساق اليهم همومها

وأنا الذى اجتلب المنية طرفهُ فمن المطالب والقتيل القاتلُ »

وهذه مسألة فيها نظر كما يقولون !

* * *

ولا أستطيع أن أعد ما فى كتاب (حب ابن ربيعة وشعره) من الهفوات ، ولكنى أحمد الله على أن وفقت إلى تصوير ابن أبى ربيعة وتمثيل حياته ، حتى كأنك تراه .

مقدمة الطبعة الثالثة

صار جِدًّا ما مزحتُ بهِ رُبَّ جِدٍّ جَرَّهُ اللَّعِبُ

إى والله ! فقد كنت ألهو وألعب يوم كتبت ما كتبت عن ابن أبى ربيعة منذ تسع سنين وأنا طالب بالجامعة المصرية ، وليس معنى هذا أننى كنت اتخذ الحب والجمال سبيلا الى العبث والمجون ، كلا ! فقد كان الجمال كما فهمتُه فى ذلك الحين محرابًا تخشع فى مُصَلاَّهُ القلوب ، ولكن معناه اننى كنت أُقبل على الحُب والحُسن إقبال الغافل الذى لا يدرى ما تكن خمائل الازهار من عاديات الافاعي وقاتلات الصِّلال

ولقد أذكر — والنفس تأكلها الحسرة على سذاجة تلك الايام الخالية — اننى قلت فى أول محاضرة ألقيتها عن ابن أبى ربيعة : « إن الحب نفحة من نفحات النبوة » ثم أخذت أقيم على ذلك الأدلة والبراهين ، فعارضنى جماعة من المستمعين على رأسهم صديق الاستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان ، فلما كانت المحاضرة الثانية كنت قد أخذت الأهبة للدفاع عن تلك النظرية ، وكان صديق قد استقدم طائفة من زملائه علماء الازهر لمعاونته إذا جَدَّ الجِد واحتدم النِّضال ، فما هى إلا أن قلت : « أيها السادة !

لقد أسلفنا فى المحاضرة الماضية أن الحب نفحة من نفحات النبوة » حتى انفجر الاشياخ دفعة واحدة مطالبين بوقف هذا الهراء ، فتدخّل الاستاذ الدكتور أحمد ضيف وأبان لهم فى رفق ودعابة أن الحب « كلام فارغ » وانى على خطأ فيما أقول مبين ، وأشار إلىّ بتخطّى هذه الفكرة ، وطىّ كل حديث فيه نبوة وأنبياء ، حتى لا يثور القوم من جديد !

وكذلك عرفت لأول مرة بفضل تلك المعارضة العنيفة ، ان الحب مهما سمت أغراضه لا يجد من القوة ما يدفع به عدوان الجامدين الذين يحسبون الفضل كل الفضل أن يحيا الرجل بقلب مُغلَق مُتبلِّد ، لا يفقه معنى الحب ، ولا يدرك أسرار الجمال ، فعدت الى ما كتبته عن الحب والنبوة فمحوته كما يمحى الضوء من تجاليد الليل ، وأقبلت على نفسى أعدها للجد الصُّراح الذى يكبح غمزات اللامزين ، ويردع لَمزات اللائمين

ولكن كيف وقد صار الحب فى نفسى أخطر أنواع الجد ، وعدت أرى الجمال الانسانى أروع ما فى الوجود ، واستطعت أن أقول فى مقدمة « مدامع العشاق » وأنا أقيم الدليل على أن الانسان لُباب الطبيعة وسرها المكنون :

« وما قيمة الليل إن لم تُظلني فى الحب ظلماؤه ؟ وما قيمة البدر إن لم يذكرنى بالثغر لألاؤه ؟ وما جمال الاغصان إن لم تهزّنى الى ضم القدود؟

وما حُسْن الازهار إن لم تَشُقنى الى لثم الخدود ؟ وكيف أميل إلى الظباء لو لم تُشبِه بعيونها وأجيادها ماللحسان من أعناق وعيون ؟ وكيف أصبو الى غُنّة الغزال لولا ذكرى تلك النبرات العِذاب التى يسمونها السحر الحلال ؟ »

وما أنسَ لا أنس أن كتاب مدامع العشاق أثار علىّ رجلاً هو منذ سنين على رأس الحياة العقلية فى مصر والشرق ، وأن أستاذى الدكتور طه حسين كتب عنه فصلا فى جريدة السياسة فنالنى بملام عنيف ، وكنت جديراً بالانصراف عن هذا النحو من البحث ترضيةً لتلك النفوس النبيلة التى تشفق علىّ من ظُلُمات الإفك وحنادِس البهتان

ولكن كيف وقد صار الحب مرضاً عضالاً لا يُرجى له بُرءٌ ولا شفاء ، وأصبحت وأصْدَق ما أحدِّث به عن نفسى كلمتى إلى صديقى الاستاذ أنيس ميخائيل حين أقول :

« أرجو أن تعلم أن إدمانى على الاغتباق بما أودع الله الليل من سحر يتمثل فى بدره المشرق أو ظلامه المسدول ، والاصطباح بمطالعة ذلك الكتاب الخالد كتاب الوجود ، ودرس ما فيه من غرائب الملاحة وبدائع الجمال ، أحب أن تعلم أن هذه الحياة الوجدانية ، التى يحياها رجال الأدب طائعين أو كارهين ، توقد الحسّ وتُلهِبُ الخيال ، حتى ليصبح القلب فى

سعير من الظمأ وهو يسبح فى كوثر من النعيم ، ومن هنا تجد من لا يزال يشكو ويعتب وهو فى ظل من النعمة ظليل . وكذلك أحسب أن الطبيعة مَدِينةٌ لا عجابي واحساسى بما فيها من زهرة تتفتح أو غصن يميد ، وأرانى صاحب الفضل على كل عين ترنو وكل قد يميس . وقد يُلِحُّ الاسراف ويلجُّ الطغيان فأنكر أن يكون غذائى فى هذه الدنيا من الخبز والماء ، وتمتد عيناى إلى انتهاب ماعزّ واستعصم من أسالة الخدود ، ورشاقة القدود ، وتسمو نفسى الى اقتناص ما ندَّ من شوارد المنى وأوابد الآمال ، ويتمرّد قلبى كلما أحسَّ سانحة تتمنّع ، أو قناة لا تلين . ولو شاء الحسن لبطش بمن لا يؤمنون بأن له وحده العزة والجلال ، وصعق من لا يسبحون له فى الغدوّ والآصال ، ولكن حاشاه أن ينفّرنى من رياضه وأنا شاعره ومجنون ليلاه ، أو يذودنى عن حياضه وأنا حارسه والساهر على حماه .

***

إذَنْ لا مفرّ من العودة الى ابن أبى ربيعة ، أو صف الشعراء لربّات الحجال !

ولكن كيف نعود إليه ؟

الامر يسير ! ألم تنفد الطبعة الثانية من كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) ؟ فلنطبعه من جديد ، وفى هذا كفاية لمصافحة شاعر الحب والجمال

ولننتهز هذه الفرصة لنتكلم جادّين أو مازحين عن العشق والصبابة والحسن والصباحة ، ولنقلّب هذه الكلمات على جميع وجوهها ولنُطل فيما تتصل به من جِدّ القول وهزله ، وحلوه ومره ، ولْنَجْلُ صدأ النفس بتصريف هذه البضاعة التى سمعت غير مرة انها نوع من اللغو ، وضربٌ من الهُراء وأنها شغل من لا شغل له من كل فارغ الرأس دقيق الاحساس !

حسن ! فلنكتب على بركة الله ، أو على وجه الحب مقدمة للطبعة الثالثة !

ولكن ماذا نقول ؟ لا بدّ من جديد ، فان قُرّاء اليوم لهم نياتٌ أشد تعقيداً من ضمائر الوشاة ، ولهم أبصارٌ أحدُّ من عين الرقيب !

وبينا أنا أُعد نفسى لكتابة هذه المقدمة مرت بى حوادث خطيرة زادتنى ثقةً بأن بنى آدم كأنما خُلقوا ليبغى بعضهم على بعض ، وليكون أشرارهم حرباً لأخيارهم ، ولتكون كرائم الخلال من المودة والوفاء والاخلاص براقع يلبسونها ليخفوا ما فُطِر عليه لئامهم من الغل والحقد ، وما دَرَجوا عليه من الاثم والبغى والعدوان

وكذلك أمضيت ثلاثة أسابيع أفكر فى أُناسٍ سقيتهم الشهد فسقونى العلقم ، وأصفيتهم الود فأَصْلَوْنى نار الجحود !

والآن أستطيع أن أتقدم اليك أيها القارىء بشىء جديد !

أتدرى ما هو ؟

أستطيع أن أقول لك : ان هذه الحياة أغلى وأثمن من أن تضيع فى معاشرة حاسدٍ لئيم العم والخال ، أو محاورة غبيٍّ قُدَّ رأسه من الظُّلمة ، وصِيغَ عقلُه من الهَبَاء ، أو مصافحة صديق يتجنَّى عليك وهو يعلم أنك فى طُهر الملائكة ، ونُبل الأنبياء

وستقول : أهذا جديد ؟ ألم يقل به فريق من الفلاسفة قبل اليوم ؟

وأجيبك بأن ابن أبى ربيعة نفسه جهر بما يشبه هذه الدعوة ، والمتنبى زاد عليها حين قال فى السُّخر من مَلاحة المِلاح :

بِمَّا أضرَّ بأهل العشق أنهمُ هَوُوا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا
تفنى عيونهمُ دمعاً وأنفسهمْ فى إثْر كل قبيح وَجهُهُ حَسَنُ
تحمّلوا حملتكم كل ناجيةٍ فكل بين علىَّ اليومَ مُؤتَمَنُ
مافى هوادجكم من مهجتى عوضٌ ان مت شوقاً ولا فيها لها ثمنُ

فليكن هذا جديداً علىَّ وحدى أيها القارئ ، ولأكتف بالابتهال إلى الله أن يهبك من البصر بالطبائع والخلائق ما يحول بينك وبين السكون إلى وِردٍ يحلو يوماً ليُمِرَّ أعواماً ، والإخلاد إلى نفوس تصفو لحظة لتكدر دهراً ، والرضا عن حظوظ هى فى رأى العين مطامع وأهواء ، وفى نظر العقل مصائب وأرزاء !!

إذنْ لم يكن إدمانى على كأس الحب شرًّا كلّه ، ولا إسرافى فى رعاية الحسن إثماً كلّه ، بل أستطيع بعد اليوم أن أعد غوايتى هدًى ، وان أحمد الله على أن جعل لى فى ظِلال الحسن مقيلاً أنسى فيه لفحات الأسى ولذعات الأشجان

ولكن أين مواسم ابن أبى ربيعة ؟ أين مناسك الحج حيث تُعرض نفائس الجمال ، وروائع الحسن ، وغرائب الملاحة ، من الحجاز والشام والعراق ؟

الله كريم ، كما يقول الأتراك !

فانه حين خلق الطرف الجامح ، والقلب الخافق ، أنشأ بجانبهما فى كل بقعة وفى كل زمان ، ملاعبَ للغيد ومراتعَ للظباء !!

هو إذنْ رأىٌ أدين به ، وأذهب إليه ، فلست والله سيئ القصد ، ولا أَسْوَدَ الغَرَض ، ولا أنا ممن يعيشون فى الأرض ويهتكون الحرمات ، فليطمئنَّ أساتى المُشْفِقُونَ علىَّ من تَقَوُّل المفترين ، وتَزَيُّدِ المعتدين ، فقد صممّت منذ زمان على أن أُساير الفطرة ، وأُجارىَ الطبيعة ، وأن أقف حيث يقِفُنى وحْىُ الواجب ، وصوت الضمير . وإن الموت لأحبُّ إلىَّ من أن أكونَ رجلاً يُقال له كُنْ فيكون !

فان عشت صافحت الثريَّا وإن أمتْ فان كريماً من تضم الصفائحُ

* * *

وبعد فقد رأيت أن أضيف إلى هذه الطبعة فصولاً عن حب ابن أبى ربيعة وشعره أفصِّل بها بعض ما أجملت فى تلك المحاضرات الثلاث فأثبت رائيته التى أعجب بها ابن عباس مصحوبة بالشرح والتفسير، وأترجم مصعب بن عبد الله الذى انفرد بين القدماء بتقديم مزايا شعره إلى الجمهور، وأتحدث عن معشوقاته اللائى أضْرَمْنَ فى قلبه نار الحب، وهدينه إلى سواء النسيب، وأذكر بعض الفكاهات التى اتصلت به وجرت مجرى الأمثال

غير انى أحب أن انتهز هذه الفرصة لأعرض لك رأيى فى إيثار الأدب المكشوف، إذ كنت واثقاً من انك سترى فى جملة هذا الكتاب ما أخشى أن تتحرج منه، أو تتنكر له، مع أن الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد، حتى لا يفتُر ويضوَى بوضعه تحت رحمة المتزمِّتين من رجال الدين، ورعاية المتحرِّجين من دعاة الأخلاق

ألا ترى أنك لو عمدت إلى امرأة جميلة فصورتها وهى فى لباس المصرية أو الفارسية أو التركية أو الانجليزية أو الألمانية لكان لذلك

اللباس أثر سيء فى وضع تلك الصورة فى حدود ضيقة تحبسها حيث يليق ذلك الزىُّ ويُقبل ذلك الهندام؟ ولكنك لو صورتها عريانة حيث صاغها الحسن ورسمها الدلال لبقيت « انسانة » تروق الانسانية فى جميع البقاع

ولأمرٍ مّا وضع الأقدمون « ڤينوس » عاريةَ الجسم، غانية عن الحُلىِّ واللِّباس! إنهم وضعوها كذلك لتبقى مُنية الأفئدة، وبُهيَة العيون، فى جميع الممالك وعلى اختلاف الأجيال

وكذلك الأدب يسمو بقدر ما يتحرر من قيود الزمان والمكان، فالقصيدة أو الرسالة التى تعبر عن معنى من المعانى الانسانية أبقى على الدهر من التى تعبر عن نزعة مصرية أو انجليزية، فان النزعات الموضعية عرضة للتغير والزوال، ولكن الميول الانسانية جديرة بالخلود، والأدب المستور انما يُغَشَّى بالحُجُب المحلية التى لا ندرى أتبقى سائغة مقبولة، أم يعدو عليها البِدْعُ المستطرَف فيلقى بها فى مهاوى الخمول!

ولقد ظن الناس، حين شاهدوا المناظرة التى قامت بين الأستاذ سلامه موسى والأستاذ توفيق دياب، أن هذه أول مرة يختلف فيها أدباء اللغة العربية في المفاضلة بين الأدب المستور والأدب المكشوف، ولكن الواقع أن هذه المسألة بعينها كانت مثار الجدل عند المتقدمين

تحت اسم آخر هو الخصومة بين من يوجبون أن يكون الكلام جداً كله ، وبين من يؤثرون أن يمزج حيث يقتضى الحال بشىء من الدعابة والمجون

ولو عدنا إلى رجال الأدب فى تلك العصور التى نهضت فيها اللغة العربية ، ولفتت أنظار العالم فى الشرق والغرب إلى مافيها من عناصر القوة وأصول الحياة ، لوجدنا أكثرهم من أنصار الأدب المكشوف ، فهذا أبو الفرج الاصبهانى يودع كتاب الأغانى كل ما عرض له من أخبار الخلفاء والشعراء والكتاب بعبارة حرة صريحة مكشوفة لا يثقلها قيد ولا يحجبها قِناع ، وهذا النويرى يكتب نهاية الأرب بحرية خالصة لايشوبها تحرُّج ولا يحدُّها تنسك ، وهذا الجاحظ يأبى أن يحرم القارئ من ثمار اطلاعه التى جمعت ما تفرق من شهوات العقول ، وهذا الثعالبى يُفرط فى تصيُّد ما شرد من روائع المُلَح والفكاهات ونوادر الساسة والملوك ، ولا ننس ابن منظور الذى أشعر الناس بأنه جبار أهل الجدّ حين وضع لسان العرب ، ثم رجع فراعهم بدعابته حين وضع أخبار أبى نواس

على أنه من الخير أن نقدم للقارئ بعض ما يقوله هؤلاء الأفذاذ فى ايثار الأدب المكشوف ، ولنكتف بقول ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار :

« وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما ، فاذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به

« واعلم انك ان كنت مستغنيا عنه بتنسُّكك فان غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه ، وأن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيأ على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توقِّى المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل عليه معك

« وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . وإذا مرَّ بك حديث فيه افصاح بذكر عورة أوفرج أو فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر خدك وتعرض بوجهك ، فان أسماء الأعضاء لا تؤثم وانما المأثم فى شتم الاعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعزَّى بعزاء أهل الجاهلية فأَعِضُّوهُ بهَنِ أبيه ولا تكنوا » وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لبُديل بن ورقاء — حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ان هؤلاء لو قد مسَّهم حز السلاح لأسلموك — : « اعضَضْ ببظر اللات ،

أنحن نُسلمه ؟ » وقال على بن أبى طالب صلوات الله عليه : « من يطل أير أبيه ينتطق به » وقال الشاعر فى هذا المعنى بعينه :

فلو شاء ربى كان اير أبيكمُ طويلاً كأير الحارث بن سَدوسِ

قال الأصمعى : كان للحارث بن سدوس أحد وعشرون ذكرا .

وقيل للشعبى : انهذا لايجئ فى القياس، فقال : أير فى القياس، الولد ذكر

« وليس هذا من شكل ماتراه فى شعر جرير والفرزدق لأن ذلك تعيير وابتهار فى الاخوات والأمهات وقذف للمحصنات الغافلات ، فتفهّم الأمرين وافرق بين الجنسين . ولم أترخص لك فى ارسال اللسان بالرفث على أن تجعله هِجّيراك على كل حال ، وديدنك فى كل مقال ، بل الترخص منى فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها ، تنقصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض ، وأحببت أن تجرى فى القليل من هذا على عادة السلف الصالح فى إدخال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ، ولا تستشعر ان القوم قارفوا وتنزهت ، وثاموا أديانهم وتورعت »

ومن هذه الكلمة نرى ابن قتيبة يقيد الأدب المكشوف بقيد واحد هو أن لا يكون « تعييراً وابتهاراً فى الأخوات والأمهات وقذفا للمحصنات الغافلات » ونراه ينهى عن أن يكون ذلك النوع ديدن

الكاتب وهِجّيراه ، ويحصره فى المواطن التى تنقصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض ، وكذلك يرى اليوم أنصار الأدب المكشوف ، فهم لايريدون أن يفرغوا للهزل والعبث ، وانما يريدون أن يعطوا كل مقام حقه من الحلاوة والمرارة ، أو الشدة واللين

* * *

أشرت إلى أن من رجال الأدب من عمل وهو كاره على ايثار الأدب المكشوف ، ذلك بأن الجد المطلق ينافى طبيعة الحياة ، فلا يحسب أنصار الأدب المستور انهم يستطيعون المضىّ الى النهاية فى ذلك الطريق ، فقد أراد صاحب زهر الآداب أن يصون كتابه عن ذكر طائفة من الشعر الصريح ، ولكنه غُلب على أمره فى مواطن كثيرة فأباح مالم يكن يبيح من فنون اللهو والمجون

خطر له مرة أن يتكلم عن التضمين فضرب المثل بمن قلب قول النابغة « كالاقحوان غداة غب سمائه » فقال فى الهجاء [1]

ياسائلى عن جعفر عهدى به رطب العِجان وكفه كالجُلمدِ
كالأقحوان غداة غِبّ سمائهِ جفّت أعاليه واسفلُه ندى

(١) ص ٢١١ ج ١

ومع اننا لانسيغ هذا الضرب من الكلام فقد وصفه بأنه « جاء مليحاً فى الطبع ، مقبولاً فى السمع »

وأراد مرة أخرى ان يتكلم عن محاسن الجوارى السود فساق قصيدة ابن الرومى فى جارية عبد الملك ابن صالح وفيها هذه الأبيات فى وصف محاسنها الباطنة [1]

لها حِرٌّ يستعير وَقْدَتَهُ ... من قلب صبٍّ وصدر ذى حَنَق
كأنما حَرُّهُ لخابرهِ ... ما ألهبت فى حشاه من حُرُقِ
يزداد ضيقاً على المِراس كما ... تزداد ضيقاً أنشوطة الوهَقِ [2]

وفى موطن آخر ذكر قول ابن الرومى يصف هن امرأة [3]

يسع السبعة الأقاليم طراً ... وهو فى اصبعين من اقليم
كضمير الفؤاد يلتهم الدنـــيا وتحويه دفتا حيزوم

وساقه الكلام عن تأصل الشاعرية فى صدور العرب إلى الفكاهة الآتية [4]

« قال اعرابى لشاعر من بنى الفُرس : الشعر للعرب ، فكل من يقول الشعر منكم فانما نزا على أمه رجل منا . فقال الفارسى : وكذلك من لا يقول الشعر منكم فانما نزا على أمه رجل منا ! »

(١) ٢٠٩ جـ ١ (٢) الوهق : الحبل يرمى في انشوطة فتؤخذ به الدابة والانسان ، والانشوطة عقدة يسهل انحلالها كعقدة التكة (٣) ص ٩٣ جـ ٢ (٤) ص ٥١ جـ ٣

وأراد أن يذكر ألفاظ أهل عصره فى محاسن النساء ، فرأى من تتمة البحث أن يورد أيضا ألفاظهم فى محاسن الغلمان ، وأتى فى هـذا الباب بطائفة من التعابير المختارة التى تهيج الحواس وتوقظ ماخمد من نزوات الرؤوس [1] وقد أخذ يبدئ ويعيد فى هذه المعانى كلما سنحت له الفرصة وساقه الحديث ، حتى لنعد من أعف ماورواه قول أبى نواس :

ومُنتظرٍ رَجْعَ الحديث بطرفهِ ... اذا ما انثنى من لينه فضح الغصنا
اذا جعل اللحظ الخفىَّ كلامهُ ... جعلت له عينى لتفهمه أذنا

وانما قدمت للقارئ هذه الشواهد من زهر الآداب ليرى كيف فعل أحد المؤلفين المتحرجين الذين يفرقون بين ما يباح وما لا يباح ، وها نحن أولاء نرى ذلك المؤلف لا يستطيع الصبر على تقييد الأدب بما تتأثر به الأذواق من الأوضاع والتقاليد . ولقد ذكّرنى ذلك باللوحات التى يراها الناظرون فى حديقة لكسمبور وغابة بولونيا فى باريس ، ففى كل ركن لوحة فيها انذار بالطرد لكل من يخرج على حدود الأدب والاحتشام ، وفى كل مكان من تلك الملاعب قدٌ يُضَمُّ ، وثغرٌ يُرشَف ، وحِمًى يُباح ! !

* * *

(١) راجع ص ١٤٨ ، ١٤٩ من الجزء الثالث

وقد جاء فى خطبة الأستاذ توفيق دياب ان الأدب لايراد لذاته وانما هو وسيلة إلى الأخلاق ، وأذكر انه قال فى شىء من الانفعال : فليسقط الأدب ان أضر بالاخلاق . ويغلب على ظنى ان الأستاذ دياب لم يقل العبارة الأخيرة الا مبالغةً فى الدفاع عن رأيه والدعوة اليه ، لذلك أرجو أن يرى معنا انه لاغنى للأمم الحية عن الآداب والفنون ، بغض النظر عن قربها أو بعدها من الأخلاق . فلننظر معاً برفق وبإخلاص إلى تأثير الدين والأخلاق فى اخماد الآداب والفنون :

لاينكر أحد ، ولو أسرف فى التكلف ، ان تحريم الاسلام للتصوير جنى على الشعوب الاسلامية جناية عظيمة ، وعطّل مواهبها الفنية ، وحشرها فى زمرة المتخلفين عن فهم أسرار الجمال . ولا ينكر أحد ، ولو أمعن فى التعصب ، ان تحطيم العرب للأنصاب والتماثيل التى كانت تفصح وتبين عن أساطير الأولين انما كان أثرا للتحرج الذى دعاهم اليه الدين . ولولا بقية من سلامة الذوق وصُبابة من صدق الحس لما رأينا فى الشعوب الاسلامية ميلاً إلى روعة الفن ولا كلفاً بآثار المبدعين .

وسيسأل القارئ : وما الذى خسرناه بانصراف المسلمين عن النحت والتصوير ؟ ونجيبه بأننا حُرِمنا بذلك من الوقوف على ميولهم وغرائزهم وسجاياهم . فلو تركهم الدين أحراراً فى شرح ألوان حياتهم

لرأينا كيف كانوا يلعبون وكيف كانوا يجدّون ، وكيف كانت تجيش بصدورهم هواجس المنى ونوازع الآمال . ولكنه قيدهم فلم يتركوا لنا إلا آثاراً ضئيلة لاتكفى فى كشف ما كانوا يضمرون

ولقد أبيح لهم فى سبيل الترغيب والترهيب أن « يتكلموا » عن نعيم الجنة وعذاب السعير ، فتركوا لنا طائفة من الأمانى والمخاوف تمثل ما كانوا يرجون ويرهبون ، فعرفنا مثلا انهم بحكم مركزهم الجغرافى الأول قبل أن يخرجوا من جزيرة العرب كانوا من آلام الظمأ والجوع فى كرب عظيم ، ألا ترى كيف يذكرون أن أول ما ينعم به أهل الجنة هو الكوثر ، والكوثر نهر عذب ينهل منه الوارد نهلة فلا يظمأ بعدها أبداً ، وعبارة « لا يظمأ بعدها أبداً » تمثل أقصى ما يتمناه البدوى فى الصحراء وقد لفحته السموم وصهرته الرمضاء . ولك أن تقول مثل ذلك فيما تحدثوا به عن عذاب القبر إذ تراهم يتصورون المذنب وقد أحدقت به الحيات والثعابين ، وانه لدليل على ما كانوا يقاسون فى البادية من عنت الأفاعي والصِّلال .

افهم هذا أيها القارئ واستغفر الله لى ولك ، فان مناهج البحث الحديث لا تسمح بالوقوف عند معانى الحروف كما كان يفعل المتقدمون !!

ولو عدنا إلى الشعر لرأينا أثر المتزمتين فى اخماده كان غاية فى الشناعة والقبح ، فقد عرّض النبي بالشعر وهاجم الشعراء متأثراً بعداوة من عاداه من شعراء قريش وشعراء اليهود ، فكان من ذلك أن أسرف جمهور المسلمين في بغض الشعر والنيل من الشعراء ، وقد سئل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أتقول الشعر فى فقهك وورعك؟ فأجاب : لابد للمصدور أن ينفث ! وهذا الفقيه هو صاحب هذه الابيات الرائعة :

شققتِ القلب ثم ذررت فيه ... هواك فليمَ فالتأم الفطورُ
تغلغل حب عثمة فى فؤادى ... فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ... ولا حزن ولم يبلغ سرور

وقد زعموا أن الامام الشافعي قال :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

وكذلك زعموا قاتلهم الله أن النبي لم يكن يقرأ بيتاً من الشعر إلا كسره ، وذلك غاية الإفك والبهتان ، ولا يزال شيوخ الأزهر مختلفين فى بدء الشعر بالبسملة لأنه فيما يرون ليس من الأمور ذوات البال !

وهذا الاتجاه الذى تورط فيه الجمهور الاسلامى ضد الشعر أتاح

لنا طائفة من الفكاهات ، فقد قيل لابن سيرين : ان قوماً يزعمون أن انشاد الشعر ينقض الوضوء ، فأنشد :

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزاً ... ولو رضيت رشح أستهِ لاستقرتِ

وقام يصلى ! وقيل بل أنشد :

أُنبئت أن عجوزاً جئت أخطبها ... عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطولِ

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول؟ فأنشد :

وهنّ يمشين بنا هميسا ... إن تصدق الطير نَنِكْ لميسا

وقال : إنما الرفث عند النساء ، ثم أحرم للصلاة !

وقيل لابى السائب المخزومى : أترى أحداً لايشتهى النسيب ؟ فقال : أما ممن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا !

ولولا خوف الإطالة لأريت القارئ كيف أثر التحرج فى قتل سائر الفنون . فلأكتف بما أسلفت ، ولأشر فقط إلى أن جناية التحرج لم تقف عند الأدب والفن ، بل طغت على العلم أيضا ،

فقد كان الغزالى يكره التشريح لأنه يذهب بفريق من العلماء إلى أن النفس تموت !!!

ولو أن الدين والخلق وقفا عند حدود العقل لخفّ الأمر وهان ، ولكنهما صارا سِناداً لكل ضعيف الحجة سقيم البرهان فلنعلن حرية الآداب والفنون ، وليرض من شاء بالجهالة يحرسها الدين وتحوطها الأخلاق !

زكى مبارك

مصر الجديدة
٣ رمضان سنة ١٣٤٦
٢٤ فبراير سنة ١٩٢٨

المحاضرة الاولى

أيها السادة

فى ضواحى سنتريس ، حيث يحلو السَّمَر ، فى ليالى القَمَر ، وعلى شاطئ النيل هناك ، حيث النجم والشجر ، والماء والزهَر : فى تلك البقعة المشتبهة الأزاهر ، المشتبكة الجداول ، حيث السواقي الشاديات ، والطيور الصادحات ، وتحت تلك الشجرة المعطَّفة الغصون ، المهدّلة الشعور ، حيث أجلس فى الضحى والظهيرة ، مع الصحب والعشيرة ، بجانب ذلك الطريق الجميل : حيث تعدو السيارات الفاخرة ، من القاهرة إلى الاسكندرية ومن الاسكندرية إلى القاهرة ، وحيث يمشى فضلاء سنتريس فى الأصائل والعشيات ، جماعات جماعات ، يتناشدون الأشعار ، ويتناقلون الأخبار .

هناك : حيث أستظرف الجلوس مع أولئك الأمجاد ، شجعان البلاد . أولئك الذين لم تخالط نفوسهم أوضار الحضارة ، ولا سموم المدنية ، ولم تفارق طباعهم أخلاق البداوة ، ولا رسوم العصبية ، أولئك الذين أجلس اليهم فيعود إلىَّ ضلالى القديم ، وعُدوانى

الموروث ، فأتمدّح بأجدادى الشجعان ، وآبائى الأبطال ، وأذكر ماشنّوا من الغارات ، في العصور الخاليات

هناك حيث أقضى شطراً من الصيف ، وجزءاً من الخريف ، بين خطاب أكتبه ، أوجواب أقرؤه ، وحبيب أُساهره ، أوأنيس أُسامره ، وعهد أحنّ اليه ، أو عيش أبكى عليه

ليالىَ النيل واللذاتُ ذاهبةٌ وجدى عليكن أشجانى فأضنانى
لويرجع الدهر لى منكنّ واحدةً فى سنتريسَ ويُدنى بعض خلانى
إذاً تبيّن دهرى كيف يرحمنى من ظلم همي ومن عُدوان أحزانى [1]

هناك ، هناك جلست فى بعض الأصائل مع الصديق الحميم : الشيخ حسين الحكيم [2] يحدثني وأُحدثه عن الشاعر الغزل : عمر بن أبى ربيعة المخزومى

(١) هذه الأبيات من قصيدة للمؤلف

(٢) ولد الشيخ حسين الحكيم في سنتريس ثم سكن القاهرة والتحق بمدرسة عثمان باشا ماهر فمدرسة القضاء الشرعى ، ثم نال منها شهادة العالمية ، وعين مدرسا للغة العربية بمدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، فقضى سنة في المدرسة الواصفية ببور سعيد ، وبضعة أشهر فى مدرسة دسوق الثانوية ، ثم قضى نحبه هناك يوم الجمعة ٩ ربيع الأول سنة ١٣٣٧ — ١٣ ديسمبر سنة ١٩١٨ ثم نقل الى القاهرة مساء السبت فدفن بها مساء الأحد

وكان رحمه الله آية الآيات فى حسن الخلق ، وصباحة الوجه ، وحلاوة الحديث ، وأصالة الرأى ، وكان لا يعدله عندى غير شقيق سيد مبارك الذى فقدته

وكذلك يميل الشباب الى شعر الشباب ، كما يرغب الكهول فى أدب الكهول . فان للشبيبة شعراً ، وللكهولة شعراً . ولأدب الصبا فى استطرافه أشياع وأتباع ، كما لحكمة الشيخوخة فى رزانتها أنصار وأعوان

فلما قضينا بعض مآرب الشباب ، من الجرى فى ميدان الخيال الساحر ، وشرحنا بعض أهوائنا وميولنا فى شخص ابن أبى ربيعة ، وكانت الشمس قد جنحت الى الغروب ، ونسمات الأصيل قد مالت الى الهدوء ، وبدت لنا سنتريس وكأنها بَسْمةٌ فى فم الكون يضمرها اذا جن الظلام ، فما تتبين منها غير المصابيح الزاهرة ، فى المغانى الساهرة ، والأندية السامرة ، لم نجد بداً من العودة اليها ومساهرة السامرين فيها

ولأمر مّا أراد صديقى الشيخ حسين أن يذهب الى منزله فى شمال البلدة . وأردت العودة الى منزلى فى جنوبها الشرقى . بيد أنا لم نكد نبتعد كثيرا حتى سمعته يقول : اذا عدت غداً فأحضر معك ديوان ابن

معه في أسبوع واحد . وكان موتهما معا بالحمى الاسبانية لا رد الله لها غربة ولا قدر لها رجعة . وكان أخى سيد من أقوى الفتيان بأساً ومضاهم عزيمة ولو عاش لضربت بشجاعته الامثال

أبي ربيعة . فقلت له مازحا : ومن ابن أبي ربيعة ؟ فأجاب مسرعاً : فتى قريش وشاعرها

فأعجبت بجوابه ، وسررت من بداهته ، إذ علمت ان ابن أبي ربيعة مهما درسنا شعره ، وحللنا شخصيته ، فلن نجده إلا فتى قريش وشاعرها وكذلك أريد أن أحدثكم عنه من هذه الناحية : فأشرح لكم فتوته وشعره . أو حبه ونسيبه

* * *

أيها السادة

ان الغرض من هذه المحاضرات انما هو البحث العلمي قبل كل شيء ، والوصول الى الحقيقة من أي سبيل ، وهنا ألفت نظركم الى ان العلم لا يكون دائماً جافاً ، بل قد يكون أحلى من المنى ، وأشهى من ثغور الحسان ، فإنك اذا احتجت الى شيء من الزهادة في العيش ، والرغبة عن الحياة ، لتفهم الجزء الثالث من كتاب الاحياء للغزالي ، والى قسط من الارتياب ، لتفهم حديث الملحد تيموكليس مع الراهب باقنيس ، للفيلسوف اناتول فرانس ، فانك أيضاً في حاجة الى شيء من الخلاعة ، ونصيب من المجون ، لتفهم الشاعر الفتى عمر بن أبي ربيعة

وكذلك أدعوكم الى استقدام هواكم : قديمه وحديثه ، واستنهاض صبابتكم : طريفها وتليدها ، حتى تفهموا هذا الشاعر الغزِل ، وتدركوا غرض هذا الماجن الخليع

ولن تكونوا اذا فعلتم ذلك الا باحثين عن الحقيقة ، سائرين اليها عن طريق العلم ، فان أنواع العلوم تتطلب ألواناً من النفوس ، بل الفن الواحد يتطلب أرواحاً مختلفة ، لفهم أدواره المختلفة ، فليس الذي يفهم نسيب الأمراء ويطرب له ، لأنه يساكن من يهوى ، ويختلف الى من يحب ، بقادر على أن يفهم نسيب المشرّدين في الآفاق : ممن أُهدرت دماؤهم ، وصُودرَت مُيولهم

وليس الذي يعجب بقول كثيِّر :

يكلفها الغيرانُ شتمي وما بها ... هوانى ولكن للمليك استذلّتِ
هنيئاً مريئاً غير داء مخامرٍ ... لعزة من أعراضنا ما استحلّتِ
فلا يحسب الواشون انصبابتي ... بعزة كانت غمرةً فتجلتِ (١)

بمستطيع أن يعجب بقول الآخر :

صفا وُدُّ ليلى ما صفا ثم لم نُطع ... عدواً ولم نسمع به قِيل صاحب

(١) هذه الابيات من تائية كثير وهي غرة من غرر الشعر العربي يجدها القارىء كاملة في كتاب مدامع العشاق

فلما تولّى ود ليلى لجانبٍ وقومٍ تولّينا لقومٍ وجانب
وكلُّ خليل بعد ليلى يخافنى من الغدر أو يرضى بودٍّ مقارب

فاذا رأيتمونى أكثر من الأمثلة، وأُغنى بانشاد الشعر، فليس ذلك لإمتاع افئدتكم، وإشباع أسماعكم، فحسب، بل لأثبت فى أذهانكم وأمكن من قلوبكم صورة ذلكم الشاعر الشاب، الذى قضت أيامه بأن لاتمتد اليه أيدى الرسامين والمصورين، فلم يبق لنا من معالم جماله، ومعاهد شبابه، إلا ماتركه فى شعره، وخلاّه فى نسيبه، والشعر صورة الشعراء

*
* *

وبعد فهل كان ابن أبى ربيعة محباً صادق الحب، متين الصبابة؟ أم كان فتًى مغروراً بشبابه، مفتونا بجماله، لا يأبه بالحب، ولا يخضع للغرام؟ واذا لم يكن عاشقاً ولا محباً، فكيف أجاد النسيب، وأبدع فى التشبيب، وما هى ميزة شعره، التى بذّ بها اخوانه، وفاق بها أقرانه؟؟

فأمامنا اذاً مسألتان: الأولى حقيقة حبه، والثانية حقيقة شعره، وسنوفى الكلام عن أولاهما فى هذه المحاضرة، ونرجىء الكلام عن أخراهما الى المحاضرتين القادمتين، إن شاء الله

أما حبه، فأنا أتهمه فيه، وأنكره عليه، وذلك لأمور:

أولا — لأنه حَضَرى لابدوى، وقلما يصدق للحضريين حب، أو تبقى لهم صبابة: إذ يرون من متممات الظرف، ومكملات الأدب، أن يحيا الرجل بعين باكية، وقلب خفّاق: فلا يزالون يتلمّسون الهوى ويتحسّسون الصبابة، حتى تتاح لهم أسبابها، وتساق اليهم همومها

وأنا الذى اجتلب المنية طرفهُ فمن المطالب والقتيل القاتلُ

اذا رهب البدوى الحب، فقال يتخوف عواقبه، ويتهيّب جانبه:

فيارب خذ لى رحمةً من فؤادها وحُلْ بين عينيها وبين فؤادى

رأيت الحضرى شَرِهاً طماعا، يود لو حشر الله اليه أهل الجمال أجمع فنال من الصبابة أقصاها، ومن المحبة أسماها، وينشد قول ابن الاحنف

إن الهوى لو كان يَنْـ ـفُذ فيه حكمى أو قضائى
لطلبتهُ وجمعتهُ من كل أرض أو سماء
فقسمتهُ بينى وبيـ ـن حبيب نفسى بالسواء
فنعيش ما عشنا على محض المودة والصفاء
حتى اذا متنا جميـ ـعاً والامور الى فناء
مات الهوى من بعدنا أو عاش فى أهل الوفاء

كأنّ حتما على البدوى أن يُخلد الى القناعة فى كل شىء ، وعلى الحضرى أن يُعرف بالجشع فى كل شىء .

ومن هنا تعرف كيف غلبت العفة على أولئك ، وتطرق الفسق الى هؤلاء ، فاذا قلت للبدوى انشدنى شيئاً من الشعر ، فقلما يروقه غير قول جَحْدر وقد زُج فى السجن

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تدان

نعم وأرى الهلال كما تراهُ ويعلوها النهار كما علانى

واذا استنشدت الحضرى شيئاً من مختاره فى النسيب ، فقلما ينشدك غير قول ابن الفارض

واذا اكتفى غيرى بطيف خيالهِ فانا الذى بوصاله لا أكتفى

وذلك لما يختلف الفريقان فى فهم معنى السعادة فى الحب ، فهى عند الاعراب لا تعدو مسامرة الامانى ، ومسايرة الاحبة ، وعند أهل الحضر : كل ما أمتع العين والـ . . . الى غير ذلك مما يشتهون

واذا كان المال ـ وهو من معبودات الحضريين ـ يطلب بعضه للادخار وبعضه للانفاق ، فان الجمال عندهم كذلك — إلا من عَصَم الله — فهم يُعجبون بالعيون الكحيلة ، والشعور المرسلة ، ليمتعوا عيونهم بالنظر اليها وأفئدتهم بالتفكير فيها ، ثم لا تسأل بعد ذلك عن رأيهم فى بقية

المحاسن ، فمهدى بهم يرجون الخد للتقبيل ، والريق للارتشاف ، وهكذا حتى يصل بهم الطمع : الى ما ترغب النفس عن ذكره ، والتأمل فى جدواه .

الحسن عند الحضريين ، أشبه شىء بجنة وردها جَنِىّ ، وزهرها نَدِىّ ، يدخلها الزائر : فلا يعجب منها بزهرة ذات بهجة ، أو وردة ذات نضرة ، إلا دعته أخرى أنضر منها وأصبح .

فاذا ذهب اليها يجتلى حسنها ، ويتأمل شكلها ، لفتت نظره ثالثة ورابعة ، حتى يتصفح الحديقة بأكملها ، ويقتلها نظراً وشما ، والمرء يكلف بالحسن ، ويُغرم بالجمال

فاذا عاد الى قلبه ، ورجع الى نفسه ، ليعرف أيها أعلق بخاطره ، وأملك لوجدانه ، حسبها هذه بل تلك ، ثم يختلط عليه الأمر ، فلا يدرى أيها أحق بالرعاية ، وأولى بالاحتفاظ : فينصرف وقلبه مسرور من البستان فى جملته ، غير مغرم بزهرة معينة من زهوره الحسان

وكذلك يمشى الحضرى فى متنزهات الحواضر ، فيرى من شتى الألوان فى الحسن ، ومختلف الاشكال فى الملاحة ، ما يملأ عينه ، ويبهر قلبه ، ثم يأوى الى بيته خليا من الهوى بريئا من الصبابة ، كأن لم يسمع وَسْواس الحلىّ ، ولم ير لألاء الجبين .

وهب أن بين أولئك الفاتنات ، من غلبت على قلبه ، واستولت على لبه ، أتراه يسلم فى أيامه البواقى ، من غادة أملح شكلا ، وأحلى دلاّ ، فتملك من بعدها قلبه ، وتنفرد من دونها بهواه ، وهو للحسن تَبوع ؟

ألا إن الحضرى فى حبه كمدمن الخمر ، يُصرع كل يوم مرة : فينسى بكاسه الأخرى كاسه الأولى

والمرء ما دام ذا عين يقلّبها فى أعين الغيد موقوف على الخطرِ

ولقد ذكروا ان كثيّراً مشت أمامه امرأة ظريفة المِشية ، فتبعتها عينه ، فالتفتت اليه ، فعرض عليها حبه ، فقالت : كيف ذلك وقد ضاع شعرك فى عزة ؟ فقال : يا سيدتي ! قد كان ذلك تصنّعاً ورياء . ولئن أبحتنى حبك ، ومنحتنى حسنك ، لأسيرن فى ذكرك الشعر ، ولأضربن بحسنك الأمثال : فكشفت عن وجهها فأذا هى عزة . ثم قالت له : حسبك يا غادر ! فبهت كثير وانصرف : وهو خزيان نادم !

وكذلك كان ابن أبى ربيعة : فما قصر نفسه على امرأة ، ولا وقف حبه على فتاة . وإنما كان يتلمس الجمال بين مناسك الحج ، ويتلقّط الحسن فى مسارح الظباء : فيغشى الرياض الزاهرة ، علّه يظفر بزهرة لا كالزهور ، ويقصد الأندية السامرة ، عساه يسمع حديثاً عن بعض

الآنسات الحور ، بل ربما صدّ عمن تجزيه بالحب حباً ، ورام من تجزيه بالقرب الصدود .

ولقد مر به فَتَيانِ وهو بالحِجْر يصلى ، بعد أن صوّح زهره ، وتأوّد غصنه ، وبعد أن سئم الغواية والفساد ، وجنح الى الهداية والرشاد ، وبعد أن خلّى الغرام جانبا ، وأقبل على نفسه يحاسبها ، وعلى ربه يستغفره ، فلم يكد يقضى صلاته حتى هرع إليهما يتعرف خبرهما ويعرف أهلهما . فلما عرفهما وكانا أخوين قال :

يا ابْنَى أخى : لقد كنت موكّلاً بالجمال أتبعه ، وانى رأيتكما فراقنى حسنكما وجمالكما فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندما عليه !

وليس بعجيب أيها السادة أن لا يصدق فى حبه من يقول :

سلامٌ عليها ما أحبت سلامنا فان كرهته فالسلام على الأخرى

ولا نريد بهذه الكلمة الغضّ من عواطف الحضريين ولا الطعن فى كرامتهم ، فقد يكون من بينهم من هو أصدق حبا ، وأنقى عرضا ، ولكنا نرى الشره فى الحب ، والطمع فى الصبابة ، من علائم التلون ، ودلائل التقلب [1]

(١) يرى الاستاذ الدكتور احمد ضيف ان العلم والفلسفة قد يهذبان النفس ، ويلطفان الطبع . فلا تكون الحضارة من أسباب الفسق ، ولا موجبات الفجور ، ثم لا يكون

ليس فى القلب موضع لحبيبـــين ولا أحدث الأمور اثنانِ
فكما العقل واحدٌ ليس يدرى خالقاً غير واحدٍ رحمن
فكذا القلب واحدٌ ليس يهوى غير فرد مباعد أو مدان
وكذا الدين واحدٌ مستقيمٌ وكفورٌ من عنده دينان
هو فى شرعة المودة ذو شر لكٍ بعيدٌ عن صحة الإيمان

وكذلك كان الحضريون مكذّبين فى عشقهم ، متهمين فى حبهم

* * *

ثانيا — كثر غروره بشبابه ، وفتونه بجماله ، وتحدثه بحب النساء له ، وإقبالهن عليه . وقلما يكون المعشوق عاشقا ، والمحبوب محبا ، وقد رأيت فى شعره عزة المعشوق ، لا ذلة العاشق . وتيه المحبوب ، لا خضوع المحب

فتارة يذكر أنه أمنية محبوبته ، وأمل معشوقته ، كقوله :

البدوى أصدق من الحضرى فى الحب ، ولا أثبت منه فى الغرام

وهى فكرة جميلة غير أنها لا تنطبق على ابن أبى ربيعة وأمثاله من الحضريين . فان كثيرا منهم يشاركون الفلاسفة فى سعة العلم ، وبعد النظر ، ثم لا يرون رأيهم فى التقشف والزهد : واليهما يرجع الفضل فى كبح الهوى وزجر النفس .

على أن المذاهب الفلسفية لا تدعو كلها الى الطهر ، ولا ترغب فى العفاف . ولا ينتفع المرء بأحسنها أثراً مالم يصر من أربابها ، والداعين اليها ، فى سره وجهره ، وشبابه ومشيبه . والا فلماذا تجمع الحواضر بين العلم والفساد ؟

ألمِمْ بزينب إن الركب قد أفِدا قلّ الثواء لئن كان الرحيل غدا (١)
قد حلفت ليلة الصوّرين جاهدةً وما على المرء إلا الحلف مجتهدا (٢)
لأختها ولأخرى من مناصفها لقد وجدت به فوق الذى وجدا (٣)
لو جُمِّع الناس ثم اختير صفوتهم شخصاً من الناس لم أعدل به أحداً

وقوله

وانها حلفت بالله جاهدةً وما أهلّ له الحجاج واعتمروا
ما وافق النفس من شىء تسرُّ به وأعجب العين إلا فوقه عمرُ

وأخرى يتمدح بعتبها عليه ، وتوددها اليه ، كقوله

فما أنس من ود تقادم عهدهُ فلست بناسٍ ماهدت قدمى نعلى
عشيةَ قالت والدموع بعينها هنيئاً لقلبٍ عنك لم يُسْلِه مُسل
لقد كان فى إقراضك الود غيرنا وفعلك ناهٍ لى لو أن معى عقلى
فهذا الذى فى غير ذنب عاتبتهُ صنيعك بى حتى كأنك ذو ذَحل (٤)
هل الصَّرم إلا مُسلمى إن صرمتنى الى سَقَمٍ ماعشت أو بالغٌ قتلى (٥)

(١) افد الركب : اسرع (٢) الصوران : متنى الصور وهو موضع بالبقيع (٣) المناصف الخدم جمع منصف ومنصفة ، وهى هنا الوصائف اللائى يقمن بخدمة الحسان
(٤) الذحل : الثأر . أو هو العداوة والحقد
(٥) ولقد ذكروا أن كثيراً عاب ابن أبى ربيعة فى قوله

قالت لترب لها تحدثها لتفسدن الطواف فى عمر

وحينا يفخر بدموعها المرفضة لبعده ، المنهلة لهجره، كقوله

تقول وعينها تذرى دموعاً ... لها نسق على الخدين تجرى
ألست أقرَّ من يمشى لعينى ... وأنت الهم فى الدنيا وذكرى
أمن سَخَط علىَّ صددت عنى ... حملت جنازتى وشهدت قبرى

وآخر يصف نفسه بالجمال اليوسفى فيقول

قان هذا الذى نلومك فيهِ ... لاتحجى من قولنا بفتيلِ

قومى تصدى له ليبصرنا ... ثم اغمزيه يا أخت فى خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ... ثم اسبطرت تسعى على أثرى

وقال له : انما تنسب بنفسك ، ولو أنك وصفت بهذا الشعر هرة أهلك ، لكنت قبحت وقلت الهجر ، انما توصف الحرة بالحياء والاباء ، والبخل والامتناع ، كما قال هذا ، وأشار الى الاحوص

أدور ولولا أن أرى أم جعفر ... بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زواراً ولكن ذا الهوى ... اذا لم يزر لابد أن سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر ... وإنى الى معروفها لفقير

وقد لاحظ عليه ذلك ابن أبى عتيق أيضا فى قوله

بينما ينعتنى أبصرتنى ... دون قيد الميل يعدو بى الاغر
قالت الكبرى أما تعرفه ... قالت الوسطى بلى هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها ... قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

وعندى أن هذا خطأ من كثير وضلال من ابن أبى عتيق . وليس لابن أبى ربيعة فى صباحته ان يتبع رأى كثير فى دمامته فان لجمال الشاعر أثراً فى نسيبه ونصيبا من تشبيبه وقد اوضحت ذلك فى المحاضرة الثالثة فانظره هناك

فصِليه فان تلامى عليهِ ... فهو أهل الصفاء والتنويل

وانه ليُغْرِب أحياناً فى الصَّلَف ، ويُمعن فى التيه : فيقول مثلا :

قالت على رِقْبةٍ يوما لجارتها ... ماتأمرين ؟ فان القلب قد تُبِلا[1]
وهل لىَ اليوم من أخت مُواسيةٍ ... منكنَّ أشكو اليها بعض ماعملا
فراجعتها حَصانٌ غير فاحشةٍ ... برجْع قول ولبٍّ لم يكن خَطِلا[2]
لاتذكرى حبَّه حتى أراجعهُ ... انى سأكفيكهِ ان لم أمت عَجلا
فاقْنَىْ حياءك فى سترٍ وفى كرمٍ ... فلستِ أول أنثى عُلِّقت رجلا[3]
صدت بعاداً وقالت للتى معها ... بالله لوميه فى بعض الذى فعلا
وحدثيه بما حُدِّثت واستمعى ... ماذا يقول ولاتَعِىْ به جَدَلا
حتى يرى ان ما قال الوشاة لهُ ... فينا لديه الينا كله نقلا
وعرِّفيه به كالهزل واحتفظى ... فى غير معتبة ان تغضبى الرجلا
فان عهدى به والله يحفظه ... وان أتى الذنب ممن يكره العذلا
لوعندنا اغتيبَ أو نِيلت نقيصتهُ ... ما آب مغتابه من عندنا جَذِلا

ويقول أيضاً فى الحديث عن بعض الواجدات به :

(١) تبل القلب : اسقمه الحب (٢) الحصان والحاصن المرأة العفيفة ، ونساء حواصن
(٣) اقنى حياءك : الزميه

لقد حَلِيتْك العين أول نظرةٍ وأُعطيتَ منى يابن عمّ قَبولا
فأصبحتَ همًّا للفؤاد ومُنيةً وظلاً من النُّعمي علىّ ظليلا

فهذا كله دليل على أن ابن أبى ربيعة كان معشوقاً لا عاشقاً، ومطلوباً لا طالباً، وأن النساء كانت تقع عليه كما يقع النحل على الزَّهَر، والطير على الشجَر.

***

ثالثاً — كثرت دعوى ابن أبى ربيعة توحيد حبه، وإفراد غرامه، فيقول فى ليلى:

لقد أرسلت فى السر ليلى تلومنى وتزعمنى ذا مَلّة طَرِفاً جَلْداً [1]
تقول لقد أخلفتنا ما وعدتنا ووالله ما أخلفتها طائعاً وعدا
فقلت مَرُوعاً للرسول الذى أتى تراه لك الويلات من أمرها جدا
إذا جئتها فاقر السلام وقل لها
ذَرِى الجور ليلى واسلكى منهجاً قصدا
تَعدِّين ذنباً أنت ليلى جنيتِه علىَّ ولا أحصى ذنوبكمُ عدا
أفى غيبتى عنكم لياليَ مرضتها تزيدينى لَيْلَى على مرضى جَهْداً

(١) الطرف: هو المتقلب الذى لا يثبت على امرأة ولا صاحب

فلا تحسبى أنى تمكّثتُ عنكمُ ونفسى ترى من مَكثها عنكمُ بُدا
ألا فاعلمى أنا أشد صبابة وأصدق عند البين من غيرنا عهدا
غداً يكثر الباكون منا ومنكمُ وتزداد دارى من دياركمُ بُعدا
فان تصرمينى لا أرى الدهرَ قرةً لعينى ولا ألقى سروراً ولا سعداً
فان شئت حرمت النساء سواكمُ
وإن شئت لم أطعم نُقَاخاً ولا بَرْدا [1]

ويقول فى الرباب:

أرسلت تعتب الرباب وقالت قد أتانا ما قلت فى الانشاد
قلت لا تغضبى فداؤك نفسى ثم أهلى وطارفى وتلادى
إن تعودى تكن تهامة دارى وبنجدٍ إذا حللت معادى
أنت أهْوَى إلىّ من سائر النا سِ ذرينى من كثرة التعداد

ويقول فى عبدة:

أعبْدةُ ماينسى مودتَكِ القلبُ ولا هو يُسليه رخاءٌ ولا كَربُ
ولاقول واشٍ كاشحٍ ذى عداوةٍ ولا بُعد دارٍ إن نأيتِ ولاقربُ
وما ذاك من نُعمى لديكِ أصابها ولكنَّ حبًّا ما يُقاربهُ حبُّ
فان تقبلى ياعبد توبة تائب يتب ثم لايوجَدْ لهُ أبداً ذنبُ

(١) النقاخ على وزن غراب الماء العذب

أذلُّ لكم ياعبد فيما هويتمُ ... وإنى إذا مارامنى غيركم صَعَبُ
وأعذل نفسى فى الهوى فتعقنى ... ويأصِرنى قلب بكم كَلِفٌ صبُّ
وفى الصبر عمن لايواتيك راحة ... ولكنه لاصبرَ عندى ولا لبُّ
وعَبدة بيضاء المحاجر طَفلةٌ ... منعّمةٌ تصبى الحليم ولا تصبو
ولست بناسٍ يوم قالت لأربع ... نواعم غُرٍّ كلهن لها تِربُ
ألا ليت شعرى فيم كان صدودهُ ... أعُلِّق أخرى أم علىّ به عَتْبُ

ويقول فى زينب [1] :

أُحدِّث نفسى والأحاديثُ جمةٌ ... وأكبر همِّى والأحاديث زينبُ
اذا طلعت شمس النهار ذكرتها ... وأُحْدِث ذكراها إذا الشمس تغرب

(١) هي زينب بنت موسى الجمحية . وكان سبب تشبيبه بها أن ابن أبى عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ، ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ماشغل قلب عمر . وأماله إليها فقال فيها الشعر وشبب بها . فلما بلغ ذلك ابن أبى عتيق لامه وسخط عليه . وقال له : أتقول الشعر في ابنة عمى ؟ فقال ابن أبى ربيعة وقد عطف عليه المساءة

لاتلمنى عتيق حسبى الذى بى ... ان بى ياعتيق ماقد كفانى
لاتلمنى وأنت زينتها لى ... أنت مثل الشيطان للانسان
لو بعينيك ياعتيق نظرنا ... ليلة السفح قرت العينان

وقد زعم في هذه القصيدة أنه نسى من أجلها النساء اذ يقول

لم تدع للنساء عندى نصيباً ... غير ماقلت مازحاً بلسانى
وقلى قلبى النساء سواها ... بعد ما كان مغرماً بالغوانى

ويقول فى أسماء

لم يحبب القلب شيئا مثل حبكمُ ... ولم تر العين شيئا بعدكم حَسَنا
ما إن نبالى اذا ما الله قربكم
من كان شط من الاحباب أوقطنا [1]
فان نأيتم أصاب القلبَ نأيكمُ ... وان دنت داركم كنتم لنا سكنا
ان تبخلى لايسلِّى القلب بخلكمُ ... وان تجودى فقد عنَّيتنى زمنا

ويقول فى هند :

ولقد قلت إذ تطاول هجرى ... ربِّ لاصبرَ لى على هجر هندِ
رب قد شفَّنى وأوهن عظمى ... وبرانى وزادنى فوق جَهْدى
ليس حبى لها ببدعة أمر ... قد أحب الرجال قبلى وبعدى
جعل الله من أُحب سواكم ... من جميع الأنام نفسَك يفدى

ويقول فى النوّار :

لاأبالى اذا النوى قربتكم ... فدنوتم من حَلَّ أو من سارا
والليالى اذا نأيتِ طوالٌ ... وأراها إذا دنوتِ قصارا

ويقول فى عمرة :

احدى بنى أود كلفت بهـا ... حملت بلا تِرةٍ لنا وِتْرا

(١) شط : بعد — قطن : أقام

والله ما أحببت حبكمُ لاثيّباً خُلِقت ولا بِكرا

وأظهر من كل ماتقدم قوله فى عشمة

ماخنت عهدك ياعُشَيم ولاهفا قلبى الى وصلٍ لغيرك فاعلمى

ولايمكن أيها السادة أن تكون كل هذه الدعاوى صحيحة . فإن كَذَب بعضها كان دليلاً على كذب البواقى ، فهو إذاً محتالٌ ماهر يُقسم لكل غانية يمينا . والغوانى سريعة التصديق [1]

(١) قد وافقنا على هذا الرأى كثير من شيوخ الادب ، وأساتذة البيان ، وفى مقدمتهم الاستاذ الشيخ مصطفى القاياتى والاستاذ الدكتوو احمد ضيف وخالفنا في ذلك الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار : فهو يرى أن تعدد المعشوقات لايدل على الكذب في الحب ، فقد يخلص المحب في يومه إلى إحدى الغانيات ، ثم يصفى غيرها الود فى الغد ، ولا يكون كاذباً في حبه الاول ، ولا متهماً في وده الثانى . بل قد يفنى في حبه لبعض الغوانى ثم ينصرف عنها ثم يعود إليها ، كما قيل :

هجرتك حتى قيل لايعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

ولكن ألا يرى فضيلة الاستاذ الشيخ النجار أن هذا من ابن أبى ربيعة وأمثاله تقلب في الحب ، وتلون في الود ، وانه إن لم يكن كل الكذب فهو بعض الكذب ؟ أيعد وفياً من قلبه كل يوم في حب جديد ، أو يحسب صادقاً من لم يكن ذا وفاء ؟ إن هذا لبعيد !

هذا ، وقد عرض أستاذنا الدكتور طه حسين لحب ابن أبى ربيعة في كتابه حديث الاربعاء ج ٢ ص ١٤٣ فذكر انه لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه وانما كان يحب بحسه ، وبحسه ليس غير . ثم قرر أنه لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكملة للرجل لاتستطيع أن تعيش بدونه وانه لم يكن يقصر هذه الصلة الجنسية على معناها المادى وحده وانما كان يريدها واسعة متناولة جميع أطراف الحياة

رابعاً — قد جاء فى شعره ما يدل على أن النساء عرفن فيه التلوُّن ، وعهدن منه التقلب . فمن ذلك قوله :

عجباً ما عجبتُ مما لو أبصر ت خليلى ما دونه لعجبتا

لمقال الصفىّ فيم التجنى ولما قد جفوتنى وهجرتا ؟

فى بكاء ، فقلت ماذا الذى أبـ ـكاك قالت فتاتها : ما فعلتا

ولوت رأسها ضِراراً وقالت إذ رأتنى : اخترت ذلك أنتا

حين آثرتَ بالمودة غيرى وتناسيت وصلنا وملِلْتا

قلتَ لى قولَ مازح تستبينى بلسانٍ مصدَّق إذ حلفتا

عاشرى فاخبُرى فمن شؤم جدّى وشقائى عُوشِرْتَ ثم خُبِرتا

فوجدناك إذ خَبرنا ملولاً طَرِفاً لم تكن كما كنت قلتا

وتجلّدت لى لتصرم حبلى بعد ما كنت رثّهُ قد وصلتا

فاذكر العهد بالمحصَّب والودّ الذى كان بيننا ثم خُنتا [1]

ولعمرى ماذا بأول ماعا هدتنى يابن عمّ ثم غدرتا

فحرامٌ علىّ أن لاتنال الد هر منى غير الذى كنت نِلتا [2]

قلت مهلا عفوا جميلا فقالت لاوعيشى ولو رأيتك مِتا

(١) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى (٢) الظاهر أن « لا » زائدة في قوله : فحرام على أن لا تنال

ويقول فى الحديث عن بعض معشوقاته :

قالت وقد جدّ رحيل بها ... والعين ان تطرف بها تسجم
ان ينسنا الموت ويؤذن لنا ... نلقك ان عمرت بالموسم
إنك والله لذو ملة ... يصرفك الأدنى عن الأقدم

ويقول أيضا فى الحديث عن بعضهن

قالت لآنسة رداح عندها ... كالرئم فى عقد الكثيب الأيهم
هـذا الذى منح الحسان فؤاده ... وشركنه فى مخه والأعظم
علمي به والله يغفر ذنبه ... فيما بدا لى ذو هوى متقسم
طَرِف ينازعه الى الادنى الهوى ... ويبت خلة ذى الوصال الأقدم

وقد كثر شعره فى هذا المعنى ، حتى لقد يذكر شتمهن له ، وعتبهن عليه ، كقوله :

وقالت حلت عن عهدى وودى ... جديد ماحييت لكم يسير
وطاوعت الوشاة وزرت من لم ... يزرك وقد تبين لى الختور
ولم ترع الوداد كما رعينا ... وبانت منك لى عمداً أمورُ
ولم تَجزِ القروض ولم تُثبها ... وأنت لكل صالحةٍ كفورُ

وقد أقر نفسه بالتلوُّن ، وصرّح بالتقلُّب ، فى قوله

لعمرى لقد كان الفؤاد مسلّماً ... صحيحاً فأمسى لا يُطيق لها هجرا

فجازى ودوداً كان قبلك فى الهوى ... دءولاً فقد أورثته السُّقم والضُّرا
أفى الحق أنْ حُكِّمتمُ فحكمتمُ ... صواباً فما أخطأتم الظلم والكفرا

وأين هذا أيها السادة من قول مضرس بن قرط المزنى :

ولو تعلمين العلم أيقنتِ أننى ... وربِّ الهدايا المشعَرات صدوقُ
أذود سَوَامَ الطرف عنك وماله ... إلى أحدٍ إلا عليكِ طريق
فإن كنت لمَّا تخبُرينىَ فاسألى ... وبعض الرجال للرجال رَمُوقُ
سَلى هل قلانى من خليل صحبتهُ ... وهل ذمّ رحلى فى الرحال رفيق؟
وهل يَجْتوى القوم الكرام صحابتى ... اذا اغبرَّ مَخْشِىُّ الفجاج عميق

* * *

فياليت شعرى — وقد بينت لكم كذبه في الحب — ماهى الميزة التى سما بها شعره ، وسار بها ذكره ؟ وما هو السر فى أنْ سَحَر شعره النساء ، وآمن به الشعراء ؟

المحاضرة الثانية

أيها السادة

بينا فى المحاضرة السالفة : أن ابن أبى ربيعة لم يكن صادق الحب ، ولا متين الصبابة . وأنه كان هتا كا للحرائر ، فتا كا بالأوانس . ساعده على ذلك شبابه الرائع ، وجماله الفاتن ، وثروة طائلة : كان من شأنها أن يتسع وقته لمداعبة الغيد ، وملاعبة الحور .

وما كان بنا أن نطيل القول فى ذلك ، لولا ما نعرفه ونؤمن به من أنه لايصح الحكم على شعر شاعر ، أو نثر ناثر ، إلا بعد الوقوف على دقات قلبه ، وخطرات فؤاده . وقد علمنا مما سلف مبلغ ابن أبى ربيعة من الحب ، ونصيبه من الصبابة ، ولم يبق إلا أن نذكر مايجب أن يكون لشعره من ميزة ، ولأسلوبه من طابع ، وفقاً لحالته النفسية ، وميوله الشخصية ، وأن نبين أثر تلونه فى حبه ، وتلاعبه فى عشقه ، وكيف كان ذلك داعياً إلى أن يكون لشعره صفة تميزه عن غيره ، وتفضله عما عداه .

غير أنى لم أشأ أن أكشف الغطاء عن ذلك ، وأميط اللثام

عنه ، إلا بعد أن أبين لكم كيف فهمه الناس من قبلنا وكيف كان حكمهم على شعره وتقديرهم لأدبه ، فانى إذا فعلت ذلك فبينت بُعدهم من الصواب ، وانحرافهم عن الجادة ، كنت جديراً بأن أقول : انى عملت عملا جديداً ، وأحدثت أثراً جميلا ، وابتدعت بدعة حسنة ، وسلكت فى فهم ابن أبى ربيعة سبيلا لم يسلكه الناس من قبل . نعم وكنت جديراً بأن أخطِّىء من يقول : لاجديد تحت الشمس ، وأن أكون نصيراً للداعين إلى الجديد تتميما للقديم

أعمل ذلك وأسعى إليه ، وأنا أحترم أدب الأسلاف وفكرهم ، مع اعتقادى أن كل شىء فى الكون قابل للتهذيب ، مفتقر إلى التكميل وأن السبعين صحيفة التى كتبها صاحب الأغانى عن ابن أبى ربيعة لم تكن لتفهمنا حقيقته ، وتعرفنا شخصه . إذ كانت موضوعة على غير نظام مبنية على غير أساس ، وأن بنوّتنا لأسلافنا وتبعيتنا لهم لايحولان بيننا وبين تكميل مالم يكمِّلوه ، وتهذيب مالم يهذِّبوه ، فان للولد - وان يكن سِرَّ أبيه - قلباً يفقه به ، وعيناً يبصر بها ، غير قلب أبيه وعينه ، وليس للوالد مهما عظم أمره ، وجلَّ قدره ، أن يضطر ابنه إلى الحكم على الأشياء كما يحكم هو عليها . كما لاينبغى

للولد مهما أخلص فى بنوته ، وصدق فى بره ، أن يعقَّ الطبيعة فيما أهدته من نظر ومنحته من تدبير

* * *

أيها السادة :

علمت أن ابن عباس سمع شعر ابن أبى ربيعة واستحسنه ، وأن قائلاً قال له : اللهَ اللهَ يابن عباس فانَّا نضرب اليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد نسألك عن الدين فتعرض ؛ ويأتيك غُلامٌ من قريش فيُنشدك سفها فتسمعه ؟ فقال تالله ماسمعت سفها ! فعلمت من ذلك أن ابن أبى ربيعة شاعرٌ مُستجاد الشعر ، غير أن الشعراء كثير : فمن هو من بينهم ؟ وما سبيله التى سلكها ؟ وما هو الابداع الذى عرف به ؟

وبلغنى أن الفرزدق سمع شيئاً من تشبيب ابن أبى ربيعة فقال : هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فاخطأته وبكت الديار ، ووقع هذا عليه. فلم أفهم من هذا شيئا ، ولم أدر ما الذى يدل عليه اسم الاشارة فى قوله: هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته ؟

وبلغنى أيضاً أنه كان بالكوفة رجل من الفقهاء يجتمع الناس اليه

فيتذاكرون العلم ، وأنه ذكر يوماً شعر ابن أبي ربيعة فى مجلسه فهجّنه فقالوا له : بمن ترضى حكما — ومرّ بهم حمّاد الراوية — فقال قد رضيت هذا . فقالوا لحماد : ما تقول فيمن يزعم أن عمر ابن أبي ربيعة لم يحسن شيئا ؟ فقال أين هذا ؟ اذهبوا بنا إليه . قالوا نصنع به ماذا ؟ فقال : ننزو على أمه لعلّها تأتى بمن هو أمثل من عمر ! ! فعلمت أن ابن أبي ربيعة شاعر اختلف الناس فى تقديره ، وأن بعض أعدائه اعتمدوا فى النيل منه على الفحش والسباب

وسمعت أيضاً أن العرب كانت تُقرّ لقريش بالتقدم عليها فى كل شيء إلا الشعر : فانها كانت لا تقرّ لها به ، حتى كان عمر ابن أبي ربيعة ، فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها شيئا ، فلم أفهم من هـذا أيضا إلا أنه شاعر مجيد ، رفع من شأن قومه ، وأكمل مجد آبائه .

وربما سمعتُ من طريق آخر أنه محب ، فأقول ومن هو فى المحبين ، فان الحب درجات ؟ أو ناسبٌ متغزل ، فأقول : ومن هو فى المشببين فان للنسيب مذاهب ؟

* * *

وكذلك ما زلت أسمع من أخبار ابن أبي ربيعة ، وأقرأ من وصف

الناس له ، ما يبعدنى عن فهمه ، والحكم على شعره ، حتى رأيت حديثا مسهبا لبعض العلماء المتقدمين فيما ابتكره ابن ابى ربيعة من نادر المعانى وابتدعه من جديد الاغراض ، حديث علمى ، أراد به كاتبه — عفا الله عنه — أن يعلم الناس كيف يعتسفون فى فهم الأدب ، ويضلون فى تقدير الشعراء : حديث طويل بيد أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا : حديث خادع ، ظن صاحب الاغاني أنه يكرم الأدب بذكره ، ويمتع الأدباء بنقله ، فلم يغفل منه كلمة ، ولم يغادر منه حرفاً .

وقد رأيت أن أنقل لكم ذلك الحديث وأناقشه ، حتى تعلموا أى ضرر يعود على قارئ تلك الكتب ، إن لم يكن من أهل الحكم ، وممن يميز الخبيث من الطيب ، وحتى تعرفوا خطأ أولئك الذين يدرسون الأدب فى بيوتهم ، وبعد الفراغ من أعمالهم ، ظناً منهم أنه علم كمالىّ بسيط ، يكفى فى فهمه ودركه أن يكون للمرء مكتبة يرجع اليها ويروض الفكر فيها ، ثم يبيحون لأنفسهم بعد ذلك أن يؤلفوا فى الأدب ، وأن ينقدوا الكتاب والشعراء ! !

نعم وحتى يعلم الناس جميعاً أن لا حياة للأدب ، ولا بقاء للغة ، إن لم ننظر فى حياة غيرنا الأدبية ، فنعرف الفرق بين أدبنا وأدبهم ، وكيف

تبهوا بعد خمولهم ، ونشطوا بعد فتورهم . وما هى السبل التى أوصلتهم إلى ما وصلوا إليه ، حتى نصل نحن كذلك ، فانا لانريد أن نفخر بأجدادنا ونحن دونهم ، ولا أن نعيش فى ظلهم كما عاش آباؤنا في ظلهم ، بل نريد أن تكون لنا ثروة أدبية ، وتراث فكرى ، وأن نحيا فى أنفسنا ، وبأنفسنا ، حياة طيبة خالدة ، يتغنى بها الأبناء والاحفاد .

نقل صاحب الأغاني — وهو يترجم ابن أبى ربيعة — عن الزبير ابن بكار عن عمه مصعب انه قال :

« راق عمر بن أبى ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم : بسهولة الشعر ، وشدة الأسر [1] . وحسن الوصف . ودقة المعنى وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، واستنطاق الربع ، وانطاق القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات الحجة ، وترجيح الشك فى موضع اليقين . وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ، وعطف المساءة على العذال ، وأحسن التفجع ، وبخل المنازل ، واختصر الخبر ، وصدق الصفاء . إن قدح أورى ، وإن اعتذر أبرا ، وإن تشكى أشجى . وأقدم عن خبرة ، ولم يعتذر بغرة

(١) الأسر بسكون السين : الخلق . قال تعالى « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » ويراد بشدة الاسر في وصف الشعر إحكام النسج ومتانة التركيب

وأسر النوم ، وغمّ الطير ، وأغذّ السير ، وحيّر ماء الشباب ، وسهّل وقوّل ، وقاس الهوى فأربى ، وعصى وأخلى ، وحالف بسمعه وطرفه وأبرم نعت الرسل . وحذّر . وأعلن الحب وأسره ، وبطن به وأظهره . وألحّ وأسفّ ، وأنتج النوم ، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه ، وأذل صعبه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، وأعلن قاتله ، واستبكى عاذله ، ونفض النوم ، وأغلق رهن منى وأهدر قتلاه . وكان بعد هذا كله فصيحاً »

فهل رأيتم أغمض من هذا الكلام ، وأقل وضوحاً منه ؟ وهل يحسن أن يجيب المرء بمثل هذا إذا سئل عن شعر ابن أبى ربيعة ؟

اللهم إنك تعلم انى لا أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وانى لقيت عنتاً فى فهم هذا الحديث المبهم الغامض ، وأنى أخشى أن يتورط فيه من يشق عليه فهمه ، ويصعب عليه دركه ، فان المؤلف نفسه قد شعر بغموضه ، وأحس بابهامه : فأطال فى شرحه بالمثال

ولنفرض أن هذا كلامٌ واضحٌ بيّنٌ ، فمن ذا الذى يستطيع أن يحمّل ذاكرته ستا وأربعين صفة لشاعر واحد ؟ وما كانت تكون الطامة لو ألفنا هـذا النحو من الفهم فى تقدير كتّابنا وشعرائنا وحكمائنا ؟ أكانت تتسع اللغة لهذه الألقاب العديدة ، والمصطلحات

الكثيرة ؟ أم كان يتسع وقتنا لدراسة الفنون على هذا النحو فى اختلاف أنواعها ، وتباين أشكالها ؟؟ هيهات هيهات ! ولشد ما تورط الكاتب فى الخطأ ، وأمعن فى الضلال !

* * *

ولكن فلنترك تأنيبه جانبا ، ولنعد إلى النظر فى تلك الكلمة ، ولنفهمها فهما يخول لنا الحكم عليها ، حكما صارما لا يرد

أليس معنى كلامه قبل كل شىء ان ابن أبى ربيعة انفرد بتلك الصفات كلها لم يشاركه فيها مشارك ، ولم يزاحمه عليها مزاحم ؟ وإلا فكيف بهر بها الناس ، وفاق من أجلها النظراء ؟ لابد أن يكون غرضه ذلك وإلاّ كان خاطئاً فى حكمه ، واهما فى فهمه — نعم يجب أن لا يريد من تلك الصفات إلاّ أنها من خواص ابن أبى ربيعة فان ذلك هو موضوع الحديث ، وما سُلَّ من أجله القلم . وإذاً فلننظر أصدق أم كان من الكاذبين ؟

وإنى ألاحظ أولاً أيها السادة : أن ذلكم المؤلف لم يدرس شعر ابن أبى ربيعة دراسة تمكّنه من الحكم الصحيح وتجعله قادراً على وضع الكلم فى مواضعه ، وأن يكون الشاهد وَفقاً

لما يزعمه ، وطبقاً لما يدعيه : فقد رأيناه يمثل لدقة معناه وصواب مصدره بقوله :

عوجا نُحىِّ الطلل المُحْولا والربعَ من أسماء والمنزلا (١)
بجانب البوباة لم يعدهُ تقادم العهد بأن يؤهلا (٢)

وليس هذا بالكلام الرائع ذى المعنى الدقيق ؛ وإنما هو شعر كان من أمره فى التعقيد أن اختلف الناس فى فهمه وتأويله : فقال إسحق ابن ابراهيم : يعنى أنه لم يؤهل فيعدوه تقادم العهد . وهو فهم سقيم ، فان المنزل الذى لم يؤهل حتى لايخشى عليه تقادم العهد ، ليس أهلاً للتحية ، ولا لتذراف الدموع . وقال بعض المدنيين : يحيِّيه بأن يؤهل أى يدعو له بذلك ، وهو أنسب ، وكان أولى لو مثل الكاتب لدقة المعنى وصواب المصدر بقوله

أشارت بمدراها وقالت لأختها أهذا المغيرىُّ الذى كان يُذكر (٣)
لئن كان إياهُ لقد حال بعدنا عن العهد والانسان قد يتغيرُ

قال ابو الحارث جُمَّيز : امرأته طالق ان كانت أشارت اليه بمدراها

(١) الطلل المحول والمحيل هو الذى أتت عليه أحوال فطمست معالمه وأخفت رسومه
(٢) البوباة الفلاة واسم لصحراء بأرض تهامة (٣) المدرى والمدراة : حديدة يحك بها الرأس

الا لتفقأ بها عينه ، هلاّ أشارت اليه بنقانق مُطرف بالخردل ، أو سَنْبُوسَجَة [١] مغموسة في الخلّ ، أو لَوْزِينجة [٢] شَرِقة بالدهن ، فان ذلك أنفع له ، واطيب لنفسه ، وادل على مودة صاحبته !

ونحن بالرغم من نقد هذا الاكول الشَّره ، نرى ابن أبي ربيعة أبصر بمواقع الكلم : فانه هنا لا يتحدث عن فتوّته وشبابه ، حتى يصف هدايا النساء له ، واقبالهن عليه . وانما يذكر ماتالت من حسنه الايام ، وهدّت من قواه الليالى . ألا ترونه يقول بعد ذلك :

فقالت نعم لاشكّ غيَّر لونهُ سُرى الليل يُحيي نصَّه والتهجُّرُ [٣]

رَأَتْ رجلاً أما اذا الشمس عارضت

فيضحى وأما بالعشى فيخصرُ

قليلاً على ظهر المطية ظلهُ سوى مانفى عنه الرداء المحبَّر

أخا سفر جوّاب ارضٍ تقاذفت به فلواتٌ فهو أشعث أغبر

وهذا ولا شك أدق معنًى وأصوب مصدراً مِمَّا ذكره صاحبنا من قبل في بيان رأيه ، وتأييد مذهبه .

(١) السنبوسج : مايحشى بقطع اللحم والجوز ونحوه من الرقاق المعجون بالسمن أو الشيرج

(٢) اللوزينج : نوع من الحلواء يشبه القطائف يؤدم بالجوز (٣) نص السرى : اسراعه — والتهجر : السير في الهاجرة وهي شدة الحر

ثم مثل لصدقه الصفاء بقوله :

كل وصلٍ أمسى لديكَ لانثى غيرها وصلها اليها أداءُ

كل أنثى وان دنت لوصالٍ أو نأتْ فهى للرّباب الفداء

وعندى ان هذا الشعر يدل على الكذب اكثر مما ينمُّ على الصدق ، وما قيمة الصدق فى حبه ، والحب فى قلبه ، وهو يعرف غيرها ويصل سواها ؟ ولو انه نظر نظرة عميقة فى شعر ابن ابى ربيعة لاهتدى الى المثال الواضح والشاهد البين فى الدلالة على صدقه فى الحب ، وثباته في الغرام . واليكم احسن ما قال ابن أبي ربيعة فى هذا المعنى ، وقد وقف فى بعض المناسك فاقبل النساء جماعات جماعات كأسراب الحمام ، وكنَّ بالحج عابثات ، وفى النسك لاعبات :

من اللاء لم يحججن يبغين حسبةً ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فأخذ الرجال يرشقونهن بالنظرات ، ويصلونهن بالأمانى : فيطيعون الهوى ويعصون الله ، ويجيبون داعىَ الحسن ويعقون داعى النسك . كل ذلك وابن أبى ربيعة عفيف الطرف والقلب ، لاخشيةً من الله ، أو إجلالاً للمنسك ، ولكن طاعةً للهوى ، ونزولاً عند حكم الصبابة ، احتفاظا بود من يهوى ، ورعياً لعهد من يحب . وفى ذلك يقول :

يقولون انى لستُ أصدُقُكَ الهوى وأنىَ لأرعاكِ حين اغيبُ

فما بالُ طرفي عفَّ عما تساقطتْ ... لهُ أعينٌ من مَعشَرٍ وقلوبُ
عشيةَ لا يستنكف القوم ان يروا ... سفاه امرىء ممن يقال لبيبُ
ولا فتنةً من ناسكٍ أومضت لهُ ... بعين الصبا كسلى القيام لعوب (١)
تَروَّحَ يرجو أن تُحطَّ ذنوبهُ ... فآب وقد زيدتْ عليه ذنوبُ
وما النسك أسلانى ولكنَّ للهوى ... على العين منى والفؤاد رقيبُ (٢)

ومثل لحسن عزائه بقوله

أألحقَّ إن دار الرباب تباعدتْ ... أو انبتَّ حبلٌ أن قلبك طائر ؟
أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ ... ـهوى واستمرت بالرجال المرائر (٣)
زع النفس واستبق الحياء فانما ... تُباعِد أو تُدنى الرباب المقادر (٤)
أَمِتْ حبها واجعل قديم وصالها ... وعِشْرتها كمثل من لا تعاشر
وهبها كشيءٍ لم يكن أو كنازحٍ ... به الدارُ أو من غيَّبته المقابر

(١) اومضت له : سارقته النظر (٢) يلاحظ القارىء رفع اسم « لكن » وقد ظن بعضهم أن هذا تحريف ، غير أنه يجب أن نقرر أن مثل هذه المخالفة لقواعد العربية تكثر في الشعر الذى سبق وضع القواعد والحرص على مراعاتها ، ولولا ضيق المقام لذكرنا شواهد ذلك من الشعر القديم ومن القرآن
(٣) استمرت بهم المرائر : قويت عزائمهم فأقلعوا عن غوايتهم
(٤) زع النفس : أزجرها عن الهوى

وكالناس عُلِّقت الرباب فلا تكن ... أحاديث من يبدو ومن هو حاضر (١)

وليس فى هذا الشعر شىء من حسن العزاء ، إنما هو تناسٍ لمن يهوى ، وتغاضٍ عمَّن يجب ، فكيف يُحسب من الحسنات أو يعدُّ من المبتدعات ؟

ولعل خيراً منه فى معناه ، وأدل منه على الصبابة ، قول شبيب ابن البرصاء

ألم تر أن الحيَّ فرق بينهم ... نوًى يوم صحراء الغميم لجوج (٢)
نوًى شطنتهم عن نوانا وهيجت ... لنا حَزَنًا ان الخطوب تَهيج (٣)
فلم تذرف العينان حتى تحمّلت ... مع الصبح أحفاضٌ لهم وحدوج (٤)
وحتى رأيت الحيَّ تُذرى عِراصهم ... يمانيةٌ تذرى الرَّغام دروج (٥)

(١) من يبدو ومن هو حاضر : يريد من يقيم في البدو والحضر
(٢) الغميم كأمير واد بين الحرمين على مرحلتين من مكة (٣) شطنتهم : أبعدتهم والنوى الثانية هى القرب (٤) الاحفاض جمع حفض بالتحريك وهو متاع البيت إذا هيىء للحمل والبعير الذى يحمله — والحدوج جمع حِدج بالكسر وهو الحمل ومركب للنساء كالمحفة (٥) العراص جمع عرصة بفتح العين وهى البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء — والرغام : تراب لين أو رمل مختلط بتراب

فأصبح مسرورٌ ببينك معجبٌ ... وباكٍ له عند الديار نشيج (١)
فان تك هند جنةً حيل دونها ... فقد يعرف اليأسَ الفتى فيعيج (٢)

* * *

والاحظ أيضاً أيها السادة أنه كرر بعض الصفات : فانه قال : إن اعتذر أبرا ، وأنشد فى ذلك قوله :

فالتقينا فرحَّبت حين سلـ ... ـت وكفت دمعاً من العين ثارا
ثم قالت عند العتاب رأينا ... منك عنا تجلُّداً وازورارا
قلت كلا لاهِ ابن عمك بل خفـ ... ـنا أموراً كنا بها أغمارا
فجعلنا الصدود لما خشينا ... قالة الناس للهوى أستارا

ثم قال : وطلاوة الاعتذار ، وأنشد فيها قوله

أرسلت إذ رأت بعادىَ ألاّ ... يقبلنْ بى محرِّشاً إن أتاهُ
دون أن يسمع المقالة منا ... وليطعنى فان عندى رضاه
لاتطع بى فدتك نفسى عدوا ... لحديثٍ على هواه افتراه
لا تطع بي من لو رآني وإيا ... ك أسيرَىْ ضرورة ما عناه

(١) النشيج : هوالغصص بالبكاء وتردده بالصدر في غير انتخاب
(٢) يعيج : يعود إلى رشده

ولا فرق بين هذين الشعرين إلا أنه فى أولهما يحدث عن نفسه وفى ثانيهما عن حبيبته .

وكذلك ألاحظ أن قوله (وقلة الانتقال ، واثبات الحجة ، إن قدح أورى ، وإن اعتذر أبرا . وإن تشكّى أشجى) كل هذه الصفات تؤدى إلى غرض واحد : هو استيفاء الموضوع ، واقناع المخاطب . فانك تنظر إلى ما أنشده فى قلة الانتقال ، فلا تجد غير ما أنشده فى إثبات الحجة : فكلاهما فى محاورة اللائم ومراجعة العاذل

على أن إسباغَ الكلام ، وتتميم الموضوع ، يُعدّانِ من الميزات الأولية فى الشعر العربي ، فقد يتكلم الشاعر عن عدة أشياء فى قصيدة واحدة ، وهو مع ذلك يوفى كل موضوع حقه ، ويعطى كل وصف قسطه . وهذا سويد ابن أبي كاهل اليشكرى ، جعل قصيدته العينية صحيفة لتاريخه ، وشرحاً لأغراضه ، حتى ليحسب القارىء أنْ ليس فى استطاعة شاعر غيره ، أن يبسط القول فى مسألة واحدة بسطه فيها ولا أن يبلغ غرضه من شىء ما بلغ منه . فلو أن شاعراً شاء أن يصف عدوًّا حسَنَ الظاهر سيىء الباطن ، لما زاد على قوله

رُب من أنضجتُ غيظا قلبهُ ... قد تمنّى لىَ شراً لم يُطَع
ويراني كالشّجا فى حلقهِ ... عَسِراً مخرجه ما يُنتزع

مُزْبِدٌ يخطِر مالم يرني فاذا أسمعته صوتي انقمع (١)
قد كفاني الله ما فى نفسه ومتى ما يكف شيئاً لا يَضِع
بئسما يجمعُ أن يغتابنى مَطْعَمٌ وَخْمٌ وداءٌ يُدَّرع (٢)
لم يَضِرني غير أن يحسدني فهو يَزْقو مثل ما يزقو الضُّوَع (٣)
مُسْتِرٌّ الشنء لو يفقدني لبدا منه ذُبابٌ فنبَع (٤)
صاحب المِرَّة لا يسأمها يُوقد النار إذا الشرُّ سَطَع (٥)
ذرع الداء ولم يُدرك بهِ تِرةً فاتت ولا وَهْياً رقع (٦)

وهذا من النعت الشامل ، والوصف السابغ ، وهو جزء من قصيدة كثرت أغراضها ، وتشعّبت فنونها . ولو كان بي أيها السادة أن أشرح لكم طريقة العرب فى الوصف وسبيلهم فى البيان ، لكان لى مضطرب واسع ، وميدان فسيح ، ولكنى أريد الآن أن أفهمكم فقط : أن ابن أبي ربيعة ليس أول شاعر بسط القول ، وهلهل الشعر . فليست أبياته التى يقول فيها

(١) مزبد يخطر : تشبيه بالفحل الهائج ، يقال : ازبد الفحل إذا هدر ، وخطر بذنبه ضرب به يمينا وشمالا (٢) طعام وخم ووخيم : غير موافق — وادراع الداء كناية عن الابتلاء به (٣) يزقو : يصيح — والضوع كصرد وعنب ذكر البوم ، أوطائر أسود كالغراب (٤) الشنء : البغض — والذباب في هذا البيت الشر (٥) المِرَّة : هى العداوة والنميمة (٦) الترة : الثأر

خليلىَّ بعضَ اللوم لا ترحلا به رفيقَكما حتى تقولا على علم (١)
خليلىَّ من يَكْلَف بآخرَ كالذى كلفت به يَدْمُلْ فؤاداً على سُقم (٢)
خليلىَّ ما كانت تصاب مقاتلى ولا غرّتى حتى وقعت على نُعم (٣)
خليلى حتى لُفَّ حبلى بخادع مُوَقٍّ اذا يُرمَى صَيُودٍ إذا يَرمى (٤)
خليلىَّ لو يُرقَى خليلٌ من الهوى رُقيتُ بمايدنى النَّوار من العُصْم (٥)
خليلى ان باعدتُ لانت وان أَنِنْ تَباعدْ فلم أَنبُلْ بحرب ولا سلم (٦)

ليست هذه الأبيات — وهى التى أنشدها ذلكم المؤلف فى إثبات الحجة — بشىء فى جانب ماقالته جليلة بنت مُرة ، وقد اعتدى أخوها جساس على زوجها كليب فقتله فمنعتها أخت كليب من الدخول فى مأتمه . فأخذت تبين لها بشائق القول ، وساحر البيان ، مصيبتها فى زوجها ، وهمّها على أخيها ، وأنها أولى منها بالحزن ، وأجدر بالشجى . وذلك قولها

يا ابنة الأقوام ان لمتِ فلا تعجلى باللوم حتى تسألى
فاذا انتِ تبيّنت التى عندها اللوم فلُومى واعذلى

(١) لا ترحلا رفيقكما باللوم : لا تؤذياه باسماعه اياه . (٢) يدمل فؤاده على السقم : يطويه عليه (٣) اشارة إلى أنه فتن بها لأول نظرة (٤) لف الحبل هنا كناية عن الوقوع في الشرك (٥) النوار : النافرة من الظباء — والعصم جمع اعصم وعصماء ، وهى التى في أذرعها بياض (٦) لم أنبل : لم أصب أو لم أحسن الرمى

إن تكن أخت امرئ ولِيَتْ على ... شَفَقٍ منها عليه فافعلى
فِعلُ جسّاسٍ على وجدى به ... قاصمٌ ظهرى ومُدْنٍ أجلى
لو بعينٍ غير عينى انفقأت ... عينَ اليمنى إذاً لم أحفلِ
جلَّ عندى فعل جساس فيا ... حَسْرتى عما انجلت أو تنجلى
ياقتيلاً خرَّب الدهر به ... سقف بيتىٍّ جميعاً من عَلَ
هدم البيت الذى استحدثتهُ ... وبدا فى هدم بيتى الاول
ورمانى قتله من كَثَبِ ... رَمْيةَ المُصْمى به المستأصلِ (١)
يانسائى دونكن اليوم قد ... خصَّنى الدهر بأمرٍ مُعْضِلِ
خصَّنى قتل كليب بلظى ... من ورائى ولظى مستقبلى
ليس من يبكى ليوميه كمن ... إنما يبكى ليوم بَجَلِ (٢)
دَرَكُ الثائر شافيه وفى ... دَرَك الثائر قتلٌ مشكلى
انى قاتلةٌ مقتولةٌ ... ولعل الله أن يرتاح لى (٣)

وذلك نفسه هو القصد للحاجة : الذى جعلوه من مبتدعات ابن أبى ربيعة ممثّلين بقوله :

(١) من كثب : من قرب — والمصمى هو من قولهم: أصمى الصيد إذا رماه فقتله مكانه — والمستأصل من قولهم: استأصل الله شأفتهم إذا قطع دابرهم (٢) بجل بمعنى فقط (٣) ارتاح له الله : أنقذه من البلية

أيها المنكح الثريا سُهيلاً ... عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان
هى شاميّةٌ اذا ما استقلت ... وسهيلٌ اذا استقلَّ يمان

* * *

وألاحظ أيضاً أيها السادة ان أكثر تلك الصفات من الامور العامة : التى لا تحدِّد معنًى ولا ترسم طريقة . فما الذي اراده بسهولة الشعر ، وشدة الأسر ؟ وما الذى قصده من حسن الوصف ؟ وما الذى عناه بفتح الغزل ؟ ولقد تأملت الأمثلة التى ذكرها لتلك الصفات فاذا هى أكثر منها غموضا : فقد مثل لحسن الوصف بقوله

لها من الريم عيناه ولفتتهُ ... وغرة السابق المختال إذ صهلا

فما وجه الحسن هنا ؟ ان كان فى احراز الصفات المختلفة للموصوفات المختلفة ، فليس بالشيء الجديد . فلقد قال امرؤ القيس فى وصف حِصانه

له أيطلا ظبى وساقا نعامةٍ ... وإرخاء سِرْحان وتقريب تَتْفُل (١)

وان كان لروعته وبهائه ، فما هو أيضاً بالمبتدع ، وخير منه قول الشَّنْفَرى :

(١) الايطل : الخاصرة — والسرحان : الذئب — والتتفل : ولد الثعلب

فدقت وجلت واسبكرّتْ وأُكمِلَتْ

فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسن جُنَّتِ (١)

ومثل لفتح الغزل بقوله

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكن حجراً من يابس الصخر جَلْمدا

وهو معنى مشهور ، لايصح أن يجعل دليلاً على نبوغ شاعر ، على أنه ينسب للاحوص . وكذلك رأينا فيما ذكره : من تسهيله وتقويله ، واختصاره الخبر ، ودقة معناه وصواب مصدره ، الى غير ذلك من الأوصاف العامة والنعوت التى لم تُحدّد . فلم يبق إلا أن تنظر فى الصفات التى يظن أنه ابتدع ما أفصحت عنه ، وابتكر مادلت عليه .

* * *

وانى قبل ذلك ألفت نظركم الى أن تلك الصفات يرجع بعضها الى المعنى ، وبعضها الى اللفظ ، وشىء منها الى الأسلوب . وأريد بالمعنى هنا الفكرة الاساسية ، التى يعد الشاعر مُبدعالها اذا سَبق بها ، كما يقولون .

(١) دقت وجلت : يريد أن جسمها دقيق في الموطن الذى تستملح فيه الدقة ، وجليل في الموضع الذى تستطاب فيه الضخامة — واسبكرت : طابت واعتدلت

أول من طرد الخيال طرفة بن العبد فى قوله

فقل لخيال الحنظلية ينقلبْ اليهافانى واصلٌ حبل من وصَلْ

وأريد باللفظ الكلمة المستعملة أول مرة فى التعبير عن معنى معروف ، كما يقولون : أول من قيد الأوابد امرؤ القيس فى قوله

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجردٍ قيد الاوابد هيكلِ (١)

يريدون أنه أول من عبر عن السرعة بهذا التعبير

فاما الاسلوب — وهو الطريقة المثلى فى الأداء — فانى لا أريد مناقشة المؤلف فيما يتعلق به ، فقد كان للعرب قبل ابن أبى ربيعة بأجيال أسلوب سامٍ بديع ، مازال الناس يقتفون فيه أثرهم ، ويترسّمون خُطاهم . على أن أكثر مايتعلق بذلك من تلك الصفات منتقد مزيَّف . وقد أشرنا الى شىء منه فى الملاحظات السالفة ، فليتأمله الراغب فى الفهم ، والجانح للبيان .

فمن الصفات المعنوية عِفة المقال التى مثل لها بقوله

طال ليلى واعتادنى اليوم سُقْمُ وأصابت مقاتلَ القلب نُعْمُ

حُرَّةُ الوجه والشمائل والجو هر تكليمُها لمن نال غُنْمُ

(١) الوكنات جمع وكنة وهى عش الطائر — والمنجرد القصير الشعر — والاوابد : الوحوش — والهيكل : الفرس الطويل

وحديث بمثله تُنزلُ العُصْـــم رخيم يشوب ذلك حلم
هكذا وصفُ مابدالىَ منها ليس لى بالذى تغيَّب عِلْمُ
إن تجودى أو تبخلى فبحمدٍ لستُ يانعمُ فيهما من يذمُّ

وكان ذلك من خير مايوصف به الشعر فى الحب ، وتنعت به أحاديث الصبابة ؛ لولا اننا لانعده حسنة للشاعر ولا منقبة للمحب ، مالم يكن من خواصه ، ومما لايعدل عنه ، فكيف وابن أبى ربيعة متهتك فى شعره ، متطرف فى نسيبه ؟

على أن هذا الشعر وان دل على عفة المحب فانه لايدل على إغراب المحبوب فى الصيانة ، وإمعانه فى التمنع ، وخيرٌ منه قول الشنفرى فى ظبية تسكن الى أمها ، وتنفر من محبها

لقد اعجبتنى لاسقوطاً قناعها اذا ما مشت ولا بذات تلفتِ
تحلُّ بمنجاة من اللّوم بيتها اذا مابيوتٌ بالملامة حُلت
كأن لها فى الارض نِسياً تقصهُ على امها وان تكلمك تبلت (١)

وما زال العرب يفتخرون بالعفة ، ويتمدّحون بالصيانة ، فكيف يكون ابن أبى ربيعة مبتدعا للعفة فى المقال ، وقد عرفت من قبله فى الفعال ؟

(١) النسى بالكسر ويفتح مانسى وما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها . وتبلت وتبلبت تنقطع . والمعنى انها تسكن إلى أمها فتطيل الكلام فاذا كلمها رجل غلبها الحياء فسكتت

ومما ابتدعه أيضاً فى زعمهم عطف المساءة على العذال فى قوله

لاتلمنى عتيق حسبى الذى بى إن بى ياعتيق ماقد كفانى
لاتلمنى وأنت زينتها لى أنت مِثلُ الشيطان للانسان

وهو خطأٌ فى الفهم ، فان هذا معنى أوجدته حادثة خاصة ، وليس كل عاذل بقواد ، حتى يكون المعنى شاملاً لكل لائم وعاذراً لكل ملوم ، وقد وُجد فى كتاب الله من قبل ، فلا سبيل لعده من المبتكرات ، ولا لجعل صاحبه من المبدعين

* * *

ثم قال : ومن إقدامه عن خبرة ولم يعتذر بغرة قوله

صرمت وواصلت حتى عرفـــتُ أين المصادر والوردُ
وجرَّبت من ذاك حتى عرفـــت ما أتوقى وما أعمد

على أن وصل الغانيات ، والحظوة لديهن ، قد لايحتاج إلى قسط أوفر من الدهاء ، ونصيب أكبر من السياسة ، حتى يفخر الشاعر بالفوز فيه والظفر به ، إنما يكبر المرء فى عين النساء بفحولته ، وبشبابه النضير ، وغصنه الرطيب ، وما منحته الطبيعة من ديباجة مشرقة ومحيا

وسيم . فأما اللوام والعذال والوشاة ، فهم أهون الناس عليه ، وأصغرهم لديه، إن نال من حِبه الكرامة ، وحل فى قلبه الشفيق

ولعل البها زهير قلّده فى هـذا المعنى : إذ جعل القواد المخنثين أشباها لسفراء الدول حين يقول :

فيا رسولى إلى من لا أبوح بهِ إن المهمات فيها يُعرف الرجلُ

والمعنى أصله للنابغة فى مدح بنى غسان ، وقد وضعه فى موضعه وأقره فى نصابه ، وذلك قوله (١)

ولا يحسبون الخير لاشر بعدهُ ولا يحسبون الشَّرّ ضربة لازبِ

إذ كانوا لايغفلون عن حراسة الخير ، ولا يَفتُرون فى مدافعة الشر

ثم قال : ومن تحذيره قوله

لقـد أرسلت جاريتى وقلت لها خذى حذركْ
وقولى فى ملاطفةٍ لزينب نَوِّلى عمرك
فان داويت ذا سَقَمٍ فأخزى الله من كَفَرَكْ
فهزّت رأسها عجباً وقالت من بذا أمرك
أَهـذا سحرك النسوا ن قد خبّرنى خبرك

(١) الضمير عائد على النابغة

وقلن إذا قضى وطراً وأدرك حاجة هجرك

ولست أرى فى هذا الشعر ما ينبئ عن ابتداع ، أو يدل على اختراع ، فان تحذير الرسول من الامور الفطرية التى تخطر ببال أحدث الناس عهداً بالحب ، وأقلهم علماً بما يجنى الوشاة

على أن ذلك قد يكون من عيوب تلك القوّادة التى كان ينبغى أن لاتحتاج إلى تحذير ، فما يصح أن تكون جارية ابن أبى ربيعة غِرة بلهاء ، يدرك الناس ما تسعى له ، فيعرفون من تمشى اليه ، أو تخطىء فهم ما أرسلت به ، فتخفق فيما سعت له

فأين كانت ، لاعفا الله عنها ، تلك العجوز الشمطاء ، والداهية الشعواء ، التى كان يرسلها ابن أبى ربيعة إلى الظباء النوافر ، والحسان الغرائر ، فتسمعهنّ من حلو الحديث ومُرّه ، وصعب الكلام وسهله ، ما يجعلهن إلى الفسق أميل ، ومن الفحش أقرب : فيصبحن خليعات فاجرات ، بعد أن كنّ عفيفات طاهرات ؟ !

أين كانت — لا كانت — تلك التى يقول فيها

وأَتتهـا طَبَّةٌ عالمةٌ تمزج الجِدَّ مراراً باللعب (١)

(١) طبة : حاذقة رفيقة

تُغلظ القول إذا لانت لها
وتُراخى عند سَوْرات الغضب

لم تزل تصرفها عن رأيها وتأنّاها برفق وأدب (١)

تلك التى ودّ الناس لو أتاحت لهم الأقدار خليفةً فى عقلها ، أو أميراً فى رأيها ، والتى طلب الوليد من حمّاد أن يسعفه بمثلها ، ويدركه بشبهها ، حتى تعطف سلمى عليه ، وتردّها اليه

ذلك ما أجاد ابن أبى ربيعة فى وصف الرسل . فاما (التحذير) الذى عناه المؤلف ، فهو ضرب من الخطأ ، أو نوع من الفضول

* * *

ثم قال : ومن قناعته بالرجاء من الوفاء قوله

فعِدى نائلاً وإن لم تُنيلى انهُ ينفع المحبَّ الرجاء

وقد علمت مما أسلفناه أن ابن أبى ربيعة لم يكن ممن يرضى فى حبه باليسير من الوصل ، والقليل من القرب ، حتى تعدّ من ميزاته القناعة ، ومن خصائصه العفاف

وأين هذا البيت فى حسنه من قول جميل :

(١) تأناها بحذف إحدى تاءيه : تتمهل عليها

وإنى لَراض من بثينةَ بالذى لو أبصره الواشى لقرّت بلابلُهْ
بلا وبأن لاأستطيع وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجْلى وبالحول تنقضى أواخرُهُ لا نلتقى وأوائله

ولا تحسبوا أيها السادة أن هناك فرقاً بين الشعرين فى المعنى حتى تستبعدوا المقارنة . فان المؤلف — فيما أظن — لم يشأ إلا التنويه بقناعة الشاعر ، والتغنى بعفافه ، بدليل قوله بعد ذلك : هذا أحسن من قول كثيّر :

ولست براضٍ من خليل بنائلٍ قليل ولا أرضى له بقليل

وقد شاء أن يخطىء فى الآخرة والأولى : فان ابن أبى ربيعة يتكلم عن محبوبه ، وكثيّر يتكلم عن خليله ، وقد يرضي المرء بظلم حبيبه ولا يرضى بجور صديقه ، فقد يصدف الحبيب دلالا ، ويعرض الصديق ملالا ، والصبُّ عن حِبه صَفُوح ، وربما نُوقِش الصديق

فأما ما أسدل ابن أبى ربيعة من الحُلَل الجديدة الفاخرة ، على المعاني القديمة الباهرة ، وما تندّر به من التراكيب الطريفة المخترعة ، والتعابير الحديثة المبتدعة ، فانا نرحم الأدب من أن يُعجب بها كاتب فيزيّن بها نثره ، أو يخدع بها شاعر فيجمّل بها شعره ، إذ كانت

فى جملتها من الاستعارات الفاسدة ، والمجازات المردودة . مما ينبو عنه الطبع ، ويمجه الذوق السليم . فما حسن انكاح النوم فى قوله :

حتى إذا ما الليلُ جنَّ ظلامهُ ونظرت غفلة كاشح أن يعقلا
واستنكح النومُ الذين نخافهم وسقى الكرى بوّابهم فاستُثقِلا
خرجت تأطّر فى الثياب كأنها أيمٌ يسيب على كثيب أهيلا (١)

وعلى أى وجه تجرى هذه الاستعارة ، ومن أى سبيل يجوز هذا المجاز ؟ إنْ هذا إلاّ اختلاق

ولست أدرى لِمَ لَمْ يفتن الكاتب أيضا بما أبدع ابن أبى ربيعة : من تشبيه الحسناء وهى تتثنّى ، بالحية وهي تتلوى ، فهو أيضاً تعبير مخترع ، وتشبيه مبتدع ، لايقل عن إنكاح النوم فى السماجة ، ولا ينقص فى الفضول ؟

وانهم ليعجبون أيضاً بقوله :

فى خلاءٍ من الأنيس وأمنٍ فشفينا غليلنا واشتفينا
وضربنا الحديث ظهراً لبطن وأتينا من أمرنا ما اشتهينا
فمكثنا بذاك عَشْر ليالٍ فقضينا ديوننا واقتضينا

(١) تأطر أصله تتأطر حذفت احدى تاءيه ، والتأطر : التثنى — والايم : الافعى . ويسيب : يمشى — والكثيب الاهيل : الرمل المنهال

وذلك أنهم يزعمون أنه أول من ضرب الحديث ظهراً لبطن من غير أن يبينوا ما يُراد بذلك البِدْع الجديد !

ويستجيدون أيضاً قوله

حبكم يا آل ليلى قاتلى ظهر الحبُّ بجسمى وبطنْ
ليس حبٌّ فوق ما أحببتكم غيرَ أن أقتل نفسى أو أُجنْ

وهو من الخطأ فى التعبير ، فان الحب حين تبدو علائمه من الأرق والسهاد ، والنحول والذبول ، لايقال عنه بطن وظهر ، إنما يقال : ظهر منه ما كان خفياً ، وبدا ما كان مستوراً . وقد يستبعدون أن يكون الأسى الظاهر ، تمثالا للجوى الباطن ، كأن ما يبدو بالجسم من شُحوب وبالوجه من لُغوب ، إنما هو شَرَرٌ تطاير من لهيب القلب ، وسعير الفؤاد

وإن تعجب فعجبٌ قوله

ليس حب فوق ما أحببتكم غير أن أقتل نفسى أو أُجن

كأن لم يقتل الحب من أحد ، ولم يُصرع به إنسان ! !

* * *

وإنى أيها السادة — على ما أغربت فى نقد ذلكم المؤلف — أرى من الانصاف أن أعزز رأيه فى كلمة اختارها فى طلاوة الاعتذار ، وأخرى فى تحبير ماء الشباب ، وثالثة فى صدق الصفاء

فأما الأولى فهى قوله

عاود القلبَ بعضُ ما قد شجاهُ ... من حبيب أمسى هوانا هواهُ
أرسلت إذ رأت بعادىَ ألاّ ... يقبلنْ بى محرّشا إن أتاه [1]
دون أن يسمع المقالة منا ... وليُطعنى فان عندى رضاه
لا تطع بى فدتك نفسى عدواً ... لحديثٍ على هواه افتراه
لاتطع بى من لو رآنى وإيا ... كَ أسيرَىْ ضرورة ما عَنَاه
ما ضرارى نفسى بهجران من ليـ ... ـس مسيئاً ولا بعيداً ثراه [2]
واجتنابى بيت الحبيب وما الخـ ... ـلد بأشهى إلىّ من أن أراه

والحق أقول : إن إعجابى بهذه الأبيات ، ليس لما فيها من طلاوة الاعتذار — كما ذكر ذلك المؤلف — بل لما فيها من الجرأة فى الخروج على الوشاة . ومن ذا الذى يقرأ قوله

لاتطع بى من لو رآنى وإيا ... كَ أسيرى ضرورة ما عناه

ثم لايعطي العدو أذناً غير واعية ، وفؤاداً غير أوّاب ؟

أم من ذا الذى يسمع قوله

ما ضرارى نفسى بهجران من ليـ ... ـس مسيئاً ولا بعيداً ثراه
واجتنابى بيت الحبيب وما الخـ ... ـلد بأشهى إلىّ من أن أراه

(١) المحرش : المفسد (٢) الثرى : الخير

ثم لايطير إلى حبيبه ، لينعم بجماله ، ويظفر بوصاله ؟

وأما الكلمة الثانية فهى قوله

أبرزوها مثل المهاة تهادَى ... بين خَمس كواعب أتراب
وهى مكنونة تحيَّر منها ... فى أديم الخدين ماء الشباب
ثم قالوا تحبها ؟ قلت بهرا ... عدد الرمل والحصا والتراب

ووجه الحسن فى تحيير ماء الشباب ، أنك تنظر إلى الخدود المورَّدة فتراها كالشَّفَق تتنقّل من تحته الشمس ، أو كالمشكاة يتموَّج فى قلبها المصباح .

فى سبيل الحب تلك النظرة ! يوم رأيته وقد أبلّ من حُمّى أَضْرَعَتْهُ ، فرأيت ماء الشباب يدب في تلك الخدود وهى صفراء كالورس ، فيعيدها حمراء كالورد ، وإذا بالأُنس يتمشى فى فؤادى لشفائه ، تمشّىَ البرء فى أعضائه [1]

وأما الثالثة فهى قوله

أحبك لحبك من لم يكن ... صفيًّا لنفسى ولا صاحبا
وأبذل مالى لمرضاتكم ... وأُعتِب من جاءكم عاتبا
وأرغب عن ودّ من لم أكن ... إلى وده قبلكم راغبا

(١) تتصل هذه الفقرة إلى هذا الحديث بسبب ضعيف ، وذكرها هنا ضلال مبين

ولو سلك الناس فى جانب من الأرض واعتزلت جانبا
ليمّمْتُ طِيتها إننى أرى قربها العجب العاجبا[1]

***

وجملة القول : أن ما نسب إلى ابن أبى ربيعة من المعانى المبتكرة والألفاظ المبتدعة ، على ما فيه من وهَنَ ، وما به من دَخَل ، لايُفصح عن منهج فى الشعر غير مألوف ، أو سبيل غير معروف

فما طريقه الجديد ، أو منهجه الحديث ؟

(١) يممت طيتها : قصدت ناحيتها

المحاضرة الثالثة

أيها السادة

إن الشعر أثرٌ من آثار النفس ، ولونٌ من ألوان الفؤاد . وكما تختلف النفوس فى نزَعاتها ، والقلوب فى خطَراتها ، يختلف الشعر فى أغراضه ، ويتنوع فى مناحيه

نعم تتنوع مناحى الشعر ، وتتعدد مذاهبه ، بيد أنه لايكفى أن يقال : إن شعر اليأس غير شعر الرجاء ، وشعر الحزن غير شعر الفرح ، فان ذلك وان فرق بين عاطفة وعاطفة ، وحالة وأخرى ، فانه لايرضى الأديب الفيلسوف ، الذى يعرف لعاطفة الحب ألواناً مختلفة ، ولثائرة الحزن أشكالا متباينة ، فيرى الحزن على الحبيب الراحل ، غير الحزن على الحبيب المفقود ، ويرى الشعر فى بكاء الأبناء ، غير الشعر فى رثاء الآباء . حتى ليؤمن بالفرق بين الشاعرين : يدعُوَان إلى نحلة واحدة ، بلهجة واحدة ، إذ كانت خطوات السائرين فى سبيل واحد إلى غرض واحد تختلف قوةً وضعفاً ،

ونشاطاً وفتوراً ، باختلاف فهمهم للغاية التى يقصدونها ، والغرض الذى يرمون اليه

وكذلك يختلف الشعراء والكتاب : فلن يكون ابن الرومى فى بؤسه وذله ، بالشاعر الذى ينحو منحى ابن المعتز فى عزه وغناه ، ولن تكون افكار جان جاك روسو الذى كان يفترش الأرض ويلتحف السماء ، بسالكة سبيل أفكار ميشيل مونتين الذى كان يعبده أبوه : فلا يوقظه من نومه إلا بأنغام الموسيقى ، وألحان الغناء [1]

* * *

إذاً فمن ابن أبى ربيعة من بين المحبين ؟ وما شعره من بين أنواع النسيب ؟

ابن أبى ربيعة ! أليس هو ذلك الرجل الذى ألحظه فى أعطاف الماضى ، وأنظره فى ثنايا الزمن ، فأرى فيه التيه والدّل ، والفخر والأبّهة ؟ أليس هو هذا الذى يبدو على قدم العهد : وكأنه الزهرة الناضرة ، أو الابتسامة الحائرة ؟ مالى أراه هكذا مفتوناً بشبابه ، مغروراً بجماله ؟ وما بال النساء يُشرقن من حوله ، ويطلعن عليه ، فما يملكن قلبه ، ولا يأسرن فؤاده ؟

(١) يجد القارىء تفصيل هذه النظرية فى البحث الثالث من كتاب « الموازنة بين الشعراء »

بلى انه رجل خليع ، وفاتن المنظر أخّاذ : فلا بد أن يكون شعره كذلك فاتناً أخاذاً ، وضاحك الثغر بسّام فيجب أن يكون شعره كذلك ضاحكا بساماً . فإنما الشعر صورة النفس ، وتمثال الفؤاد

ألا فليخل شعره من التوجّع ، وليسلم نسيبه من الجزَع ، وليترك الهم لقوم سواه ، فما كان بالمحزون ولا المهموم !

علام يصف الليل : فيشكو كواكبه البطيئة ، ونجومه المشكولة ، وفجره المفقود ، وما كان الرجل فى التفاف النساء حوله ، واقبالهنّ عليه ، بالذى يضجّ منه السرير لبعد الأنيس ، أو تسأم منه الحجرات لفقد السمير : فلقد كانت تعده المرأة بالزيارة فى جنح الليل ، فلا تكاد تصل إلى منزله ، حتى تجد غيرها قد سبقتها اليه ، فتعود آسفةً حزينة

علام يشكو البين ، وما روّعه نذيرٌ بالفراق إلاّ بشّرَه بشير بالتلاق ؟ أم كيف يبكيه الوداع ، وهو الذى ما شيّع حبيباً ، إلا استقبل حبيبا ، ولا غابت عنه شمس ، إلا أشرقت عليه شمس

ألا فليذكر الليل الطويل جميل ، وليحزن من البين المشتّ كثيّر ، ثم ليتركوا ابن أبى ربيعة بين الشموس السواطع ، والبدور الطوالع ، وإنه من بينهم لسعيد .

لم يكن ابن أبى ربيعة ممن إذا غاب عنه حبيب ، أخذ فى الحنين إليه ، والبكاء عليه . تلك سبيل الشعراء المفجَّعين : الذين كانت قلوبهم أعواناً للدهر عليهم ، وكانت نفوسهم أخصاماً لهم . أولئك هم المعوزون فى عالم المحبة ، والمحرومون فى دولة الصبابة ، أولئك الذين يرون الجمال ظلا ظليلا ، ثم لا يستطيعون أن يتفيّئوا ماله من وارف الظِّلال ، أولئك الذين يحسدون الغلائل على الأعطاف ، والعقود فى النحور . وكيف يكون ابن أبي ربيعة مثلهم مسكيناً فى شعره ، وما كان مسكيناً فى حبه ؟ أم كيف يصف البكاء والمدامع ، وما أَلِمَتْ نفسه ، ولا دمعت عينه ؟

بعداً للذلة حتى فى الحب ! وتباً للمسكنة حتى فى الغرام !

ولكن عذرناكم جماعة المؤلفين الذين يوجبون الذل فى النسيب : عذرناكم لأن المحبين جميعاً أذلاء ، ولأن أمثال ابن أبى ربيعة فى الحب قليل . عذرناكم لانا لانجد مفراً من هذه الذلة ، ولا محيصاً عن هذه المسكنة ، ولأن الله فى رحمته لم يشأ أن يجعلها ذلة خالصة ، بل شابها بنوع من الحرية ، وقسط من الاختيار ، يتمثل فى إقبالنا على الحسن ، إقبال السارى على القمر ، والصادى على النهَر

نعم عذرنا المؤلفين فى تلك القيود التى وضعوها فى النسيب :

لأنهم ظنوا أن الناس جميعاً يعرفون منه ما يعرفون ، ويفهمونه كما يفهمون . ولكن فلنرحم أنفسنا من اتباعهم والسير فى آثارهم . ولنجر على سنن الكون وطبائع الحياة ، فيما نصدر من الاحكام ، وما نبدى من الآراء

ألسنا نخطِّىء من يزعم أن الورد فى عام من الأعوام ، ضعفت شجَراته ، وقلت زهَراته ، لأن آفة ألمت بحديقة من حدائقه ، وطافت بجنة من جناته ؟ بلى إنا نخطئه فى زعمه . لأن ذلك قد يلم بالشجرتين ، فى مغرس واحد ، فتنجو إحداهما وتعطب الأخرى . فكيف نقبل إذاً أن نحكم على الشعر قبل أن يوجد الشعراء ، وعلى التشبيب قبل أن يخلق المشبِّبون ؟ ألا إن الحكم الأدبى لا يغنى فيه غير الاستقراء ، وهيهات أن ينفع الاستقراء حيث يكثر الشذوذ . وما دام الأدب من آثار النفوس ، وما دامت النفوس قلما تتشاكل ، فلن يصح إلحاق الأواخر بالأوائل ، ولا الحكم على الاحفاد باتباع الاجداد

ولقد كان يصعب التمييز بين شعراء العرب لو اتبعوا نقادهم فيما يأمرون به من توحيد المعانى ، وتحدِّى القدماء . ولكن يظهر أن النفوس العربية الوثّابة ، التى أَلِفت الحرية ، واعتادت الخروج ، حتى على الملوك والأمراء ، لم تشأ أن تخضع فى جوانح الشعراء لتلك النظم

المشوشة التى وضعها العلماء . وكذلك نهض الأدب مع ارتباك النقد : فكان الشعراء فى واد ، والنقاد فى واد .

إذاً فلنترك تلك السبل ، ولنحكم على الشاعر بما يصح أن يكون من ناحية ما اختص به ، من لون نفسه ، ووجهة خاطره ، غير ناظرين إلى تلك الأنواع العامة ، التى اتبعها صاحب الأغانى وغيره ، تلك التى لاتميز شاعراً عن شاعر ، ولا كاتباً عن كاتب ، ولنجرب ذلك فى الحكم على ابن أبى ربيعة المخزومى . ثم لننزل عند حكم الطبع ، ولنتبع رائد التفكير .

* * *

علمتم أيها السادة أن ابن أبى ربيعة كان شاباً محسود الشباب ، وأنه كان الأمل الحلو ، الذى تتغنى به كل حسناء أوت إلى فراشها ، أو هبت من منامها ، والأمنية العذبة ، التى تترقرق فى قلوب العذارى صاعدةً هابطة : بين اليأس والأمل ، والرجاء والقنوط ، والحديث المعسول ، تفضى به البنت إلى أمها ، والأخت الى اختها ، بل كان زهرة النرجس ، تلك الزهرة المقدسة ، التى كان يرى العرب أن لابد لمن يرغب فى الحياة أن يشمها مرة كل شهر ، أو مرة كل سنة ، فان لم يستطع ففى العمر مرة . وكان ابن أبى ربيعة يعلم ذلك ، ويعلم أنه حديث الفتيان

فى الأندية السامرة ، والفتيات فى المغانى الزاهرة . نعم كان يعلم من ذلك ما أورثه العزة فى نفسه ، والتيه فى حبه ، فرغب عن قرب الملوك ، وترك زيارة الأمراء ، علماً منه بأن له ملكا أعظم من ملكهم ، وعزاً أروع من عزهم ، إذ كان أمير الحُسن فى عصره ، ومليك الحُب فى دهره ، فطالما قدمت إليه الحلل الفاخرة ، والطيب النادر العَرف ، حباً فى شعره الذى تنبُه به الغوانى ، وتنفق به الأوانس . إذ كان من دلائل الحسن الذى يعتز به النساء ، ويتيه به الكواعب : أن يسير بيت لابن أبى ربيعة فى وصف امرأة والتشبيب بفتاة .

علم ذلك ابن أبى ربيعة ، وعلم أنه البدر الطالع فى سماء الحسن ، والزهرة الشائقة فى جنة المحبة ، فرأى من الحكمة أن يعمل على ما يزيد حبه رسوخاً ، وشعره نباهة ، فاحتال لذلك بحيل ثلاث

* * *

الحيلة الأولى — إبداعه فى وصف النساء : ذلك الوصف الذى ما سمعته امرأة إلا ودّت أن تكون الغرض منه ، والسبب فيه ، والذى ما ذكر فيه اسم امرأة إلا كانت أمل الآمل وأُمنية المتمنّى ، والذى طالما تسابق النساء إليه ، وتباغضن من جرائه . فكم كان يحسد

المرأة جاراتها ، ويغبطها أترابها ، إذا نوّه بها ابن أبي ربيعة فى شعره ، أو خصها بالنسيب

ويرى الدكتور ضيف أن ابن أبي ربيعة لم يُعرف إلا بالقَصَص : فلم يكن من الوصّافين للنساء ، والناعتين للمحاسن ، أما أنا فقد رأيت من حوادث النساء ما يدل على أنه كان لوصفه منزلة عندهن ، وحديث بينهن ، فقد ذكروا أن عائشة بنت طلحة سهرت ليلة لهم ألمّ بها ، فقالت: إن ابن أبي ربيعة لجاهل بليلتى هذه حيث يقول :

وأعجبها من عيشها ظِل غُرفةٍ ... وريّان ملتف الحدائق أخضرُ
ووالٍ كفاها كل شيء يهمُّها ... فليست لشيء آخرَ الليل تسهرُ

ولقد أشار إلى ذلك بقوله :

ولقد قالت لجاراتٍ لها ... ذات يوم وتعرّت تبتردْ
أ كما يمنعُنى تبصرننى ... عَمْرَ كن الله أم لا يقتصد ؟
فتضاحكْنَ وقد قلن لها ... حَسَنٌ فى كل عين من تَوَدّ
حَسَداً حُمِّلنهُ من أجلها ... وقديماً كان فى الناس الحسد

ورأيت من نظرائه من نوّه بذلك : فقد قال نصيب : ابن أبى ربيعة أوصفنا لربات الحجال ؛ إلا أنه ينبغى أن نلاحظ أنه لم يكن يصف النساء إلا بما يزيدهنّ غروراً بشبابهن ، وفتوناً بجمالهن . وبما يشتهين

کتابخانه مجلس شورای ملی

أن يُعرفن به : من ثِقَل الأرداف ، ورقة الاطراف ، وبياض الترائب وسواد الذوائب ، إلى غير ذلك مما لو خلا النساء إلى شياطينهنّ ، وسكنّ إلى أمثالهنّ ، ما خضن فى غيره ، ولا تحدثن فى سواه

إن المرأة تود كثيراً أن تكون كما قال :

نعم شِعار الفتى إذا برد الليـــ ... ـلُ سُحيراً وقَفْقف الصَّرِدُ (١)

كما يود الرجل — لو تغنى الودادة — أن يتناوم فى أحضان امرأة فضفاضة الصدر ، رجراجة الرِدف

تشفى الضجيع ببارد ذى رونقٍ ... لو كان فى غَلَس الظلام أنارا
ويفوز من هىَ فى الشتاء شعارهُ ... أكرم بها دون اللحاف شِعارا

نعم وتود المرأة أن توصف بأنها ضعيفة المشى ، قصيرة الخطو ، لا لضعف فى جسمها ، بل لثقل فى ردفها ، يحول بينها وبين زيارة جاراتها . كما قال ابن أبى ربيعة

وتنوء تصرعها عجيزتها ... مشى الضعيف يؤُودهُ البُهرُ (٢)

حتى لتمنعها أردافها عن أداء الفريضة ، كما قال

تكاد من ثِقل الأرادف ان نهضت
إلى الصلاة على الأنماط تنبترُ

(١) قفقف : ارتعد من البرد ــ والصرد : من لا يحتمل البرد (٢) البهر : انقطاع النفس من الاعياء

وليت شعرى ماهى صلاة تلك الفينانة المكسال !

وانى لأرحم التى يقول فيها

وظلتْ تَهَادى ثم تمشى تأوُّداً وتشكو مِراراً من قوائمها فَتْرَا

ثم أكاد... إذا قرأت قوله

إذا ما دعت بالمِرط كيما تلفّهُ على الخصر أبدت من روادفها نخرا

عفا الله عنك يا ابن أبى ربيعة ، فقد جعلتنا نفرط فى القول ، ونسرف فى الحديث ، حتى لنخشى على أنفسنا أن نتمثّل بقولك

ولولا أن تعنّفنى قريشٌ وقول الناصح الأدنى الشفيقِ

لقلت إذا التقينا قبلينى ولو كنا على ظهر الطريقِ

وانك لكما قال عبد الملك : أطول قريش صبوة ، وأبطؤها توبة !

وأقول بعد ذلك أيها السادة : إن الرجل كان يختصر أحياناً فى الوصف ، إلا انه كان مع ذلك يصيب الصميم من المعنى المراد . فأى حسن فاته فى قوله

أبت الروادف والثُّدِىُّ لقُمصها مسَّ البطون وأن تمسَّ ظهورا

وإذا الرياح مع العشىِّ تناوحتْ نبَّهن حاسدةً وهِجْن غيورا

وأى غرض لم يصبه بقوله

ذات حُسنٍ إن تغب شمس الضحى فلنا من وجهها عنها خَلَفْ

أجمع الناس على تفضيلها وهواهم فى سوى هذا اختلفْ

أمَا تلمحون جماعة المسلمين إذ ذاك ، وهم أحزاب وشِيَع ، يفضل بعضهم علياً ، ويرفع آخرون عمر ، حتى إذا ذكرت هذه الغانية ، اتفقوا على حسنها ، وأجمعوا على تفضيلها ؟

فأما إذا عمد إلى الإطناب : فانه الواصف القدير ، الذى يضع الكلم فى مواضعه ، ويقر المعنى فى نِصابه ، فيصف المرأة بما تود أن توصف به ، وبما يعلم أنه الشَّرَك ينصبه النساء ليصدن به الرجال . فيقول مثلا

خَوْدٌ تضيء ظلامَ البيت صورتها

كما يضىء ظلامَ الحِنْدِس القمرُ (١)

مجْدُولة الخَلْق لم توضع منا كبها مِلء العناق ألوفٌ جيبها عَطِرُ (٢)

ممكورة الساق مقصومٌ خلاخلُها فشبعٌ نَشِبٌ منها ومُنْكسِرُ (٣)

هَيفاء لفّاء مصقولٌ عوارضُها تكاد من ثقل الأرادف تنبتر (٤)

---

(١) الخود : الشابة أو الناعمة ــ والحندس بالكسر الليل المظلم

(٢) مجدولة الخلق : محكمة التكوين ــ والمناكب جمع منكب وهو مجتمع رأس الكتف والعضد (٣) الممكورة هي المدمجة الخلق والمستديرة الساقين

(٤) هيفاء : ضامرة البطن رقيقة الخصر ــ واللفاء هي الضخمة الفخذين

تفترُّ عن واضح الأنياب متَّسقٍ ... عذب المقبَّل مصقول لهُ أشَر (١)
كالمسك شِيب بِذوب النحل يخلطهُ ... ثلجٌ بصهباء مما عتَّقت جَدَر (٢)
تلك التى سلبتنى العقل وامتنعتْ ... والغانيات وإن واصلننا غُدُر
قد كنت فى معزل عنها فقيضنى ... للحينِ حين دعاني للشقا النظرُ (٣)

وله فى الأوصاف الظاهرة شعر كثير، يمتاز عن شعر أسلافه برقة الحاشية، وقرب المأخذ، وأنه يأتى الى النساء من الناحية التى يرضينها، ويدخل اليهن من الباب الذى يهوينه. وأى امرأة لايطربها قوله

ياطيبَ طعم ثناياها وريقتِها ... اذا استقلَّ عمود الصبح فاعتدلا
مجَّاجة المسك لاتُقلَى شمائلُها ... تزداد عندى اذا ما ماحِلٌ محَلا (٤)
لوكان يَخبل طيب النَّشر ذا كلَفٍ ... لكنت من طيب ريّاها الذى خُبِلا (٥)

* * *

تلكم هى الحيلة الاولى: حيلة الوصف السابل، والنعت الشامل. فأما الحيلة الثانية: فهى تلطُّفه فى مخاطبة الغوانى، وتودُّده اليهن بحسن

(١) الاشر: التحزيز الذى يكون فى الاسنان (٢) شيب: مزج. وجدر اسم بلدة بين حمص وسلمية (٣) الحين بالفتح هو الهلاك (٤) الماحل: من المحل وهو المكر والكيد (٥) النشر: الريح الطيبة أو ريح فم المرأة وأعطافها بعد النوم ــ والريا: الرائحة

الحديث. والنساء ضعيفات القلوب، رقيقات الاكباد، يسكنَّ الى الحديث الممتع، ويصغين الى الحوار اللطيف. وآكد ما يكون ذلك اذا شُعشِع الحديث بشىء من الصبابة، أومزج بقسط من الاستعطاف. وكذلك كانت طريقته فى مخاطبة الحسان، ومحاورة الغوانى. من ذلك قوله

يفرح القلب إن رآك وتستعْ ... برُ عينى اذا أردتِ ارتحالا
ولئن كان ينفع القرب ما أز ... دادُ فيما أراك إلاَّ خَبالا
غير أنى مادمتِ جالسةً عن ... دى سأَلهو مالم تريدى زِيالا
فاذا ما انصرفتِ لم أر للعيـ ... ـش التذاذا ولا لشىءٍ جمالا
أنت عيشى نعم ورؤيتك الخُلْـ ... ـدُ وكنتِ الحديث والأشغالا
حُلْتِ دون الفؤاد واختارك القلْـ ... ـبُ وخلَّى لكِ النساء الوصالا
وتخلَّقتِ لى خلائق أعطتـ ... ـكِ قيادى فما ملكتُ احتمالا
أيها العاذلى أقِلَّ عتابى ... لم أطع فى وصالها العُذّالا
ان ماقلت والذى عِبتَ منها ... لم يزدها فى العين إلا جلالا
لاتَعِبْها فلن أطيعك فيها ... لم أجد للوشاة فيها مقالا
فيمَ بالله تقتلين محبًّا ... لك بالوصل مُخلِصاً بذّالا
ولعمرى لئن هممت بقتلى ... لبما قد قتلتِ قبلى الرجالا
حدثينى عن هجركم ووصالى ... أحراماً ترينهُ أم حلالا
كم تمنيت اننى لك بعلٌ ... آه بل ليتنى بخدك خالا

ومثل هذا الشعر جديرٌ بأن يفتن النساء ، ويخلب الحسان ، وابن أبى ربيعة يجيدهذا النوع من السحر ، ويحسن هذا الضرب من الحوار .

وأى استدراك أبدع من قوله

سُقِيتْ بوجهك كل أرض جئتها ... وبمثل وجهك نَسْتقى الأمطارا

وأرى جمالك فوق كل جميلةٍ ... وجمالُ وجهك يخطف الابصارا

انى رأيتك غادة مُخمصانةً ... ريّا الروادف عَذْبةً مِبشارا (١)

محطوطة المتنين أُكمل خَلْقها ... مثل السبيكة بضّةً مِعطارا (٢)

كالشمس تُعجب من رأى ويزينها ... حَسَبٌ أغر إذا تريد نخارا

ويفوز من هى فى الشتاء شِعارهُ ... اكرم بها دون اللِّحاف شعارا

ويدخل فى هذا الباب ما كان يرسله أحيانا الى الثريا من مثل قوله :

كتبت اليكِ من بلدى ... كتاب موله كمِدِ

كئيب واكف العينيـ ... ـن بالحسرات مُنفردِ

يؤرّقه لهيب الشو ... ق بين السَّحر والكبد

(١) الغادة : المرأة الناعمة اللينة — والمخمصانة : الضامرة البطن — والمبشار : الحسنة الخلق واللون (٢) محطوطة المتنين : ملساء . وفي الاساس : جارية محطوطة المتنين كأنما حطا بالمحط وهو ما يحط به الاديم أى يدلك ويصقل . قال النابغة :

محطوطة المتنين غير مفاضة ... ريا الروادف بضة المتجرد

فيمسك قلبهُ بيدٍ ... ويمسح عينهُ بيد

وقد خُدعت الثريا بهذه الأبيات فبكت عند قراءتها وأنشدت

بنفسىَ من لايستقلُّ بنفسهِ ... ومن هُوَ إن لم يحفظ الله ضائعُ

وانه لعجيب أن يملا الدنيا فخراً باقبال النساء عليه ، وتوددهن اليه ، ثم يقول بعد ذلك :

ألستُ أرى ذَا ودكم فأودُّهُ ... وأكرم إن لاقيت يوماً لكم كلبا

أرى أم عبد الله صدّت كأننى ... بما فعل الواشي جنيتُ لها ذنبا

فلا تسمعى من قول من ودَّ أننى ... وإياكِ يُمسى ما نحلُّ به جَدْبا

نعم وعجيب أن تقرأ له

سَلامٌ عليها ما أحبت سلامنا ... فان كرهته فالسلام على الاخرى

ثم تراه يتشبه بالعشاق المُبعَدين فى قوله

فلئن تغيَّر ما عهدت وأصبحت ... صدفت فلا بذلٌ ولا ميسورُ

لَبما تساعف باللقاء ولبُّها ... فرحٌ بقرب مزارنا مسرور

إذ لايغيرها الوشاة فودنا ... صافٍ نراسل مرةً ونزور

لا تأمنّ الدهرَ أنى بعدها ... إنى لِآمن غدرهنَّ نذير

بعد التى أعطتك من أيمانها ... ما لا يطيق من العهود ثبير

فاذا وذلك كان ظلّ سحابةٍ نفحت به فى المعصرات دَبُور (١)

ولكن لا عجب ، فانما يلعب بقلوب النساء ، فان أجدى التيه والصلف ، وإلا فهو جدير بأن يتكلّف الحزن ، ويتصنع الخشوع

* * *

أما الحيلة الثالثة — وهى أدهى الحيل ، وأشدهن خطراً على عفة النساء — فهى وصفه لأوقات التلاقى ، وساعات التدانى . فقد كان يُغرِبُ فى ذلك إغراباً لم يُسبق به ، ويتهتك تهتكا لم يعرفه الناس من قبل ، اللهم إلا شذرات قلائل فى شعر امرىء القيس وأمثاله من الخلعاء

ولولا بعض الرأى فيما ذكرت من الحيلتين السالفتين ، لقلت إن هذه الحيلة هى كل ما لابن أبى ربيعة من إبداع ، ولشعره من ميزة . فقد بلغ من ذلك مبلغاً عظيما ، وأثر أثراً غير قليل ، ورآه الناس ضاراً بالأخلاق والآداب ، ومحرضاً على الفسق والفجور ، فحرّم أهل الورع منهم روايته على فتيانهم وفتياتهم لئلا ينكبوا على الفسق انكباباً ، ولقد مرت ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب على عبد الله بن مصعب ومعها دفتر ، فناداها ما هذا معك يا ظبية ؟ فقالت شعر ابن أبى ربيعة

(١) الدبور : ريح تقابل الصبا — والمعصرات : السحاب

يا سيدى . فقال : ويحك تدخلين على النساء بشعر ابن أبى ربيعة ! إن لشعره لموقعاً من القلوب ، ومَدْخلا لطيفاً إلى النفوس ، ولو كان شعر يسحر لكان هو . فارجعى به ! وكان ابن جريج يقول : ما دخل على العواتق فى حجالهن (١) شىء أضر عليهن من شعر ابن أبى ربيعة . وقال هشام بن عروة : لاتروّوا فتياتكم شعر عمر ، لايتورطن فى الزنا تورطاً !

* * *

أقول ذلك أيها السادة ، لأنى أرى الصفة الغالبة فى شعره إنما هى ذلك القصص الجميل ، والحديث العذب المعسول ، الذى يصف به لياليه البيض الحسان ، مع أحبابه البيض الحسان ، ولأنى رأيت الناس فى عصره ، قد مُلئوا دهشة واستغراباً ، من تلك الأحاديث النادرة الطريفة ، وهاتيك القصص الممتعة الشائقة : فكان من ذلك أن لقيه رجل فى الطواف فقبض على يده وقال : أكل ما قلته فى شعرك فعلته ؟ فقال إليك عنى ! فقال أسألك بالله . فقال نعم وأستغفر الله ! بل وكان

(١) الحجال حجلة بالتحريك وهى القبة وموضع يزين بالثياب والستور للعروس . والعواتق جمع عاتق وهي الفتاة التى لم تتزوج أو التى بين الادراك والتعنيس — والتعنيس أن يطول مكث الفتاة في اهلها بعد ادراكها حتى تخرج من عداد الابكار

من ذلك أن فُتن الناس بمذهبه فى القصص ، وأسلوبه فى الحديث ، فقال الزبير بن بكار : لقد أدركت مشيخةً من قريش لايزنون بعمر ابن أبى ربيعة شاعراً من أهل دهره فى النسيب ، ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره ، من مدح نفسه ، والتحلى بمودته

نعم فتن الناس بمذهبه حتى الشعراء منهم ، فلقد حدثوا أن الفرزدق قدم المدينة وبها رجلان وُصفا له يقال لأحدهما صُرَيم وللآخر ابن أسماء ، فقصدهما وكان عندهما قيان ، ثم قال لهما بعد أن سلم عليهما : من أنتما ؟ فقال أحدهما : أنا فرعون ، وقال الآخر : أنا هامان ، فقال : فأين منزلكما فى النار حتى أقصدكما ؟ فقالا : نحن جيران الفرزدق الشاعر ! فضحك ونزل ، فسلم عليهما وسلما عليه وتعاشروا مدة ، ثم سألهما أن يجمعا بينه وبين عمر ابن ربيعة ففعلا ، فلما التقى الشاعران تحادثا وتناشدا إلى أن أنشد عمر قصيدته التى يقول فيها

فلما التقينا واطمأنّت بنا النّوى

وغُيِّب عنا من نخاف ونُشفقُ

أخذت بكفى كفّها فوضعتها على كبدٍ من خشية البين تخفقُ

فلما بلغ قوله

فقمن لكى يُخلينا فترقرقتْ مدامع عينها وظلت تدفّق[1]

وقالت أما ترحمنى ! لا تدعنى لَدَى غزلٍ جَمِّ الصبابة يخرق[2]

فقلن اسكتى عنا فغير مطاعةٍ نخافُك منا فاعلمى بك أرفق

فقالت فلا تبرحن ذا السترَ إننى

أخاف وربِّ الناس منه وأفرَقُ

صاح الفرزدق قائلا : انت والله ياأبا الخطاب أغزل الناس ! لايحسن الشعراء والله أن يقولوا مثل هذا الشعر ولا أن يرقوا مثل هذه الرقية

وكذلك فتن جميل بشعر ابن أبى ربيعة فقد تناشدا الشعر ، فانشد جميل قصيدته التى يقول فيها

لقد فرح الواشون أن صَرَمت حبلى

بثينةُ أو أبدتْ لنا جانب البخل

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طِلابيها لما فات من عقلى

يقولون مهلاً يا جميلُ وإننى لأُقسم مالى عن بثينة من مهل

أصبراً وقبل اليوم كان أوانهُ ؟

أم آخشى وقبل اليوم هددت بالقتل

(١) يخلينا : يجعلنا في خلوة (٢) يخرق من الخرق بالضم وهو الحمق

أبيتُ مع الهُلاّك ضيفاً لأهلها
وأهلى قريبٌ مُوسِعون ذوو فضل (١)

فياويح نفسى حَسبُ نفسى الذى بها
ويا ويح أهلى ما أصيب به أهلى!

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

ثم أنشد ابن أبى ربيعة قوله من قصيدة

جرى ناصحٌ بالود بينى وبينها فقرّبنى يوم الحصاب الى قتلى (٢)
فطارت بحد من فؤادى وقارنت قرينتها حبل الصفاء الى حبلى
فما أنسَ لا أنس مِلأ شياء لا أنس موقفى وموقفها يوماً بقارعة النخل
فلما تواقفنا عرفت الذى بها كمثل الذي بى حذوك النعل بالنعل

ويقتصر أكثر الرواة على البيت الاخير شاهداً على إعجاب جميل به حين قال: هيهات ياأبا الخطاب! لا أقول مثل هذا سجيس الليالى، والله ماخاطب النساء مخاطبتك أحد! وأرى ان هذا ليس بيت القصيد، ولا هذا المعنى بالذى يستفز شاعراً كجميل. بل هو معنى عادىٌ سبقه الشعراء به، فقد قال بعض الجاهليين:

(١) الهلاك: الصعاليك الذين يعيشون من معروف الموسرين
(٢) الحصاب كالمحصب: موضع رمى الجمار

ولما أن رأيت بنى حُيىٍّ عرفت ثَنَاءَتى فيهم ووِترى

وأرى أن الذى لفت نظر جميل، وجعله يحسد ابن أبى ربيعة على شعره، انما هو قصصه الشائق، وحديثه العذب. وذلك قوله:

فعاجت بأمثال الظباء نواعمٍ الى موقف بين الحجون الى النخل
فقالت لأتراب لها شَبَه الدُّمى أطلن التمنّى والوقوف على شغلى
وقالت لهن ارجعن شيئا لعلنا نعاتب هذا أو يراجع فى وصل
فقلن لها هذا عِشاءٌ واهلنا قريب ألمّا تسأمى مركب البغل؟
فقالت فما شئتنّ قلن لها انزلى فلَلأرض خير من وقوف على رَحْل
نجومٌ درارىٌّ تكنّفن صورة من البدر وافت غير هُوجٍ ولا عجل
وقمن اليها كالدُّمَى فاكتنفنها وكلٌّ يفدّى بالمودة والأهل
فسلمت واستأنست خيفة أن يرى عدوٌّ مُقامى أو يرى كاشحٌ فعلى
فقالت وأَرْختْ جانب الستر إنما معى فتحدّثْ غير ذى رِقْبةٍ أهلى
فقلت لها مابى لهم من ترقُّبٍ ولكنّ سرى ليس يحمله مثلى (١)

ثم يقول عن أترابها.

فلما اقتصرنا دونهن حديثنا وهن طبيباتٌ بحاجة ذى الشكل (٢)

(١) كان القدماء يرون هذا البيت أجمل ماقيل فى حفظ السر ونحسبه كذلك
(٢) الشكل بالكسر الغزل

عرفن الذى تهوى فقلن لها ائذني ... نطُفْ ساعةً فى بَرْدِ ليلٍ وفى سهل
فقالت فلا تلبثنَ قلن تحدَّثى ... أتيناكِ وانسبن انسياب مها الرَّمل
وقمن وقد أفهمن ذا اللب انما ... أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى
وباتت تمجُّ المسك فى فىَّ غادةٌ ... بعيدة مهوى القُرط صامتة الحجْل (١)
تقلِّب عَيْنَىْ ظبيةٍ ترتعى الخلا
وتحنو على رَخص الشَّوى أغيدٍ طفل (٢)
وتفتر عن كالأُقحوان بروضةٍ ... جلته الصَّبا والمستهلُّ من الوَبْل (٣)
أهيم بها فى كل مُمسًى ومُصبَح ... وأُكثر دعواها اذا خدرت رجلى

وهنا قال جميل : هيهات ياأبا الخطاب : لا أقول والله مثل هـذا سجيس الليالى . والله ماخاطب النساء مخاطبتك أحد

* * *

ذكرت ماتقدم أيها السادة : تمهيداً للحكم على شعر ابن أبى ربيعة ، وبياناً لإبداعه الذى عُرف به . فانى رأيت الادباء السالفين انما ينسبون اليه هذه البدعة ، ويسندون اليه هذا الجرم : وهو تزيين الفسق وتلطيفه ،

(١) بعد مهوى القرط كناية عن طول العنق ، والقرط بالضم حلية تعلق في الاذن وتسمى الشنف ـ وصموت الحجل كناية عن بضاضة الساق ـ والحجل الخلخال
(٢) رخص الشوى : لين الاطراف (٣) الوبل : المطر

وتسهيله لدى النفوس الأبية ، وتقريبه الى القلوب العَصِيّة . ولقد ذُكر شعره مع شعر الحارث بن خالد فى مجلس ابن أبى عتيق فقضل بعض الحاضرين شعر الحارث فقال ابن أبي عتيق : بعضَ قولك يا أخى ! فانه ماعُصِى الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى بشعر ابن أبى ربيعة . يريد انه أبصر بمواقع الاهواء ، ومواطن التأثير

وإذ كان المؤلفون فى الأدب لم يشرحوا طريقة ابن أبي ربيعة فى القَصص ، وكان منهجه فيه جديراً بالبيان والإيضاح ؛ فقد أردت أن أبين وجه الفتنة فيه ، وموضع الحسن منه ، حتى يتبين لكم ماذهبت اليه : من أنه فى شعره محتال ، وأنه بالنسيب صائد . وحسبكم هذا المثال . قال :

راح صحبي ولم أُحيِّ النَّوارا ... وقليلٌ لو عرَّجوا أن تُزارا
ثم إمَّا يَسْرون من آخر الليـــل وإما يعجلون ابتكارا

هنا يتمثل لكم : وهو خافت الصوت ، خافق القلب ، لايدرى — وهو بين اليأس والأمل ، والرجاء والقنوط — أيلتمس الحيلة إلى لقائها ، ويبتغى الوسيلة إلى وصالها ، أم ينصرف وهو شجىّ ، ويرتحل وهو حزين

ثم بيّن ماتمّ له بقوله :

ولقد قلت ليلة البين إذ جدّ رحيلٌ وخفت ان أُستطارا
خليل يهوى هوانا مُوَاتٍ كان لى عنـد مثلها نظّارا
ياخليل اربعنْ علىّ وعينا ىَ من الحزن نَهمُلانِ ابتدارا
ههنا فاحبس البعيرين واحذر رائدات العيون أن تُستنارا
اننى زائرٌ قُريبة قد يعـــلم ربى أن لا أطيقَ اصطبارا

فما كان جوابه ؟

قال فافعل لايمنعنْك مكانى من حديثٍ تقضى به الأوطارا
والتمس ناصحاً قريباً من الوِرْ دِ يحسُّ الحديث والأخبارا

فكان ماذا ؟

فبعثنا مجربا ساكن الريـــح خفيفاً مُعاوداً بَيْطارا

فما الذى صنع ؟

فأتاها فقال ميعادك السَّرْ حُ إذا الليل سدّل الأستارا

وكيف وصلت ؟

فكمنّا حتى إذا فقد الصو ت دجى المظلم البهيم فخارا
قلت لما بدت لصحبىَ انى أرتجى عندها لدينى يسارا

ثم أقبلت رافع الذيل أخفى الـ وطْءَ أخشى العيون والنُّظارا

فما الذى كان ؟

فالتقينا فرحّبت حين سلّمـ ت وكفّفت دمعاً من العين مارا[1]
ثم قالت عنـد العتاب رأينا فيك عنا تجلداً وازْورارا[2]
قلت كلا لاهِ ابنُ عمك بل خِفْـ نا أموراً كنا بها أغمارا[3]
فجعلنا الصدود لما خَشِينا قالة الناس للهوى أستارا
وركبنا حالا لتكذب عنا قول من كان بالبنان أشارا
واقتصرت الحديث دون الذى قد كان من قبل يعلم الاسرارا
ليس كالعهد إذ عهدتِ ولكن أوقد الناس بالنميمة نارا[4]
فلذاك الإعراض عنك وما آ ثر قلبى عليك أخرى اختيارا
ما أبالى إذا النوى قربتكم فدنوتم من حلّ أو من سارا
والليالى إذا نأيت طِوالٌ وأراها إذا دنوت قِصارا
فعرفت القبول منها لعذرى إذ رأتنى منها أريد اعتذارا

(١) مار الدمع : جرى وسال (٢) الازورار : الاعراض (٣) لاه ابن عمك : أى لله ابن عمك ، والاغمار جمع غمر بضم الغين وفتحها مع سكون الميم وهو الغر الجاهل الذى لم يجرب الامور (٤) ليس كالعهد إذ عهدت : يريد أن سلام الهوى تقضت أيامه فعصفت به الوشايات والنمائم

ثم ماذا ؟

ثم لانت وسامحَتْ بعد منع ... وأرتنى كفًا تَزِينُ السِّوارا
فتناولتها فمالت كغصن ... حركته ريحٌ عليه فخارا
وأذاقت بعد العلاج لذيذاً ... كجنى النحل شاب صِرفاً عُقاراً[1]

ثم ماذا يا خبيث ؟

ثم كانت دون اللِّحاف لمشغو ... ف معًى بها مشوق شِعارا
واشتكت شدَّة الإزار من البُهـ ... ـر وألقت عنها لديَّ الخمارا[2]
حبَّذا رَجْعها إليها يديها ... فى يدىْ دِرعها تحلُّ الإزارا

قاتلك الله !! ثم ماذا ؟

ثم قالت وبان ضوءٌ من الصبـ ... ـح منيرٌ للناظرين أنارا
يا ابن عمى فدتك نفسىَ إنى ... أتقى كاشحاً إذا قال جارا

فأى فتاة تسمع هذا القَصَص، ثم لا تبحث عن واضعه، وهو كما ترون يردّ شِرّة الشباب جَذَعة ؟

ومن عساها تسمع قوله :

واشتكت شدَّة الازار من البهـ ... ـر وألقت عنها لديَّ الخمارا

(١) المراد بالعلاج هنا ما كان من المحاولة في سبيل الايناس
(٢) البهر بضم الباء انقطاع النفس من الاعياء

حبّذا رَجْعُها اليها يديهـا ... فى يدى درعها تحل الازارا

ثم لاتنبهر منها الأنفاس، وتنفك منها الأزرار ؟!

هذه إحدى قصائده القَصصية، وعلى نمطها طبع أغلب شعره، وهي كما ترون من موجبات الفتنة، وموقظات الشهوات!

وكذلك كان الناس يفهمون فى شخص ابن أبى ربيعة محرضاً على الفسق مزيّناً للفجور، عاقا للفضيلة، باراً بالرذيلة، وكذلك كان شعره عفا الله عنه. وأى امرأة لاتفتنها تلك الاحاديث الفاتنة، وهاتيك القصص الخالبة ؟

أليس هو الذى يقول ؟

وناهدة الثديين قلت لها اتّكى ... على الرمل من جبّانةٍ لم تَوَسَّد[1]
فقالت على اسم الله أمرُك طاعةٌ ... وإن كنت قد كلِّفت ما لم أُعوَّدِ

فلما دنا الإصباح قالت فضحتنى
فقُم غيرَ مطرودٍ وإن شئت فازددِ

فما ازددت منها غير مصٍّ لثاتها ... وتقبيل فيها والحديث المردَّد
تزودت منها واتّشحت بمرطها ... وقلت لعينيَّ اسفحا الدمع من غد
فقامت تُعفّى بالرداء مكانها ... وتطلب شَذْراً من جُمان مبدَّدِ

(١) الجبانة : الصحراء . وتسمى المقابر جبانة لانها أكثر ما تكون في الفلاة

ومهما يكن من شيء فان الرجل لم يشأ أن تُختم حياته بالمجون ، فما كاد يتجاوز الأربعين من عمره حتى أقبل على نفسه يحاسبها وعلى ربه يستغفره : فهجر الشعر على حبه ، وأِلف النُّسك على بغضه ، لولا تلك الذكرى الموجعة التى كانت تعاوده من حين إلى حين ، وذلك الشوق الدخيل الذى كان يهيجه فى الفَيْنة بعد الفَيْنة ، فقد كان يحنُّ إلى شبابه حنيناً موجعاً ، ويتطلّع إلى ماضيه تطلُّع اليائس المتلهف ، فيمدُّ يديه علّه يرجع الدهر ، ويلفت الزمن ، ولكن هيهات هيهات ، فقد خانه الأمل ، وخلاّه الشباب ، وأخذ الشيب فى هدِّ تلك القوى ، وهدم ذلك الصرح ، وأخذ النساء يتراجعن ضاحكاتٍ منه ، ساخرات به ، وبدأ الدهر يبنى دولة جديدة للحب ، ويشيِّد حصناً ثانياً للغرام ، فأنشأ فتياناً غير الفتيان ، وعذارى غير العذارى ، وأصبح ابن أبى ربيعة غريباً والمشيب غُربة ، وقصيًّا والشيب شِبه النوى ، وعاد الناس يقولون : هذا هو ابن أبى ربيعة الذى كانت تعضُّه النساء وهو بالبيت يطوف ، وهذه هى الثريا التى كانت تحسدها الازهار فى الرياض والنجوم فى السماء ، وهذه معالم ابن أبى ربيعة ومعاهد شبابه ، قد عادت صُمًّا خوالِدَ ما يبين كلامها

أقول أيها السادة ان ابن أبى ربيعة أخذ يحنّ إلى أيامه الخوالى ،

ولياليه السوالف ، ويتشوَّق إلى الشباب الراحل ، والنعيم الذاهب ويزيده كَلَفاً وأسفاً أن يرى الشباب فى صعود نحو المستقبل المشرق ، ويرى نفسه فى هبوط إلى الماضى المظلم . فما لقى فتى جميلاً أو شاباً وسيما إلا أرسل بصره إليه يتأمل شكله ، ويجتلى حسنه ، ثم يمد يده إلى شعره فيعبث به ، وإلى ذؤابته فيرسلها ، ثم ينتحب ويقول :

واشباباه ! واشباباه !

حتى لقد مرَّ به فتيان وهو بالحِجْر يصلى فلم يكد يفرغ من صلاته حتى لحق بهما فعرفهما ثم قال : يا ابنى أخى ! لقد كنت موكلا بالجمال أتبعه ، وإنى رأيتكما فراقنى حسنكما وجمالكما ، فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندما عليه ! !

نعم أقلع ابن أبى ربيعة عن غيِّه وأصبح يستقبح من الفتيان وهو شيخ ما لم يكن يستقبحه من نفسه وهو فتى . فما طاف بالبيت إلا تأمل علّه يجد فتى يحدث فتاة فينهاه ، أو امرأة تتبع رجلا فيردعها ! ولقد كان من أمره أن نظر إلى رجل يكلم امرأة في الطواف فعاب ذلك عليه وأنكره فقال له : انها ابنة عمى ، فقال ذلك أشنع ! فقال إنى خطبتها إلى عمى فأبى علىَّ إلا بصداق لا أطيقه ، ثم شكا إليه من حبه لها وكلفه بها ما جعله يسير معه إلى

عمه يسترضيه . فقال له إنه مُملِق وليس له ما يصلح به أمره

فقال له عمر : وكم الذى تريده منه ؟ فقال له أربعمائة دينار .

فقال له :هي عليّ فزوّجه . ففعل

قالوا وكان عمر حلف لايقول بيتاً من الشعر إلا أعتق رقبة فانصرف يومئذ وهو حزين ، فجعلت جارية له تكلمه فلا يرد عليها جواباً ، فقالت له : إن لك لأمرا ، وتريد أن تقول شعراً ، فقال

تقول وليدتى لما رأتنى
طربتُ وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليومَ قد أحدثت شوقاً
وهاج لك الهوى داءً دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاءٍ
إذا ما شئت فارقت القرينا
بربك هل أتاك لها رسولٌ
فشاقك أم لقيتَ لها خَدِينا

فقلت شكا إليّ أخٌ محبٌ كبعض زماننا إذ تعلمينا

وقصّ عليّ ما يلقى بهندٍ فذكّر بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وإن تعزّى
مشوقٌ حين يلقى العاشقينا
وكم من خُلة أعرضت عنها لغير قِلًى وكنت بها ضنينا
أردت بعادها فصددت عنها وان جُن الفؤاد بها جنونا

ثم دعا تسعة من رقيقه فاعتقهم ، لكل بيت واحد

* * *

فسلام عليه يوم قال الشعر ! وسلام عليه يوم ودّعه ! وعفا الله عمن فتن بشعره فأجاب داعى الشباب ! !

أخبار الملاح

تمهيد

أيها القارئ !

قد رأيت كيف كان عمر ابن أبى ربيعة يحب ، وكيف كان يسلك مذاهب النسيب ، فانظر الآن كيف كان يتصيّد النساء ، وكيف كانت تعيش معشوقاته فى ذلك الزمان

وإنى لأرى من الخير أن أبيّن لك قبل كل شىء ، كيف فكرت فى كتابة هذه الفصول ، فقد أخشى أن ترمينى بالاسراف فى التغنّى بالحب ، والتحدث عن الجمال ، وانى بذلك لمتّهم ظنين !

ألا فلتعلم أن الناس يكثرون فى هذا العصر من التجنّى على الآداب العربية ، ويتهمونها بالفقر ، والعُقْم ، والجفاف ، والعجز عن مواتاة الغرائز ، والشهوات ، والعقول . وساعدهم على ترديد هذه النغمة المنكرة ما تقدمه الاداب الأجنبية كل يوم من الأدلة

والبراهين على صلاحيتها لتغذية المشاعر ، والعواطف ، والأحاسيس

وإن قليلاً من الانصاف لكافٍ للاقتناع بأن أدلة الاتهام قوية ، وأن الآداب العربية تبدو ضعيفة ضئيلةً بجانب ذلك الدوىّ الهائل الذى تدمغنا به الآداب الغربية فى كل يوم . فهذه كتب المختارات والمحفوظات والدرس التى يتناولها طلبة المدارس الابتدائية والثانوية وبعض المدارس العالية تُعدُّ من الكتب الجافة المقفرة التي تخاطب على الأغلب ناحية واحدة من نواحى الطبع والادراك .

والطائفة المستنيرة من مفتشى اللغة العربية وأساتذتها تعلم ذلك حق العلم ، ولكنها تكتفى بالألم الصامت ترسله فى خفية واستحياء ، كلما رأت انصراف الطلبة عن آداب لغتهم وفناءهم فى آداب الفرنسيين والانجليز . وفى الحق أن المادة التى تقدم لطلبة المدارس فى اللغة والأدب لا تُمتِع القلب ، ولا توقِظُ الحس ، ولا تثير الوجدان ، فهى فى الأكثر طائفة من العظات والأوصاف تتحدث عن معانٍ موضعية طوتها الأيام ، وأتت على رسومها الليالى ، يدرسها جماعة يعيشون فى ظلمات القرون الأولى غير شاعرين بما أبدع العقل فى هذا الجيل ، إن لم يكونوا أمْسَاخاً خلّفها عصر ماقبل التاريخ

ولقد ثارت فى الصيف الماضى ضجة عن تقدُّم النثر وتخلّف الشعر

وكان من رأى أستاذنا الدكتور طه حسين أن النثر تقدم لأن الكتاب يحيون حياة عقلية ، وأن الشعر تأخر لأن الشعراء كسالى مُتبلِّدون . وعندى أن النثر والشعر فى التأخر سواء ، ولا عبرة بهذه الثروة التى يطالعنا بها الكُتاب فى كل صباح ، فهى على وَفْرتها تكريرٌ وترديدٌ لأفكار الفرنسيين والانجليز والألمان ، وليس فيها شخصية ولا ذاتية تحدث القارىء عن حياة أولئك الكتاب . وإن شُعراءنا لأدلُّ من كُتابنا على أنفسهم ، فانهم حين غفلوا عن أشعار الأمم الأجنبية فرغوا لعواطفهم فصاغوها خالصة من المحاكاة والتقليد . بغضّ النظر عن متابعتهم لشعراء العرب فى المرمى والأسلوب

ولننتهز هذه الفرصة لنعلن أنه لا حياة للآداب العربية مادام كتابها وشعراؤها وخطباؤها لا يرون المرأة فى حرية وصراحة ، ولا يتأثرون بجبروتها فى ميدان الحياة

وما دام شبابنا يسمعون عن المرأة كما يسمعون عن الغول والعنقاء ولا يرونها حين يرونها إلا قَذِرة دنسة فى بيوت الرِّجس والبِغاء ، فهيهات أن تتفتّح أذهانهم ، أو تُزهر قرائحهم ، أو تظهر على آثارهم الادبية مَسحة التيقظ والتفكير . وتلك الرءوس التى تتولّى هداية الشرق فى هذا العصر لاتدرى مع الأسف الشديد أن الصله وثيقة بين

الأدب وبين الحياة ، إن لم يكن الأدب روح الحياة ، وأنه لا أمل فى أن نرى لكاتب قصة جيدة مادام الكتاب بعيدين كل البعد عن المرأة التى تلوِّن الوجود بشتَّى الألوان : فتُحيلُه تارةً جحيما يرمى بالفَزَع والهول ، ثم تعيدهُ حين تشاء جنة وارفة الظلال . وكيف تكون لنا آداب قوية تمثل فضائلنا ورذائلنا ، وحلمنا وجهلنا ، وطيشنا ورزانتنا ، وعقلنا وجنوننا ، ونحن نحرص على الطيبة والاستقامة فى غير فهم ولا تبصُّر . أُسوةً بغُلْف القلوب من سماسرة الأديان وأدعياء الأخلاق !!

إنه لاحياة للآداب إلا إذا شغلتنا بأنفسنا ، وحدثتنا عن مطامعنا ، وأهوائنا ، وعيوبنا ، ومظانّ الخير فينا ، وأرتنا كيف نُحب وكيف نُبغض ، ومتى نُقْدِم ، ومتى نحجِم ، وعلّمتنا كيف نجدّ ، وكيف نلهو ، ومتى نقسو ، ومتى نلين . أما الأدب الذى يصدر عن رجل مشعوذ معتوه ، كلُّ إحساس فى رأيه إثم ، وكل إدراكٍ عنده فسوق ، فهو أدب ميت سخيف لا يقوى به عقل ، ولا يسمو به خيال

وإنى لأخشى إن استمر أساتذة الأدب على الاكتفاء بلون واحد يقدمونه إلى الطلبة فى كل يوم : أخشى إن استمروا على ذلك أن يصارحهم الطلبة بالقطيعة والفراق !

* * *

وبعدُ فهل يسمح القارئ بأن نتجنب تلك الخطة العوجاء ، ونقبل على الأدب نتذوّق أطايبه ، ونعرف حُلوه ومُره ، وحُزونَهُ وسُهولَه ، كما كان يفعل القدماء من رجال اللغة العربية ، وكما يفعل أهل الغرب فى أدبهم الحديث ؟

إذا سمح القارئ بذلك شرعنا فى بيان تلك الناحية الطريفة من حياة عمر بن أبى ربيعة : وهى تصيُّده للنساء ، وأخبار من كان يعرف من المِلاح . ومعاذ الله أن نريد بهذا البحث أن تشيع الفاحشة ، أو تحلو فى أعين الناس مذاهب الفجور

إنما نريد أن نُقبل عامدين على الجوانب المرِحة التى تزخر بها الآداب العربية حتى لايسهُل رميُها بالفقر والجفاف ، كلما حلت هذه الفِرية لخصومها الجاهلين.

نريد أن يكون لنا فى دراسة الشعراء العشاق نصيبٌ ضئيلٌ من الحرية التي ينعم بها الكتاب الفرنسيون وهم يدرسون ميسيه ، والكُتّاب الانجليز وهم يدرسون بيرون ، والكتّاب الألمان وهم يدرسون جوت .

وإنا لمكتفون فى الحديث عن معشوقات عمر بن أبى ربيعة بما استباحه المؤلفون القدماء أمثال صاحب الأغاني ، وصاحب الامالى ،

وصاحب زهر الآداب ، ومن إليهم ممن ترجموا هذا الشاعر الغَزِل ، وتحدثوا عمن كان يهوى من ربات الحِجال [1]

ولن يكون ذلك من اللهو الصِّرف ، فهو على طرافته جِدٌّ فى جد ، إذ يكشف لنا عن نفسية ذلك الشاعر ، ويُرينا الفِتن التى أرهفت إحساسه ، وألهبتْ روحه ، حتى أُغرم بالحسن ، وحبس شعره على الحسان .

ولئن كان من موجبات الحزن أن انصرف كُتاب العرب عن تدوين الحوادث اليومية كما يفعل أصحاب المذكرات فى الغرب ، ولم يعد فى الإمكان تصوير معشوقات عمر بن أبى ربيعة كما صُوِّرت مثلاً خليلات ألفريد دى ميسه ، فانا نحمد الله على أن وفّق أبا الفرج الاصبهاني إلى الإفاضة في أخبار تلك الحور العين ، إفاضةً شائقة ممتعة ، لاينقصها غير الترتيب والتبويب ، إذ ذكرها فى أغانيه مبدّدة مبعثرة فى أثناء الحديث عن كبار المغنين وفحول الشعراء

* * *

(١) أهم مرجع لترجمة عمر بن أبى ربيعة وترجمة معشوقاته هو كتاب الاغانى ، وعليه عولنا في جمع أخباره مع أولئك الملاح. وكثيراً ما نكتفى بعبارته حين نراها وافية بما نريد ، فلنسجل ذلك هنا اعترافا بفضل ذلك المؤلف الذى قل نظيره بين القدماء والمحدثين . وليتنا نظفر بكاتب مثله يدون أخبار الكتاب والشعراء في العصر الحديث.

وقد يكون من الحزم أن نلفت نظر القارىء إلى أننا لانضمن صحة كل ما نقل عن ابن أبى ربيعة ومعشوقاته من مختلف الاخبار، فتلك شخصيات جذابة محبوبة، لايبعد أن يكون الرواة أضافوا اليها ما شاءت أهواء السامرين من طريف الاحاديث .

فلنقبل ما نُقل الينا فى جملته ، مكتفين بهذه الملاحظة التى لم يكن منها بُدّ ، ولنترك للقارىء الحرية فى أن يناقش ما شاء من تلك الاقاصيص ، ثم لنمض فى الكلام عن أولئك الحسان ، راضين بما حكاه الواقع ، أو حاكه الخيال !

أيام الطواف

لايدهشك أيها القارىء أن نضع لعبث ابن ابى ربيعة هـذا العنوان الغريب ، فقد كان يتخذ أيام الحج موسماً للهو والمجون ، وإنه ليقول

أيها الرائح المجدُّ ابتكارا ... قدقضى من تهامةَ الاوطارا
من يكن قلبه صحيحا سليما ... ففؤادى بالخيف أمسى مُعارا
ليت ذا الدهرَ كان حتماً علينا ... كلَّ يومين حِجةً واعتمارا[1]

وقد أنشد ابن أبي عتيق هذا الشعر فقال له : الله أرحم بعباده أن يجعل عليهم ماسألته ليتمَّ لك فِسقك ! وأنشده عبد الله بن عمر فقال : يا ابن أخى ! أما اتقيت الله حيث تقول :

ليت ذا الدهر كان حتما علينا ... كل يومين حجةً واعتمارا

فقال له عمر : بأبي أنت وأمى ! إني وضعت ليتا حيث لاتغنى .

بَيْد أنه لايصح لنا أن ننسى أنه لم يكن يفوز فى كل مرة بما يبغى

(١) قال عمر هذا الشعر في أم عمرو بنت مروان وكانت بعثت اليه بألف دينار ورجته أن لايذكرها في شعره . فقبلها واشترى بها طيباً فأهداه اليها فردته . فقال إذاً والله أنهبه الناس . فيكون مشهوراً . فقبلته

شيطانه من زيارة تلك المناسك والتعرض لكرائم النساء . فقد رُوى أن امرأة جميلة قدمت مكة ، فنظر اليها وهو يطوف فوقعت فى قلبه ، فدنا منها فكلمها فلم تلتفت إليه . فلما كان فى الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها ، فقالت له : اليك عنى يا هذا فانك فى حرم الله وفى أيام عظيمة الحرمة ! فألحّ عليها يكلمها حتى خافت أن يشهّرها . فلما كانت الليلة الاخرى قالت لأخيها : أُخرج معى فأرني المناسك فانى لست أعرفها ، فأقبلت وهو معها ، فلما رآها عمر أراد أن يعرض لها ، فنظر إلى أخيها معها فعدل عنها ، فتمثلت المرأة بقول النابغة .

تعدو الذئاب على من لا كلاب لهُ وتتقى صولة المستأسِد الحامى

وقد قال المنصور حين حُدِّث بهذا الخبر : ودِدْت أنه لم تبق فتاة من قريش فى خِدرها إلا سمعت بهذا الحديث

* * *

وقد وقع له مثل هذا مع أبى الاسود الدؤلى إذ حجّ ومعه امرأته ، وكانت جميلة ، فبينما هى تطوف بالبيت إذ عرض لها ، فأتت أبا الاسود فأخبرته ، فأتاه أبو الأسود فعاتبه . فقال له عمر : ما فعلت شيئاً . فلما عادت إلى المسجد عاد فكلمها . فأخبرت أبا الأسود فأتاه فى المسجد وهو مع قوم جالس فقال له :

وإني ليثنينى عن الجهل والخنا وعن شتم أقوامٍ خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وبُقْيا وأننى كريمٌ ومثلى قد يضر وينفع (١)
فشتان ما بينى وبينك اننى على كل حال أستقيم وتظلعُ (٢)

فقال له عمر : لست أعود يا عم لكلامها بعد هذا اليوم . ثم عاود فكلمها ، فأتت أبا الاسود فأخبرته ، فجاء اليه فقال له :

أنت الفتى وابن الفتى وأخو الفتى وسيدنا لولا خلائق أربعُ
نُكُولٌ عن الجُلّى وقرب من الخنا
وبُخلٌ عن الجدوى وأنك تُبّعُ (٣)

ثم خرجت وخرج معها أبو الاسود مشتملا على سيف ، فلما رآها عمر أعرض عنها ، فتمثل أبو الاسود

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الحامى

وإن له لحوادث أشنع من هاتين فى الضّياع ، فقد رأى امرأة من العراق وهو يطوف فأعجبه جمالها ، فمشى معها حتى عرف موضعها ، ثم أتاها فحادثها وناشدها وناشدته ، وخطبها فقالت : ان هذا لايصلح ها هنا . ولكن إن جئتنى إلى بلدى وخطبتنى إلى أهلى تزوجتك . فلما

(١) البقيا : هى الرحمة والاشفاق (٢) الظلع : العرج والغمز في المشى
(٣) التُبّع والتِّبع هو الذى يجدّ فى طلب النساء

ارتحلوا جاء إلى صديق له من بنى سهم وقال له : إن لى اليك حاجة أريد أن تساعدنى عليها . فقال له : نعم ، فأخذ بيده ولم يذكر له ما هى . ثم أتى منزله فركب نجيباً له وأركبه نجيباً آخر ، وأخذ معه ما يصلحه ، وسارا لا يشكُّ السهمىُّ فى أنه يريد سفر يوم أو يومين ، فما زال يسرع حتى لحق بالرفقة ، ثم سار بسيرهم يحادث المرأة طول طريقه ويسايرها ، وينزل عندها إذا نزلت حتى ورد العراق . فاقام أياماً ثم راسلها يتنجزها وعدها ، فأعلمته أنها كانت متزوجة ابن عم لها وولدت منه أولاداً ثم مات وأوصى بهم وبماله اليها ما لم تتزوج ، وأنها تخاف فرقة أولادها وزوال النعمة ، وبعثت اليه بخمسة آلاف درهم واعتذرت ، فردها عليها ورحل إلى مكة ، وقال فى ذلك :

نام صحبى ولم أنَمْ ... من خيال بنا ألَمّْ
طاف بالرَّكب مَوْهِناً ... بين خاخٍ إلى إضَمْ (١)
ثم نبهت صاحباً ... طيِّب الخيم والشيَمْ (٢)
أريحيًّا مُساعِداً ... غير نِكْس ولا بَرَمْ (٣)

(١) خاخ : موضع بين الحرمين ــ واضم : واد بجبل تهامة ، وهو الوادى الذى فيه المدينة (٢) الخيم بالكسر السجية ــ والشيم جمع شيمة وهى الطبيعة
(٣) النكس بالكسر الضعيف ــ والبرم بفتحتين الذى لا ينفع فيه

قلت يا عمرُو شفِّنى ... لاعجُ الحب والألَمْ
إيتِ هنداً فقل لها ... ليلة الخيف ذى السَّلَمْ (١)

* * *

ويظهر أن الخيبة التى رمته بها تلك السيدة العراقية جعلته يتردد فى متابعة المِلاح إلى العراق . فقد تشهَّت فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية أن يتبعها ليتزوجها هناك ، ولم نعلم أنه هشَّ لتلبية ذلك النداء . ومن قصته معها انها حجت فراسلها ووعدها أن يتلقاها مساء الغد ، وجعل الآية بينه وبينها أن تسمع ناشداً يَنشُد بغلته فى زقاق الحاج ، ان لم يمكنه أن يرسل رسولا ، يُعْلِمُها بمصيره إلى المكان الذى وعدها .

فلما تلاقيا وتحادثا خطبها فقالت : أما هاهنا فلا سبيل إلى ذلك ، ولكن إن قدمت إلى بلدى خاطبا تزوجتك . وقد قال فى وصف ما كان بينهما من التراسل والتواعد والتّلاق :

تشط غداً دار جيراننا ... وللدارُ بعد غدٍ أبعدُ

(١) لم نقف على بقية هذه القصيدة

إذا سلكت غمر ذى كندةٍ ... مع الركب قصدٌ لها الفرقد[1]

عراقيةٌ وتهامى الهوى ... يَغورُ بمكةَ أو يُنْجِدُ[2]

وحثَّ الحداة بها عِيرها ... سِراعاً إذا ماونتْ تطردُ[3]

هنالك إمَّا تعزِّى الفؤاد ... وإما على إثْرها تكمدُ

وليست بِبِدع إذا دارُها ... نأتْ والعزاء إذاً أجْلَدُ

صرمتُ وواصلت حتى علمـ ... ـتُ أين المصادر والموردُ

وجربت من ذاك حتى عرفـ ... ـتُ ما أتوقّى وما أعمد

دعانى من بعد شيب القذا ... لِ رئمٌ له عُنُقٌ أغيد[4]

وعَينٌ تُصابى وتدعو الفتى ... لِما تركهُ للفتى أرشدُ

فتلك التى شيَّعتها الفتاة ... إلى الخِدر قلبى بها مُقصَد

تقول وقد جدَّ من بينها ... غداة غدٍ عاجلٌ مُوفد

ألست مشيِّعنا ليلةً ... نُقضِّى اللبانة أو نهمد

فقلت بلى قلَّ عندى لكم ... كلال المطىِّ إذا تجهَد

(١) غمر ذى كندة : موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين ــ الفرقد نجمان في السماء من نجوم الدب الاصغر وهى في الشمال . ويقال لها الفرقد بالافراد والفرقدان بالتثنية . ومعنى أن الفرقد قصد لها أنها تتجهاليه . لان العراق في الشمال الشرقى من مكة (٢) يغور : يأتى الغور وهو المطمئن من الارض ــ وينجد : يأتى النجد وهو ما غلظ من الارض وارتفع (٣) الحداة : ساقة الابل الذين يتغنون لها لتنشط في السير ــ وتطرد : تساق (٤) القذال كسحاب جماع مؤخر الرأس

فعودى إليها فقولى لها ... مساء غدٍ لكم موعد

وآية ذلك أن تسمعى ... إذا جئتكم ناشداً ينشُد

فرُحنا سِراعاً وراح الهوى ... إليها دليلا بنا يقصد

فلما دنونا لجرس النُّبا ... ح والضوء والحىُّ لم يرقدوا[1]

نأينا عن الحىّ حتى إذا ... تودّع من نارها المَوْقِد[2]

وناموا بعثنا لها ناشداً ... وفى الحىِّ بغية من ينشُد

أتتنا تَهادَى على رقْبة ... من الخوف أحشاؤها تُرْعَدُ[3]

تقول وتظهر وجداً بنا ... ووجدى وإن أظهرت أوجد

لما شقائي تعلقتكم ... وقد كان لى عنكمُ مَقْعَد[4]

وكفّتْ سوابق من عبرةٍ ... على الخد جال بها الإثمد[5]

فان التى شيّعتنا الغداة ... مع الفجر قلبى بها مُقصَد[6]

وقد جاء فى خبره مع فاطمة هذه انه لما جاءها أرسلت بينها وبينه

(١) الجرس بالفتح الصوت (٢) تودع الموقد : خبت ناره وانطفأت (٣) تهادى : تمايل في خفة ولين ــ والرقبة: الحذر والخوف (٤) كان لى مقعد عنكم : كان لى عنكم غنى (٥) الاثمد : حجر الكحل (٦) مقصد : مقتول . من قولهم : رماه فاقصده اذا قتله مكانه .

قال أبو حية النميرى :

رمين فأقصدن القلوب ولم تجد ... دماً مائراً الا جرى في الحيازم

سترا رقيقاً تراه من ورائه ولا يراها ، فجعل يحدّثها حتى استنشدته ، فأنشدها هذه القصيدة ، فاستخفّها الشعر فرفعت السِّجف ، فرأى وجهاً حسناً فى جسم ناحِل ، فخطبها ، وأرسل إلى أمها وكانت معها بخمسمائة دينار ، فأبت وحجبته ، وقالت للرسول : لا تعد إلينا . فغمّ ذلك الفتاة ، فقالت لها أمها : قد قتلك الوجد به ، فتزوجيه !

قالت : لا والله ، لايتحدث أهل العراق عنى انى جئت ابن أبى ربيعة أخطبه . ولكن ان أتانى إلى العراق تزوجته .

ويقال انها راسلته وأوعدته أن تزوره فأجر بيته وأعطى المبشر مائة دينار . فأتته وواعدته إذا صدر الناس أن يشيِّعها ، وجعلت علامة مابينهما أن يأتيها رسوله ينشدها ناقة له ضلت . فلما صدر الناس فعل . وقد قال فى وصف ذلك

قالَ الخليط غداً تصدُّعُنا ... أو بعده أفلا تشيِّعنا [1]

أما الرحيل فدون بعد غدٍ ... فمتى تقول الدار تجمعنا [2]

لتشوقنا هندٌ وقد علمت ... علماً بأن البين يفزعنا

(١) الخليط : الجيرة الاعزاء الذين يخلطهم المحب بنفسه ــ والتصدع : التفرق

(٢) تقول : معناها تظن في هذا البيت

عجباً لموقفنا وموقفها ... وبسمع تِرْبيها تراجعنا [1]

ومقالها سِرْ ليلةً معنا ... نَعهَد فان البين فاجعُنا [2]

قلتُ العيون كثيرةٌ معكم ... وأظن أن السير مانعنا

لا بل نزوركمُ بأرضكمُ ... فيطاع قائلكم وشافعنا

قالت أشىءٌ أنت فاعلهُ ... هذا لعمرك أم تخادعنا

بالله حدِّث ماتؤملهُ ... واصدق فان الصدق واسعنا

اضرب لنا أجلا نَعُدّ لهُ ... إخلاف موعده تقاطعنا [3]

* * *

وإنا لنعجب حين نرى الرجال يقدِّرون مصير الحسان من بناتهم فيهجرون مكة فراراً من ذلك الشاعر الخليع : فقد وُلِدَ لرجل من بنى جُمح جارية لم يولد مثلها بالحجاز حسنا . فقال : كأنى بها وقد كبِرَتْ فشبب بها عمر بن أبى ربيعة وفضحها ونوَّه باسمها كما فعل بنساء قريش ، والله لا أقمت بمكة ! فباع ضيعة له بالطائف

(١) ترباها مثنى ترب بالكسر وهي الحدينة ــ وتاربت الجارية الجارية خادنتها . قال كثير :

تتارب بيضا اذا استلعبت ... كادم الظباء ترف الكثبانا

(٢) نعهد : نأخذ عليك العهد والميثاق أن لا تنسانا بعد الفراق

(٣) نعد له : أى نحسب الايام لحلوله حتى اذا اخلفت قاطعناك

ومكة ورحل بابنته إلى البصرة ، فأقام بها ، وابتاع هناك ضيعة ، ونشأت ابنته من أجمل نساء زمانها .

ومات أبوها فلم تر أحداً من جُمَح حضر جنازته ، ولا وجدت مُسعداً ولا مواسياً ، فقالت لمرضع لها سوداء : من نحن ؟ ومن أى البلاد نحن ؟ فخبرتها . فقالت : لاَجرَمَ ، والله لا أقمت فى هذا البلد الذى أنا فيه غريبة . فباعت الضيعة والدار وخرجت فى أيام الحج ، وكان عمر يَقْدَم فى ذى الحجة فيعتمر ويُحل ، ويلبس ما شاء من الحلل والوشْى ، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القُطوع والديباج ويرسل لِمّته . ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق مُحْرِمات ، ويتلقّى المدنيات إلى مرّ ، ويتلقّى الشاميات إلى الكديد . فخرج يوماً للعراقيات فاذا قبّة مكشوفة فيها جارية كأنها القمر تركب معها جارية سوداء . فقال للسوداء : من أنت ؟ ومن أين أتيت يا خالة ؟ فقالت : لقد أطال الله تعبك إن كنت تسأل هذا العالَم : من هم ومن أين هم ؟ قال : فأخبرينى عسى أن يكون لذلك شأن . قالت : نحن من العراق ، فأما الأصل والمنشأ فمكة . وقد رجعنا إلى الأصل ورحلنا إلى بلدنا ، فضحك ، فلما نظرت إلى سواد ثَنِيَّتَيْه قالت : قد عرفناك . قال : ومن أنا ؟ قالت : عمر بن أبى ربيعة ! قال : وبِمَ عرفتنى ؟ قالت : بسواد

ثنيتيك وبهيئتك التى ليست إلا لقريش (١) . فانشأ يقول

أصبح القلب فى الحِبال رهينا ... مُقصداً يوم فارق الظاعنينا
عَجِلت حُمّةُ الفراق علينا ... برحيل ولم نخف أن تبينا (٢)
لم يرعنى إلاّ الفتاة وإلاّ ... دمعها فى الرداء سحّاً سنينا (٣)
ولقد قلت يوم مكة سرًّا ... قبل وَشْكٍ من بينكم نوّلينا (٤)
أنت أهوى العبادِ قرباً ودلاً ... أو تنيلين عاشقاً محزونا
قاده الطرف يوم مرّ إلى الحيْـ ... ـن جهاراً ولم يخف أن يحينا (٥)
فاذا نعجةٌ تراعى نعاجاً ... ومَهاً بُهّج المناظر عِينا (٦)
قلت من أنتمُ فصدت وقالت ... أمُبِدٌّ سؤالك العالمينا (٧)
نحن من سا كنى العراق وكنا ... قبله قاطنين مكة حينا

(١) سواد ثنيتى عمر بن أبى ربيعة لم يكن طبيعيا ؛ وانما عرض له حين ضربته الثريا بظاهر كفها ؛ وكان النساء اذ ذاك يتختمن في أصابعهن العشر . فاصابت الخواتيم تنيتيه العليين فنغضتا وكادتا تسقطان فقدم البصرة فعولجتا له فثبتتا واسودتا . فشاع خبره وعيره بذلك خصومه من الشعراء (٢) حمة الفراق بالضم ما قدر وقضى
(٣) سنين : متدفق (٤) الوشك : الاسراع (٥) الحين بالفتح الهلاك
(٦) النعاج هنا بقر الوحش — والعين : الجميلات العيون (٧) معنى عجز هذا البيت كما في اللسان : أمُقْسِمٌ أنت سؤالك على الناس حتى تعمهم ؟ من قولهم : أبد المال والعطاء اذا فرقه في القوم . وهو معنى قولها له : لقد أطال الله تعبك ان كنت تسأل هذا العالم : من هم ومن أين هم ؟

قد صدقناك إذ سألت فمن أنـ ـت عسى أن يجرّ شأنٌ شؤونا
ونرى أننا عرفناك بالنعـ ـت بظنٍّ وما قتلنا يقينا
بسواد الثنيتين ونعتٍ قد نراه لناظر مستبينا

ولم يزل بها عمر حتى تزوجها ، وولدت له .

ويقال إنه أنشأ هذه القصيدة فى التشبيب برملة بنت عبد الله الخزاعية ، وإن الثريا بنت علىّ لما سمعت بها هجرته ، فى حديث سنعود اليه بعد فصول

* * *

ولقد نعلم أن مِلاح النساء كنّ يتحدثن عنه فى مناسك الحج فى لهفة وشوق . وكان يقدّر له أحياناً أن يسمع ما يلهجن به من ارتقاب غزله ، وانتظار لقياه ، فيضطرم قلبه ، وتلتهب أحشاؤه ، كلفاً بمن يتساقين على ذكره كؤوس النجوى والسّرار . فقد روى أنه بَصُر فى منصرفه من المزدلفة بامرأة جميلة فى هودج ، وسمع عجوزاً معها تناديها: يا نَوار استتري ، لا يفضحك ابن أبى ربيعة . فاتّبعها وقد شغلت قلبه حتى نزلت بمنى فى مضرب قد ضُرب لها ، فنزل إلى جانب المضرب ، ولم يزل يتلطف حتى جلس معها وحادثها ، وإذا أحسن الناس وجهاً

وأحلاهم منطقا ، فزاد ذلك فى إعجاب عمر بها ، ثم أراد معاودتها فتعذر ذلك عليه ، وكان آخر عهده ، فقال فيها

علق النوّار فؤاده جهلا وصبًا فلم تترك له عقلا
وتعرّضت لى فى المسير فما أمسى الفؤاد يرى لها مِثلا
ما ظبيةٌ من وحش ذى بقر تغذو بسقط صريمة طِفلا (١)
بألذّ منها إذ تقول لنا وأردت كشف قِناعها مهلا
دعنا فانك لا مكارمةً تجزى ولست بواصل حبلا
وعليك من تبل الفؤاد وإن أمسى لقلبك ذكره شغلا

* * *

وفى الحق أن ابن أبى ربيعة لم يكن فى حاجة إلى تصيُّد النساء ، فقد كنّ عليه أحرص ، وإلى تصيُّده أحوج ، وسنرى حين نعرض لاخباره مع هند بنت الحارث وسكينة بنت الحسين كيف كانت تشقى الرُّسل فى البحث عنه كلما حنت معشوقاته الى وجهه المشرق ، وحديثه الطريف ، فلنكتف الآن بالاشارة إلى تلك السيدة الاموية التى قدمت معتمرة قبل أوان الحج ، فمرت عليه وهى تطوف ، وكان فى نفر من

(١) ذو بقر : واد بين أخيلة حمى الربذة ــ وسقط الصريمة ، منتهاها ــ والصريمة الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر

بنى مخزوم ، يتحدثون وهم جلوس ، وقد فرَعهم طولاً ، وجهَرَهم جمالاً وبهرهم بياناً ، فمالت اليهم ، ونزلت فأطالت معهم الحديث. ولم تنصرف حتى ظفرت بقلب ذلك الشاعر الجميل . ولم يزل يتردد اليها إلى أن انقضت أيام الحج فرحلت الى الشام . وفيها يقول

تأوَّب ليلى بنصب وهمّْ ... وعاودت ذكرى لأُم الحكم (١)
فبتّ أراقب ليل التما ... م ، من نام من عاشق لم أنم
فإما ترينى على ما عرا ... ضعيف القيام شديد السقَم
كثير التقلُّب فوق الفرا ... ش ما إن تُقل قيامى قدم
بآنسةٍ طيِّب نشْرُها ... هضيم الحشا عذبة المبتَسَم (٢)

وفى هذه الحوادث التى سقناها غنًى لمن أراد أن يُقدِّر إلى أى حد كان ابن أبى ربيعة يتلمّس أسباب الهوى ويترقب مواسم الجمال ، وفى هذه الحياة المرِحة ، الحافلة بفُرص اللهو ومُتَع الشباب ، قال ذلك الشعر الحيّ الذى يوقظ غافيات المنى وهاجعات الاهواء . فلننتقل الى الحديث عن طائفة من معشوقاته بشىء من التفصيل ليتم لنا ما أردنا من عرض الظروف التى قضت بأن يقف حياته على الحب ، وشعره على النساء (٣)

(١) النصب بالفتح والضم : الشر — (٢) النشر الرائحة — وهضيم الحشا : ضامرة البطن (٣) أهم مرجع لهذا الفصل هو الجزء الاول من كتاب الاغانى

عائشة بنت طلحة

أهم قصيدة رُوِيت لعمر بن أبى ربيعة هى رائيته التى فضّله بها القدماء على جميل ، ومن الواضح ان أولى معشوقاته بالفضل عليه هى تلك الجميله التى أوحت اليه بتلك القصيدة ، وما كانت تلك الحسناء فيما نظن الا عائشة بنت طلحة التى اجمع أهل عصرها على تفردها بروعة الجمال . يدلُّ علي ذلك ماأشرنا اليه فيما سلف من انها سهرت ليلة لهمّ ألم بها فقالت : إن ابن أبى ربيعة لجاهل بليلتى هذه حيث يقول :

وأعجبها من عيشها ظل غرفة ... وريّان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شىء يهمها ... فليست لشىء آخر الليل تسهر

ولو لم يعنها بهذه الاشارة لما رجّعتها حين قهرها الحزن فى هدأة الليل . فلنقف قليلا عند ذكرى هذه الفاتنة التى أثارت قلبه ، وأضرمت إحساسه ، ففتحت له باب الخلود (١)

* * *

(١) يستبعد أستاذنا الدكتور طه حسين أن يكون عمر قال هذه القصيدة في عائشة . ويرى أن استئناسها بشعره لا يزيد عن أنه تمثل . وحوادث القصيدة

وإنه ليكفى أن نتحدث عن جمالها ، وأخلاقها ، وعقلها ، وجاهها ، وأخبارها مع الحارث بن خالد المخزومى ، وحوادثها مع شاعرنا المحظوظ

جمالها

أما جمالها فقد كان فتنة لكل من سمع بها أو رآها من أهل ذلك الزمان . وانهم ليذكرون انها صارمت زوجها وخرجت من دارها غَضْبى فمرت فى المسجد وعليها ملحفة تريد عائشة ام المؤمنين فرآها أبو هريرة فقال : سبحان الله ، كأنها من الحُور العين ! ورُوِى أنها نازعت زوجها إليه فوقع خمارها عن وجهها فقال : سبحان الله ! ما أحسن ماغذاك اهلك ، لكأنما خرجت من الجنة ! وقال لها يوما : مارأيت شيئا أحسن منك الا معاوية اول يوم خطب على منبر رسول الله . فقالت : والله لأنا أحسن من النار فى الليلة القرة فى عين المقرور ! وقد حدثت احدى الوصائف انها زارتها فرأت عجيزتها من خلفها وهى جالسة كأنها غيرها . قالت : فوضعت إصبعى عليها لأعلم ماهى . فلما وجدت مسّ أصبعي

تبعد أيضا أن يكون قالها في عائشة . فسيرى القارىء انها كانت عفيفة مصونة . غير أنه لاينبغى أن ننسى أنه لم يلتزم تصوير الواقع في شعره فلا يبعد أن تكون هذه القصيدة من وحيها وان لم يكن لها من حوادثها نصيب . وسنعود الى الكلام عمن قيلت فيها هذه القصيدة بعد فصول

قالت : ما هذا ؟ قلت : جعلت فِداءك لم أدر ما هو فجئت لأنظر ! فضحكت وقالت : ما أكثر من يَعجب مما عجبتِ منه !

قال سالم بن قتيبة : رأيت عائشة بنت طلحة بمنًى أو مسجد الخيف فسألتنى من أنت ؟ قلت : سالم بن قتيبة . قالت رحم الله مصعبا . ثم ذهبت تقوم ومعها امرأتان تَنْهضانها فأعجزتها أليتاها من عظمها فقالت إنِّى بكما لَمُعنّاة ! فذكرت قول الحارث :

وتَنُوءُ تُثقلها عجيزتها نهضَ الضعيف يَنوء بالوسْق (١)

وروى صاحب الأغانى أنه كان بالمدينة امرأة حسناء ، تسمَّى عزة الميلاء ، يألفها الاشراف وغيرهم من أهل المروآت ، وكانت من أظرف الناس وأعلمهم بأمور النساء . فأتاها مصعب بن الزبير وعبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى بكر وسعيد بن العاص فقالوا : إنا خطبنا فانظرى لنا . فقالت لمصعب : يا ابن أبى عبد الله ، ومن خطبت ؟ فقال : عائشة بنت طلحة . فقالت : وأين أنت يا ابن أبى أحيحة ؟ قال : عائشة بنت عثمان . قالت : فأنت يا ابن الصِّدِّيق ؟ قال : ام القاسم بنت زكريا ابن طلحة . قالت : يا جارية ! هاتى مِنقلىّ تعنى خُفيها فلبستهما

(١) الوسق : الحمل

وخرجت ومعها خادم لها ، فاذا هى بجماعة يزحم بعضهم بعضاً ، فقالت يا جارية انظرى ما هذا ، فنظرت ثم رجعت . فقالت امرأة أخذت مع رجل ، فقالت داء قديم ! امضى ويلك ! فبدأت بعائشة بنت طلحة فقالت : فديتك ، كنا فى مأدُبة أو مأتم لقريش فتذاكروا جمال النساء وخلقهن ، فذكروك فلم أدر كيف أصفك فديتك ، فألقى ثيابك ، ففعلتْ . فأقبلتْ ، وأدبرتْ ، فارتجّ كل شىء منها ، فقالت لها عزة : خذى ثوبك فديتك ! فقالت عائشة قد قضيت حاجتك وبقيت حاجتى قالت عزة : وما هى بنفسى أنت ؟ قالت : تغنينى صوتاً ، فاندفعت تغنى لحنها فى شعر جميل

خليلىّ عُوجا بالمحلة من جُمْلِ ... وأترابها بين الأُصيفر والخبلِ
نقفْ بمغانٍ قد محا رسمها البِلى ... تُعاقبُها الأيام بالريح والوبْلِ [1]
فلو درج النمل الصِّغار بجلدها ... لأندب أعلى جلدها متدرج النمل [2]
وأحسن خلق الله جيداً ومقلةً ... تُشبّه في النسوان بالشادنِ الطفلِ

فقامت عائشة فقبلت ما بين عينيها ودعت لها بعشرة أثواب وبطرائف من أنواع الفضة وغير ذلك ، فدفعته إلى مولاتها فحملته ، وأتت النسوة على مثل ذلك تقول ذلك لهن حتى أتت القوم فى السقيفة

(١) تعاقبها الايام : تختلف عليها (٢) أندبه : أثر فيه

فقالوا : ماصنعت ؟ فقالت يا ابن أبى عبد الله ، أما عائشة فلا والله إن رأيت مثلها مقبلةً ومُدبرةً ، محطوطة المتنين [1] ، عظيمة العجيزة ، ممتلئة الترائب ، نقية الثغر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر ، لفاء الفخذين ممتلئة الصدر ، خميصة البطن ، ذات عُكَن [2] ، ضخمة السُّرة ، مَسْرُولَة الساق [3] ، يرتج مابين أعلاها إلى قدميها ، وفيها عيبان : أما أحدهما فيواريه الخمار ، وأما الآخر فيواريه الخف : عظم القدم والأذن . وكانت عائشة كذلك — ثم قالت عزة : وأما أنت يا ابن أبى أحيحة فانى والله ما رأيت مثل خلق عائشة بنت عثمان لامرأة قط ، ليس فيها عيب ، والله لكأنما أُفرغت افراغا [4] ، ولكن فى الوجه ردة ، وان استشرتنى أشرت عليك بوجه تستأنس به ، وما أنت يا ابن الصِّدِّيق فوالله ما رأيت مثل أم القاسم ، كأنها خوط بانة ، تتثنى وكأنها جَدْل عنان ، أوكأنها خَشف يتثنّى على رمل . لوشئت أن تعقد أطرافها لفعلت . ولكنها شختة الصدر [5] وأنت عريض الصدر ، فاذا كان

(١) محطوطة المتنين : تريدأنها ناعمة ملساء (٢) جمع عكنة بالضم وهى ماانطوى وتثنى في لحم البطن (٣) مسرولة : بيضاء ، ويقولون فرس مسرول اذا جاوز بياض تحجيله العضدين والفخذين (٤) أفرغت افراغا : صبت صباً
(٥) الشخت : الدقيق

ذلك كان قبيحا . لا والله حتى يملأ كل شيء مثله !

وقد آثرنا إثبات هذا الحديث لنُرِيَ القارئ صورةً من تلك الحياة اللّينة التى كان يحياها شباب الحجاز ، ولنريه كيف كانت عائشة بنت طلحة فى أعين الخبيرات من النساء ، فان المرأة أعرف بالمرأة ، وأبصر من الرجل بسرائر الحسن المكنون

وعلى ذكر مصعب وعزة نقول إن عائشة دعت يوما نسوة من قريش ، فلما جئنها أجلستهن فى مجلس قد نضد فيه الريحان والفواكه والطيب المجمَّر وخلعت على كل منهن خلعة تامة من الوشى والخز ونحوهما ، ودعت عزة الميلاء ففعلت بها مثل ذلك وأضعفت ، ثم قالت لعزة : هاتى ياعزة فغنينا . فغنتهن فى شعر امرئ القيس :

وثغرٍ أغرَّ شنيب النبات لذيذ المقبَّل والمبتسَم[1]

وما ذقته غير ظنٍّ به وبالظن يقضى عليك الحكم

وكان مصعب قريبا منهن ومعه اخوان له ، فقام فانتقل حتى دنا منهن والستور مُسبَلَة ، فصاح : ياهذه ، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت ، فبارك الله فيك ياعزة ! ثم أرسل إلى عائشة : أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك ، وأما عزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا

(١) شنيب : فيه شنب بالتحريك وهو الرقة والبرد والصفاء

الصوت ، ثم تعود اليك ، ففعلت وخرجت عزة إليه فغنته هذا الصوت مراراً ، وكاد مصعب أن يذهب عقله فرحاً ، ثم قال لها : ياعزة ! إنك لتحسنين القول والوصف ![1]

وكانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من أحد ، فعاتبها مصعب فى ذلك . فقالت : ان الله تبارك وتعالى وسَمَنى بِميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله مافىَّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد

وكانت بجمالها باغيةً ظالمة ، تكلَّف بالكيد لأترابها من شهيرات النساء . فقد ذكروا أن رملة بنت عبد الله قالت لمولاة لعائشة بنت طلحة : أرينى عائشة متجردة ولك ألفا درهم . فأخبرت عائشة بذلك . قالت : فانى أتجرد فأعلميها ولا تعرِّفيها انى أعلم ، فقامت

(١) كانت عزة من أجمل النساء وجها وأحسنهن جسما ؛ وسميت الميلاء لتمايل في مشيتها . وقيل بل كانت تلبس الملاءة وتشبه بالرجال فسميت بذلك ، كما كانت تفعل في عصرنا أم كلثوم حرسها الله ؛ وقيل : بل كانت مغرمة بالشراب ؛ وكانت تقول : خذ ملئاً واردد فارغا . قال أبو الفرج : والصحيح أنها سميت الميلاء لميلها في مشيتها . وقد غنت يوما عمر بن أبي ربيعة لحناً لها في شيء من شعره فشق ثيابه وصاح صيحة عظيمة صعق معها . فلما أفاق قال له القوم : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب ! فقال إني سمعت والله مالم أملك معه نفسي ولا عقلي

عائشة كأنها تغتسل ، وأعلمتها ، فأشرفت عليها مُقْبلةً ومُدْبرة ، فأعطت رملة لمولاتها ألفي درهم . وقالت لوددت أني أعطيتك أربعة آلاف درهم ولم أرها !! قال صاحب الأغاني : وكانت رملة قد أسنّت ، وكانت حسنة الجسم ، قبيحة الوجه ، عظيمة الأنف ، وفيها وفي عائشة يقول الشاعر :

أنْعم بعائش عيشاً غير ذي رَنَق وانبذ برملةَ نبذَ الجورب الخلق

وكانت عائشة بنت طلحة تنافس بالحُسن سُكينة بنت الحسين . قالت لها يوماً سكينة : أنا أجمل منك . قالت عائشة : بل أنا ! فاختصمتا إلى عمر بن أبي ربيعة . فقال : لأقْضينّ بينكما ، أما أنت ياسكينة فأملح منها ، وأما أنت ياعائشة فأجمل منها . فقالت سكينة : قضيت لي والله ! ومن هنا نعرف أنهم كانوا يؤثرون الملاحة على الجمال

* * *

أخلاقها

وأما أخلاقها فكان أظهرها العفة ، والشراسة ، واللؤم ، وحدّة الشهوة

كانت عفيفة فلم يستطع أحد من طُغاة الفتيان والأمراء أن يطمع

منها في كثير من الإثم أو قليل . ولم يجد أترابها مغمزاً ينلنها منه حين يجدُّ الشَّغَب ويطول اللّجاج ، وكانت في عفتها وصيانتها خَنِثَةَ غَنِجَة تُوَاتي الزوج بأطيب ما تستطيع المرأة العَرُوب من غرائب الدلال تموت وتحيا بالضجيع وتلتوى بمضطرب المتنين منبتر الخصر

وهي التي تقول وقد لامتها إحدى صواحباتها حين سمعتها تتقتّل تحت عمر بن عبيد الله : إنا نتشهّ لهذه الفحول بكل ما حرّكها وكل ماقدرنا عليه !

وكانت شرِسة لا يقدر عليها الزوج إلاّ بالتّلاحي والضرب ، ولها في هذا الباب أخبار تُروي للتفكه والمزاح . فمن ذلك أنها قالت لمصعب أنت عليّ كظهر أمي ، وقعدت في غرفة وهيأت فيها مايصلحها ، فجهد مصعب أن تكلمه فأبت . فبعث إليها ابن قيس الرقيات فسألها كلامه . فقالت : كيف بيميني ؟ فقال هاهنا الشعبي ففيه أهل العراق ، فاستفتيه فدخل عليها فأخبرته ، فقال : ليس هذا بشيء ! فقالت : أتُحلِّني وتخرج خائبا ، وأمرت له بأربعة آلاف درهم

وغضبت يوماً على مصعب ، وكانت من أحب الناس إليه ، فشكا ذلك إلى أشعب ، فقال : مالي إن رضيَتْ ؟ قال : حكمك ! قال : عشرة آلاف درهم . قال : هي لك . فانطلق حتى أتى عائشة فقال :

جُعِلت فِداءكِ ! قد علمت حبي لك ، وميلي قديماً وحديثاً إليك ، من غير مَنالةٍ ولا فائدة ، وهـذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقي ، وترتهنين بها شكري .

قالت : وما عَناكَ ؟ قال : قد جعل لي الأمير عشرة آلاف درهم إن رضيت عنه . قالت : ويحك ! لايمكنني ذلك .

قال : بأبي أنت فارضي عنه حتى يعطيني . ثم عودي إلى ما عوّدك الله من سوء الخلق ! فضحكت منه ورضيت عن مصعب

وروى صاحب الأغاني أن مُصعبا شكاها إلى ابن أبي فروة كاتبه ، فقال له : أنا أكفيك هذا إن أذنت لي . قال نعم افعل ماشئت فانها أفضل شيء نلته من الدنيا . فأتاها ليلاً ومعه أسودان ، فاستأذن عليها ، فقالت له : أفي مثل هذه الساعة ؟ قال نعم . فأدخلته ، فقال للأسودين احفرا هاهنا بئرا . فقالت له جاريتها : وما تصنع بالبئر ؟ قال شؤم مولاتك ! أمرني هـذا الفاجر أن أدفنها حية وهو أسْفَكُ خلق الله لدم حرام . فقالت عائشة : فأنظرني أذهب اليه . قال : هيهات لاسبيل إلى ذلك ! وقال للأسودين : احفرا . فلما رأت الجد منه بكت . ثم قالت : يا ابن أبي فروة ، انك لقاتلي مامنه بد ؟ قال نعم ، وانى لا علم أن الله سيجزيه بعدك ، ولكنه قد غضب ، وهو

كافر الغضب ، قالت : وفي أيّ شيء غضبه ؟ قال : في امتناعك عنه ، وقد ظن انك تبغضينه وتتطلّعين الى غيره ، فقد جُنَّ . فقالت : أنشدك الله إلا عاودته ! قال : انى أخاف أن يقتلني . فبكت وبكى جواريها . فقال : قد رققت لك . وحلف أنه يغرِّر بنفسه ، ثم قال لها : فما أقول ؟ قالت : تضمن عني أن لا أعود أبداً ! قال فمالي عندك ؟ قالت قيام بحقك ماعشت . قال فأعطيني المواثيق ، فأعطته . فقال للأسودين : مكانكما وأتى مصعبا فأخبره ، فقال له : استوثق منها بالأيمان ، ففعلت ، وصلحت بعد ذلك لمصعب بفضل ذلك الدرس البديع !

وكان لها مع هذه الشراسة لحظات تصفو فيها وتطيب . فقد صارمت مصعباً مرة وطالت مصارمتها له حتى شق ذلك عليها وعليه ، وكانت لمصعب حرب فخرج إليها ثم عاد وقد ظفر ، فشكت عائشة مصارمته الى مولاة لها فقالت : الآن يصلح أن تخرجي إليه ، فخرجت تمسح التراب عن وجهه . فقال لها مصعب : انى أشفق عليك من رائحة الحديد . فقالت : لَهو والله عندي أطيب من ريح المسك الأذفر !

ومن أظرف اللحظات التي طابت فيها نفس تلك الحسناء الظلوم ماحدّث به ابن سلام إذ قال : حجت عائشة بنت طلحة

فجاءتها الثريا وأخواتها ونساء أهل مكة القرشيات وغيرهن ، وكان الغريض فيمن جاء ، فدخل النسوة عليها فأمرت لهن بكسوة وألطاف كانت قد أعدتها لمن يجيئها ، فجعلت تخرج كل واحدة ومعها جاريتها ومعها ما أمرت لها به عائشة ، والغريض بالباب حتى خرج مولياته مع جواريهن الخلع والألطاف ، فقال الغريض : فأين نصيبي من عائشة فقلن له : أغفلناك وذهبت عن قلوبنا . فقال : ما أنا ببارح من بابها أو آخذ بحظي منها فانها كريمة بنت كرام ، واندفع يغنى بشعر جميل

تذكرت ليلى فالفؤاد عميدُ وشطت نواها فالمزار بعيدُ

فقالت : ويلكم ! هذا مولى العبَلات بالباب يذكر بنفسه [1] ، هاتوه ، فدخل . فلما رأته ضحكت وقالت : لم أعلم بمكانك ، ثم دعت له بأشياء أمرت له بها ، ثم قالت له : إن أنت غنيتنى صوتاً فى نفسى فلك كذا وكذا ، شيء سمته له ذهب عن ابن سلام ، قال فغناها فى شعر كُثيِّر

وما زلت من ليلَى لَدُنْ طَرَّ شاربى
إلى اليوم أُخفى حبها وأُداجنُ [2]

(١) العبلات : نسبة الى امهم عبلة بنت عبيد (يراجع نسبهم في الجزء العاشر من الاغانى ص ١٠٣، ١٠٤) (٢) أداجن : أداهن

وأحمل فى ليلَى لقوم ضغينةً وتُحملُ فى ليلَى علىَّ الضغائن

فقالت له : ما عدوت ما فى نفسى ، ووصلته فأجزلت

ولهذين البيتين حديث ذكره الشعبى إذ قال : دخلت المسجد فاذا أنا بمصعب بن الزبير على سرير جالس والناس عنده ، فسلمت ثم ذهبت لأنصرف ، فقال لى : ادن . فدنوت حتى وضعت يدى على مرافقه ، ثم قال : إذا قمتُ فاتبعنى ، فجلس قليلا ثم نهض ، فتوجه نحو دار موسى بن طلحة فتبعته ، فلما طعن فى الدار التفت إلىَّ فقال : ادخل فدخلت معه ومضى نحو حجرته وتبعته ، فالتفت إلىَّ فقال : ادخل . فدخلت معه فاذا حَجلَة ، وإنها لأول حجلة رأيتها لأمير [1] فقام ودخل الحجلة ، فسمعت حركة ، فكرهت الجلوس ، ولم يأمرنى بالانصراف ، فاذا جارية قد خرجت فقالت : يا شعبى إن الأمير يأمرك أن تجلس ، فجلست على وسادة ، ورُفع سجف الحجلة فاذا أنا بمصعب ابن الزبير ، ورفع السجف الآخر فاذا أنا بعائشة بنت طلحة . قال : فلم أر زوجاً قط كان أجمل منهما : مصعب وعائشة . فقال مصعب : ياشعبى هل تعرف هذه ؟ فقلت نعم أصلح الله الأمير ، قال : ومن هى ؟ قلت

(١) الحجلة : موضع يزين بالثياب والستور للعروس

سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة . قال : لا . ولكن هذه ليلى الذى يقول فيها الشاعر

وما زلت من ليلى لدن طرّ شاربى

وذكر البيتين ، ثم قال : إذا شئت فقم ، فلما كان العَشِيُّ رحت وإذا هو جالس على سريره فى المسجد ، فسلمت فلما رآنى قال لى . ادن . فدنوت حتى وضعت يدى على مرافقه ، فأصغى إلىّ فقال : هل رأيت مثل ذلك الانسان قط ؟ قلت : لا والله ! قال : أفتدرى لِمَ أدخلناك ؟ قلت : لا ! قال : لتحدث بما رأيت ! ثم التفت إلى عبد الله ابن أبى فروة فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ، وثلاثين ثوباً . قال : فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم ، وبمثل كارة القصاب ثياباً ، وبنظرة من عائشة بنت طلحة !

وهذه النظرة من عائشة بنت طلحة لها موقعها الخاص ، فسنرى كيف يقول الغريض مثل هذا أيضاً حين يحمل اليها كتاب الحارث ابن خالد المخزومى ، وما كان أحرصهم على انتهاب ذلك الوجه المشرق الفصيح !

وكانت لئيمة تصرُّ على العنف ، وتبيِّت العدوان ، يؤيد هذا ما كان بينها وبين زوجها الأول ، إذ مات وهى عنده فلم تفتح فاها عليه

بالرغم من أنه كان ابن خالها ، وأنها تزوجته برأى خالتها عائشة أم المؤمنين فقد كانت أم عائشة بنت طلحة أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق ، وزوجها هذا هو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر . وكان صاحب الفضل عليها إذ لم تلد من أحد من أزواجها سواه : ولدت له عمران وبه كانت تكنى [1] ، وعبد الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة . وكان ابنها طلحة من أجواد قريش ، وله يقول الحزين الدُّؤلى

فان تك يا طلح أعطيتنى عُذَافرةً تستخف العفارا [2]
فما كان نفعك لى مرةً ولا مرتين ولكن مرارا
أبوك الذى صدق المصطفى وسار مع المصطفى حيث سارا
وأمك بيضاء تيميةٌ إذا نسب الناس كانوا نُضارا [3]

وكان ذلك الزوج المنجب يضارُّها وتضارُّه ، لولا أنه كان أطيب منها قلباً وأكرم نحيزة [4] ، قيل له طلِّقها فقال :

---

(١) وبهذه الكنية يخاطبها الحارث بن خالد المخزومى اذ يقول :

يا أم عمران ما زالت وما برحت بنا الصبابة حتى مسنا الشفق
القلب تاق اليكم كى يلاقيكم كما يتوق الى منجاته الغرق
توفيك شيئاً قليلا وهى خائفة كما يمس بظهر الجيفة الفرق

(٢) العذافرة : العظيمة الشديدة من الابل . والمذكر عذافر ، وهو ايضا الاسد

(٣) تيمية : منسوبة الى تيم ، والمراد هنا تيم بن مرة رهط أبى بكر الصديق ـ والنضار بالضم الجوهر الخالص من التبر (٤) النحيزة : الطبيعة

يقولون طلقها لأصبح ثاوياً مقيماً علىّ الهم أحلام نائم
وإن فراقى أهل بيت أحبهم لهم زُلْفةٌ عندى لاحدى العظائم

ومن حديث لؤمها أن مصعباً دخل عليها مرة وهى نائمة متصبِّحة ومعه ثمان لؤلؤات قيمتها عشرون الف دينار فأنبهها ونثر اللؤلؤ فى حجرها فقالت له : نومتى كانت أحب إلىّ من هذا اللؤلؤ

وتزوجت بعد مصعب عمر بن عبيدالله ، وكان من أشد الناس غيرة فكانت تسرف فى الحديث عن مصعب وعن جماله لتغيظه بذلك . دخل عليها يوماً وقد ناله حر شديد وغبار ، فقال لها : انفضى التراب عنى . فأخذت منديلا تنفض به عنه التراب ، ثم قالت له : ما رأيت الغبار على وجه أحد قط كان أحسن منه على وجه مصعب . فكاد عمر يموت غيظا

وكانت تكون لمن يجىء يحدثها فى رقيق الثياب ، فاذا قالوا : قد جاء الأمير ، ضمَّت عليها مطرفها وقطبت ، عِناداً ولؤماً ، وكذلك نساء بنى تميم فيما قيل : هُنَّ أشرس خلق الله وأحظى عند أزواجهن ، وكانت عند الحسين بن على أم اسحق بنت طلحة فكان يقول : والله لربما حملت ووضعت وهى مصارمة لى لا تكلمنى

وكانت حادة الشهوة يتقدم اليها خاطبوها تصريحاً وتلميحاً بما

عندهم فى ذلك من غَناءٍ ، ولها فى هذا الباب أخبار لا نرى من الخير أن نُبدىء فيها ونُعيد ، إذ كانت لا تخرج عما هو معروف من شَرَه الطبائع النسائية ، وحرصها على ما فى أصلاب الرجال

وهنا لا نرى بداً من الاشارة إلى ما يَبْدَه المولع بتاريخ ذلك العصر من خولة الرجال ، وأنوثة النساء ، وذلك عندى هو سِرُّ تلك القوة التى استطاع بها العرب أن يسودوا العالم ، وأن يخضعوه لسلطانهم فى زمن قليل ، وخولة الرجال ظاهرة غالبة فى عهد بنى أمية ، والصدر الأول من عهد بنى العباس ، فلا تكاد ترى رجلا ظاهراً إلا مصحوباً بسيرة مِلؤُها الفتك وقِوَامها الاسراف .

ويكاد يكون عصر بنى أمية هو العصر الذى قَوِى فيه سلطان المرأة ، وذلّ الرجل على بطشه وبأسه لما فى ضعفها من القوة والجبروت ، ويندر أن تجد شاعراً يحس خطر المرأة ويلامسه كما فعل ابن قيس الرقيات إذ يقول فى خطاب عائشة بنت طلحة

عجباً لمثلكِ لا يكون لهُ خَرْج العراق ومِنبر المُلْكِ

* * *

عقلها

كانت عائشة بنت طلحة حاضرة البديهة رائعة النكتة ، فى مكر وخبث . أصاب منها عمر بن عبيد الله يوماً طِيب نفس فقال : ما مرّ بى مثل يوم أبى فُدَيْك[1] : فقالت له : أُعدد أيامك واذكر أفضلها . فعدّ يوم سجستان ويوم قطرى بفارس ونحو ذلك . فقالت عائشة قد تركت يوماً لم تكن فى أيامك أشجع منك فيه ! قال : وأى يوم ؟ قالت : يوم أرخت عليها وعليك رملة السِّتر ! [2] ترميها بقبيح الوجه . وروى أنها حجت فوفدت على هشام فقال لها : ما أوفدكِ ؟ قالت : حبست السماء المطر ، ومنع السلطان الحق ، قال فانى أصل رحمك وأعرف حقك ، ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية فقال : إن عائشة عندى ، فاسمروا عندى الليلة فحضروا ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا غار إلا سمّته ، فقال لها هشام : أما الاول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت أخذتها عن خالتى عائشة ، فأمر لها بمائة ألف درهم ، وردها إلى المدينة

* * *

(١) هو عبدالله بن ثور أحد رءوس الخوارج (٢) كذلك روى الاغانى في الجزء العاشر في أخبار عائشة وعبارته في الجزء الاول (يوم اجتليت رملة وأقدمت على وجهها وأنفها)

مآثرها

وكانت عائشة بنت طلحة فى بسطة من المال يحسب حسابها الأمراء ، ونساء الطبقة العالية من قريش . حجت مرة مع سكينة بنت الحسين ، وكانت عائشة أحسن آلة وثِقلا ، فقال حاديها :

عائش يا ذات البغال الستين لازلت ما عشت كذا تحجين

فشقّ ذلك على سكينة ونزل حاديها فقال

عائش هذه ضرةٌ تشكوكِ لولا أبوها ما اهتدى أبوكِ

فأمرت عائشة حاديها أن يكف ، فكف

واستأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك فى الحج ، فأذن لها وقال : ارفعى حوائجك واستظهرى فان عائشة بنت طلحة تحج ، ففعلت وجاءت بهيئة جهدت فيها ، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ! فسألت عنها فقالوا : هذه خازنتها . ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة ! عائشة ! فضغطهم فسألت عنه فقالوا : هذه ماشطتها ! ثم جاءت مواكب على هذا السنن ، ثم أقبلت كوكبة فيها

ثلثمائة راحلة عليها القباب والهوادج ، فقالت عاتكة : ما عند الله خيرٌ وأبقى ! !

ومن دلائل جاهها وعقلها ما ذكروا أنها لما تأيمت كانت تقيم بمكة سنة ، وبالمدينة سنة ، وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف ، وقصر كان لها هناك ، فتتنزه فيه وتجلس بالعشيات ، فيتناضل بين يديها الرماة ، فمر بها النميرى الشاعر فسألت عنه فنسب لها . فقالت ائتونى به ، فأتوها به ، فقالت له أنشدنى مما قلت فى زينب ، فامتنع عليها وقال : تلك ابنة عمى وقد صارت عظاماً بالية ، قالت : أقسمت عليك بالله إلا فعلت ، فأنشدها قوله

تضوّع طِيباً بطن نَعمان إذْ مشت ... به زينبٌ فى نسوة عطراتِ [1]

فأصبح ما بين الهماء فصاعدا

إلى الجزع جزع الماءذى العشرات [2]

له أرجٌ من مُجمْر الهند ساطعٌ ... تَطَلَّع رياه من الكفراتِ [3]

أعان الذى فوق السموات عرشه ... موائس بالبطحاء مؤتجرات [4]

(١) هى زينب بنت يوسف أخت الحجاج (٢) الهماء : اسم موضع ـ والعشرات جمع عشر كصرد وهو شجر فيه مرارة تحشى به المخاد كما فى القاموس

(٣) المجمر هو الطيب يوضع على الجمر ـ والريا : الرائحة ـ والكفرات : الثياب

(٤) مؤتجرات : طالبات للاجر أو متصدقات

مررن بفخٍّ ثم رُحن عشيةً ... يلبِّين للرحمن معتجرات [1]

يُخبِّئن أطراف البنان من التقى ... ويقتلن بالألحاظ معتذرات

تقسّمن لُبّى يوم نعمان إننى ... رأيت فؤادى عادم النظرات

جلون وجوهاً لم تلُحها سمائمٌ ... حرورٌ ولم يُسعفن بالسبَرات [2]

فقلت يعافيرُ الظباء تناولت ... يَنَاع غصون الورد مهتصِرات [3]

ولما رأت ركب النميرى أعرضت ... وكن من أن يلقينه حذرات [4]

دعت نسوة شُمّ العرانين بُذّلاً ... نواعم لا شعثاً ولا غبرات [5]

(١) معتجرات : مختمرات بالمعاجر جمع معجر كمنبر . وهو ثوب تعتجر به المرأة أى تلتف به ـ فخ : واد بمكة . قال بلال :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بفخ وعندى إذخر وجليل

(٢) السمائم جمع سموم وهى الريح الحارة تكون غالبا بالنهار ـ والسبرات جمع سبرة بالفتح وهى الغداة الباردة (٣) اليعافير جمع يعفور وهو الظبى يشبه لونه التراب

(٤) لما أحضر الحجاج صاحب هذه القصيدة لعقابه على التشبيب بأخته قال له : كم كنتم اذ تقول :

ولما رأت ركب النميرى اعرضت

قال : والله ما كنت الا انا وصاحبى لى على حمار هزيل ! فضحك الحجاج وعفا عنه

(٥) شم العرانين : مرتفعات الانوف . وبزل جمع بازل وهو البعير يبلغ تسع سنين فتكمل قوته . والمراد وصف هؤلاء النسوة بانهن بلغن السن الذى ينقلن فيها القلب من حال الى حال

فأدنين حتى جاوز الركب دونها حجاباً من القَسّى والحبرات [1]
فكدت اشتياقاً نحوها وصبابة تقطّع نفسى إثرها حسرات
فراجعت نفسى والحفيظة بعد ما بللت رداء العصب بالعبرات [2]

فقالت والله ما قلت إلا جميلا ، ولا ذكرت إلا كرماً وطيباً ، ولا وصفت الا ديناً وتقى ، أعطوه الف درهم . فلما كانت الجمعة الاخرى تعرض لها ، فقالت علىّ به ، فأُحضر فقالت له : أنشدنى من شعرك فى زينب . فقال لها : أو أنشدك من شعر الحارث بن خالد فيك ، فوثب مواليها اليه ، فقالت : دعوه فانه أراد أن يستقيد لبنت عمه [3] : هات مما قال الحارث فىّ ، فأنشدها قوله

ظعَن الأمير بأحسن الخَلْقِ وغدوا بليلك مطلع الشرق
وتنوء تُثقلها عجيزتها نهْضَ الضعيفِ يَنُوءُ بالوسْقِ [4]
ماصبَّحت زوجاً بطلعتها إلا غدا بكواكب الطلق
قرشيّةٌ عبق العبير بها عبَق الدِّهان بجانب الحُقِّ
بيضاءُ من تيم كَلِفتُ بها هذا الجنون وليس بالعشق

فقالت : والله ماذكر إلا جميلا ، ذكر أنى إذا صبحت زوجا

(١) القسى : نوع من اللباس ينسب الى قرية مصرية بين العريش والفرماء تسمى القس
(٢) العصب ضرب من البرود (٣) يستفيد : ينتقم (٤) تنوء : تنهض . بهد ومشقة — والوسق : الحمل .

بوجهى غدا بكواكب الطلق ، وانى غدوت مع أمير تزوجنى إلى الشرق ، أعطوه ألف درهم ، واكسوه حلتين . ولا تعد لاتياننا بعد هذا يانميرى ! [1]

* * *

أخبارها مع الحارث بن خالد المخزومى

كان الحارث المخزومى — كما قال أبو الفرج الاصبهانى فى الجزء الثالث من أغانيه — أحد شعراء قريش المعدودين الغزِلين . وكان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة « رضى الله عنه ! » لايتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء . وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها [2] . ولاّه عبد الملك بن مروان مكة ، وكان ذا قدر وخطر ومنظر فى قريش . وسبب توليه مكة أن قومه بنى مخزوم كانوا كلهم زبيرية إلا هو فانه كان مروانيا ، فلما ولى عبد الملك الخلافة وفد عليه فى دَين كان عليه سنة ٧٥ ، وقيل بل حج عبد الملك فى تلك السنة فلما انصرف

(١) راجع أخبار النميرى فى الجزء السادس من الاغانى وص ١٥٨ ج ١ من زهر الآداب
(٢) فى زهر الاداب ج ١ ص ٢١٩ ان الحارث بن خالد لم يكن يعتقد شيئاً من ذلك ، وانما كان يقول النسيب تظرفا وتخلعا

رحل معه إلى دِمشق ، فظهرت له منه جفوة ، وأقام ببابه شهراً لا يصل إليه فانصرف عنه وقال فيه :

صحِبتُك إذ عيني عليها غشاوةٌ ... فلما انجلت قطّعت نفسي ألومُها
وما بي وإن أقصيتني من ضراعةٍ ... ولا افتقرت نفسي إلى من يضيمها
عطفت عليك النفس حتى كأنما ... بكفيك بؤسى أو عليك نعيمها

وبلغ عبد الملك خبره وأنشد الشعر فأرسل اليه من رَدّ طريقه . فلما دخل عليه قال له : حارِ ! أخبرني عنك ، هل رأيت عليك في المقام ببابي غضاضة ، أو في قصدي دناءة ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ! قال : فما حملك على ما قلت وفعلت ؟ قال جفوةٌ ظهرت لي ، كنت حقيقاً بغير هذا ! قال : فاختر : فان شئت أعطيتك ألف درهم ، أو قضيت دينك ، أو وليتك مكة سنة . فولاّها اياها ، فحج بالناس وحجت عائشة بنت طلحة عامئذ وكان يهواها فأرسلت اليه : أخر الصلاة حتى أفرغ من طوافي ! فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها . ثم أقيمت الصلاة فصلى بالناس ، وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه . فعزله ، وكتب إليه يؤنبه فيما فعل . فقال : ما أهون والله غضبه إذا رضيت ! والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة إلى الليل !

فلما قضت حجها أرسل إليها : يا ابنة عمي ! ألِمّي بنا وعدينا مجلساً نتحدث فيه . فقالت في غد أفعل ذلك . ثم رحلت من ليلتها ولم تلمّ به ، فقال :

ماضرّكم لو قلتمُ سَدَداً ... إن المطايا عاجلٌ غدُها
ولها علينا نعمةٌ سلفتْ ... لسنا على الأيام نجحدها
لو تمّمت أسباب نعمتها ... تمت بذلك عندنا يدها
إني وإياها كمفتتن ... بالنار تحرقه ويعبدها (١)

وقد حمل الغريض اليها هذه الأبيات في كتاب . فلما قرأته قالت : مايدع الحارث باطله ! ثم قالت للغريض : هل أحدثت شيئاً ؟ قال : نعم ، فاسمعي . ثم اندفع يغني الأبيات ، فقالت عائشة : والله ما قلنا إلا سددا ، ولا أردنا إلا أن نشترى لسانه . وأتى على الشعر كله ، فاستحسنته عائشة وأمرت له بخمسة آلاف درهم ، وأثواب . وقالت : زدني ! فغناها في قول الحارث بن خالد أيضا

زعموا بأن البين بعد غدٍ ... فالقلب مما أحدثوا يَجِفُ
والعين منذ أجدّ بينهمُ ... مثل الجمان دموعها تكِفُ
ومقالها ودموعها سُجُمٌ ... أقلل حنينك حين تنصرف

(١) لم يوجد هذا البيت في أخبار الحارث بن خالد في الاغاني وقد نقلناه عن زهر الاداب

تشكو ونشكو ما أشتّ بنا كلٌّ بوشك البين معترف[1]

فقالت له عائشة : ياغريض ! بحقى عليك : أهو أمرك أن تغنيني فى هذا الشعر ؟

فقال : لا ، وحياتك ياسيدتي ! فأمرَت له بخمسة آلاف درهم .

ثم قالت له غنى فى شعر غيره . فغناها بقول عمر بن أبي ربيعة :

أجمعتْ خُلّتى مع الفجر بينا جلَّل الله ذلك الوجه زينا

أجمعت بينها ولم نك منها لذة العيش والشباب قضينا

فتولّت حمُولها واستقلت لم نذل طائلا ولم نقض دينا[2]

ولقد قلت يوم مكة لما أرسلت تقرأ السلام علينا

(١) كذلك نسبت هذه الأبيات إلى الحارث بن خالد في الجزء الثالث من الاغانى ص ١٠٤ ولكنها نسبت الى عمر بن ابى ربيعة بشىء من التغيير في الجزء الاول ص ٢٤٣ وهى كذلك في ديوانه . ولكنها أطول مما روى الاغانى . ولنذكر بهذه المناسبة أن كثيرا من شعر الحجازيين أضيف الى ابن أبي ربيعة لغلبته عليهم . بل نقل صاحب الاغانى في الجزء السابع في أخبار جميلة أن كثيرا من شعر العرجى نسب الى شعر عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد ، وكان يتأثرها في مذاهب النسيب . وذكر في الجزء الثالث عشر في أخبار جعفر بن الزبير أن لهذا شعرا كثيرا نحل عمر بن أبي ربيعة بعضه ودخل في شعره ، وان كلمته التى مطلعها

هل في ادكار الحبيب من حرج أم هل لهم الفؤاد من فرج

من الناس من يرويها لعمر بن أبي ربيعة ومنهم من يرويها للاحوص ، ومنهم من يرويها للعرجى . وكل ذلك يدعونا الى الاحتياط عند دراسة الأدب القديم

(٢) الحمول . الهوادج ، كانت فيها نساء أو لم تكن

أنْعَم الله بالرسول الذى أُر سل والمُرسِل الرسالة عَينا

فضحكت ثم قالت : وأنت ياغريض ، فأنعم الله بك عينا ، وأنعم ابن أبى ربيعة عينا ! لقد تلطّفت حتى أديت رسالته ، وان وفاءك له لما يزيدنا رغبةً فيك ، وثقةً بك

وقد كان عمر سأل الغريض أن يغنيها هذا الصوت لأنه قد كان ترك ذكرها لما غضبت بنو تميم من ذلك ، فلم يحب التصريح بها ، وكره اغفال ذكرها ، وقال له عمر : ان أبلغتها هذه الأبيات فى غناء فلك خمسة آلاف درهم ، فوفى له بذلك وأمرت له عائشة بخمسة آلاف أخرى

ثم انصرف الغريض من عندها فلقى عاتكة بنت يزيد بن معاوية امرأة عبد الملك بن مروان ، وكانت قد حجت فى تلك السنة فقال لها جواريها : هذا الغريض ! فقالت لهن : علىّ به ! فجئن به إليها . قال الغريض : فلما دخلت سلّمت ، فردت علىّ وسألتنى عن الخبر ، فقصصته عليها ، فقالت : غنّى بما غنيتها به ، ففعلت ، فلم أرها تهش لذلك . فغنيتها معرضا لها ومذكرا بنفسي فى شعر مُرة بن محكان يخاطب امرأته وقد نزل به أضياف :

أقول والضيف مخشيٌّ ذَمَامتُه

على الكريم وحق الضيف قد وجبا[1]

يا ربة البيت قومى غير صاغرةٍ

ضمِّى اليك رحال القوم والقُرُبا[2]

فى ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر الكلب فى ظلمائها الطُّنُبا[3]

لا ينبح الكلب فيها غير واحدةٍ حتى يلفّ على خيشومه الذّنبا

فقالت وهى مبتسمة : قد وجب حقك ياغريض ، فغنني ، فغنيتها :

يادهر قد أكثرت فجعتنا بِسَرَاتنا ووقَرْت فى العظْم

وسلَبْتنا ما لست مُخْلِفَهُ يادهرُ ما انصفت فى الحكم

لو كان لى قِرنٌ أُناضلهُ ما طاش عند حفيظةٍ سَهمى

لو كان يعطي النصف قلت لهُ أحرزت سهمك فالهُ عن سهمى

فقالت : نعطيك النصف ، ولا نضيع سهمك عندنا ، ونجزل لك قسمك ، وأمرت لى بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية وغير ذلك من

(١) الذمامة : العهد . يريد أن عهد الضيف يشعر الرجل بالخشية من التفريط فيه

(٢) القرب : جمع قراب وهو الغمد (٣) الاندية : جمع ندى ، ومن معانيه المطر والبلل — والطنب حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد

الألطاف ، وأتيت الحارث بن خالد فأخبرته الخبر ، وقصصت عليه القصة . فأمر لى بمثل ما أمر تا لى به جميعاً ، فأتيت ابن ربيعة فأعلمته بما جرى فأمر لى بمثل ذلك ، فما انصرف احد من ذلك الموسم بمثل ما انصرفت به : بنظرة من عائشة ، ونظرة من عاتكة ، وهما من أجمل نساء عالمهما ، وبما أمرتا لى به ، وبالمنزلة عند الحارث وابن أبي ربيعة وما أجازانى به جميعاً من المال

وقدم المدينة قادمٌ من مكة ، فدخل على عائشة بنت طلحة فقالت له : من أين أقبل الرجل ؟ قال : من مكة . قالت : فما فعل الأعرابى ؟ فلم يفهم ما أرادت ، فلما عاد إلى مكة دخل على الحارث فقال له : من أين ؟ قال : من المدينة . قال : فهل دخلت على عائشة بنت طلحة ؟ قال : نعم . قال : فماذا سألتك ؟ قال : قالت لى ما فعل الاعرابى ؟ قال الحارث : فعُد اليها ولك هذه الراحلة والحلة ونفقتك لطريقك ، وادفع اليها هذه الرقعة ، وكتب إليها فيها :

من كان يسأل عنا أين منزلنا فالأقحوانة منا منزلٌ قَمِنُ

إذ نلبس العيش صفواً ما يكدرهُ طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن

ليت الهوى لم يقربنى إليك ولم

أعرفك إذ كان حظى منكم الحزَن

وكان لعائشة بنت طلحة أمة يقال لها بَشْرة كان يذكرها الحارث فى شعره يكنى بها عن سيدتها ، من ذلك قوله

يا ربع بشرة بالجنان تكلّم ... وأبِنْ لنا خبراً ولا تستعْجم
مالى رأيتك بعد أهلك موحشاً ... خلَقاً كحوض الدّارة المتهدّم
تسقى الضجيع إذا النجوم تغوّرت
طوع الضجيع أنيقة المُتوسَّم

وقوله

لبشرة أسرى الطيف والخَبتُ دونها
وما بيننا من حَزْن أرض وبيدها
وقرّت بها عينى وقد كنت قبلها ... كثيراً بكائى مشفقاً من صدودها
وبشرة خَودٌ مثل تمثال بيعةٍ ... تظلُّ النصارى حولها يوم عيدها

وقوله

يا ربع بشرة إن أضرَّ بك البلى ... فلقد عهدتك آهلا معمورا
ان يمس حبلك بعد طول تواصل ... خلقاً ويصبح بيتكم مهجورا
فلقد أرانى والجديد إلى بلى ... زمناً بوصلك قانعاً مسرورا
جَذِلا بما لى عندكم لا أبتغى ... للنفس غيرك خلة وعشيرا

كنت المنى وأعزّ من وطىء الحصى
عندى وكنت بذاك منك جديرا

ولما مات عمر بن عبيد الله عن عائشة بنت طلحة [1] وكانت قبله عند مصعب بن الزبير قيل للحارث بن خالد : ما يمنعك الآن منها ؟ قال : لا يتحدث والله رجال من قريش أن نسيبى بها كان لشىء من الباطل [2]

وما أدرى كيف رأى ذلك الشاعر الفحل أن النسيب لا يكون للحق إلا إذا خلا من مطامح القلب ، ومطامع النفس ، إن هي إلا كلمة رمى بها ليبرِّر صدوفه عن تلك الجنة العالية ، حين خبا وجده ، وتقطّعت بضلاله الأسباب ! !

* * *

ما كان بينها وبين عمر

رأى القارىء أن عائشة بنت طلحة كانت رفيقة بابن أبى ربيعة ، وأنها أنِست بالغريض لوفائه له ، وحرصه على تبليغ رسالته ، فلنذكر الآن أن عمر رآها لأول مرة فى الطواف ، وهى تريد الركن تستلمه ، فبهت

(١) هذه عبارة الاغانى . وعبارة زهر الاداب : فلما قتل عنها مصعب بن الزبير

(٢) عبارة زهر الاداب : انى لاكره أن يتوهم الناس على أنى كنت معتقدا لما اقول فيها ج ١ ص ٢١٩

لما رآها ، وكانت من أجمل من أظلت سماء الحجاز ، فلما علمت أنها وقعت فى نفسه بعثت اليه بجارية لها وقالت له . اتق الله ولا تقل هُجرا ، فان هذا مقام لابد فيه مما رأيت . فقال للجارية : أقرئيها السلام ، وقولى لها : إن ابن عمك لايقول إلا خيراً . وقال فيها

لعائشة ابنة التيمىّ عندى ... حِمًى فى القلب لايرعى حماها
يذكّرنى ابنة التيمىّ ظبىٌ ... يرود بروضة سهل رُباها
فقلت له وكاد يراع قلبى ... فلم أر قط كاليوم اشتباها
سوى حَمش بساقك مستبين ... وأن شواك لم يشبه شواها[1]
وأنك عاطل عارٍ وليست ... بعارية ولا عطل يداها
وأنك غير أفرع وهى تُدلى ... على المتنين أسحم قد كساها[2]
ولو قعدت ولم تكلف بودٍّ ... سوى ماقد كلفت به كفاها
أظل إذا أكلمها كأنى ... أكلم حيّةً غلبت رُقاها
تبيت إلىّ بعد النوم تسرى ... وقد أمسيت لا أخشى سُراها

وقال فيها أشعاراً كثيرة ، فبلغ ذلك فتيان بنى تميم ، أبلغهم إياه فتى منهم وقال لهم : يا بنى تيم بن مرة ! ليقذفنّ بنو مخزوم بناتنا بالعظائم ، فمشى ولد أبى بكر ، وولد طلحة بن عبيد الله إلى عمر بن

(١) الحمش : دقة الساقين — والشوى : الاطراف (٢) الافرع : طويل شعر الرأس

أبي ربيعة فأعلموه بذلك ، وأخبروه بما بلغهم . فقال لهم : والله لا أذكرها فى شعر أبداً ، ثم أخذ يكنى عن اسمها فى قصائده ، ويتلطف فى تبليغها ما يريد على أعواد المغنين وبأصوات الغناء ، فمن ذلك قصيدته التى مطلعها

يا أم طلحة إن البين قد أفِدا ... قل الثواء لئن كان الرحيل غدا[1]
أمسى العراقىُّ لايدرى إذا برزت ... من ذا تطوّف بالاركان أو سجدا

ولم يزل ينسُب بها أيام الحج ويطوف حولها ويتعرض لها وهى تكره أن يرى وجهها حتى وافقها وهى ترمى الجمار سافرة فنظر اليها فقالت : أما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يا فاسق ! فقال

إنى وأول ماكلفت بحبها ... عجبٌ وهل فى الحب من متعجب
نُعت النساء فقلت لست بمبصر ... شبهاً لها أبداً ولا بمقرّب
فمكثن حيناً ثم قلن توجهت ... للحج موعدها لِقاء الاخشب[2]

(١) افد : قرب (٢) الاخشب مفرد الاخشبين وهما جبلان يضافان تارة الى مكة وتارة الى منى وهما واحد أحدهما أبو قبيس والآخر قعيقعان . قال مزاحم العقيلى

خليلى هل من حيلة تعلمانها ... يقرب من ليلى الينا احتيالها
فان بأعلى الاخشبين اراكة ... عدتنى عنها الحرب دان ظلالها
وفى فرعها لو يستطاع جناها ... جنى يجتنيه المجتنى لو ينالها
ممنعة فى بعض أفنانها العلى ... يروح ثلينا كل وقت خيالها

أقبلت أنظر ما زعمن وقلن لى ... والقلب بين مصدق ومكذب
فلقيتها تمشى بها بغلاتها ... ترمى الجمار عشيةً فى موكب
غراء يُعشى الناظرين بياضها ... حوراء في غُلَوَاء عيش مُعجب (١)
إن التى من أرضها وسمائها ... جُلِبت لحينك ليتها لم تجلبِ

وروى أن ابن أبى ربيعة لقى عائشة بنت طلحة بمكة وهى تسير على بغلة لها فقال : قفى حتى اسمعك ما قلت فيك . فقالت أوَقد فعلت يا فاسق ! قال : نعم ! فوقفتْ فأنشدها

ياربّة البغلة الشهباء هل لكمُ ... أن ترحمي عمراً لا تُرهقي حَرَجا
قالت بدائك مُت أوعش تعالجهُ ... فما نرى لك فيما عندنا فرجا
قد كنت حمّلتنا غيظا نعالجهُ ... فان تُقِدْنا فقد عنّيتنا حِججا (٤)
حتى لو اُسطيع مما قد فعلت بنا ... أكلت لحمك من غيظ وما نضجا
فقلت لا والذي حج الحجيج له ... مامحّ حبك فى قلبى ولا نهجا (٥)
ولا رأى القلب من شىء يُسَرُّ به ... مذ بان منزلكم منا ولا ثلِجا
ضنت بنائلها عنه فقد تركت ... فى غير ذنب أبا الخطاب مُختلِجا

ويظهر من هذا الشعر أن الاخشبين غير التى بمكة . كما قال ياقوت اذ ترى من منازل العرب التى يحلونها بأهاليهم . وليس الاخشبات كذلك. وها أيضاً موضع واحد إذ لا تنبت الارائحته فى موضعين (١) غلواء العيش نضره وأرغده
(٢) تقيدنا : تعاقبنا من القود وهو القصاص (٥) مح : بلى

فلم تزل تداريه وترفق به خوفاً من أن يتعرض لها حتى قضت حجها وانصرفت إلى المدينة ، فقال فى ذلك :

إن من تهوى مع الفجر ظعنْ ... للهوى والقلب مِتباعُ الوطنْ
بانت الشمس وكانت كلما ... ذكرت للقلب عاودتُ الدَّدن (١)
نظرت عينى إليها نظرةً ... مَهبِطَ الحُجاج من بطن يَمَنْ
موهِناً تمشى بها بغلتها ... فى عثانينَ من الحج ثُكَن (٢)
قلت قد صدّت فماذا عندكم ... أحسنَ الناس لقلبٍ مرتهن
ولئن أمست نواها غربةً ... لا تواتينى وليست من وطن (٣)
فلَقَدماً قرّبتنى نظرتى ... لعناءٍ آخرَ الدهر مُعَنّ
ثم قالت : بل لِمن أبغضَكم ... شِقوة العيش وتكليف الحزن
سوف آتى زائراً أرضكمُ ... بيقين فاعلميه غير ظن
فأجابت : هذه أمنيةٌ ... ليت أنّا نشتريها بثمن

(١) الددن : اللهو واللعب والمراد به هنا تشوق القلب لاحلام الشباب (٢) العثانين هنا الزمر والجماعات التى تتقدم الركب تشبيها لها بعثانين المطر والريح ، والمفرد عثنون . والثكن جمع ثكنة وهى الجماعة . وهي كذلك السرب من الحمام (٣) النوى الغربة بفتح الغين المعجمة هي البعيدة

وقال فيها أيضاً هذه القصيدة

مَنْ لقلبٍ أمسى رهيناً مُعنّى مستكيناً قد شفّه ما أجنّا
إثر شخص نفسى فدت ذاك شخصاً

نازح الدار بالمدينة عنّا
أن أراه والله يعلم يوماً منتهى رغبتى وما أتمنى
ليت حظى كطرفة العين منها وكثيرٌ منها القليل المهنّا
أو حديثٍ على خلاءٍ يُسلّى ما أجنّ الضمير منها ومنا
أترى نعمةً نراها علينا منك يوماً قبل الممات ومَنّا
خبّرينا بما كتبت إلينا أهو الحق أم تهزّأتِ منّا
ما نرى راكباً يخبّر عنكم أو يريد الحجاز إلاّ حزَنّا
ثم ما نمت بعدكم من منام منذُ فارقت أرضكم مطمئنا
ثم ما تُذكَرين للقلب إلاّ زِيدَ شوقاً إليكمُ واستُجِنّا

ويرجح أنه قال فيها القطعة الآتية :

يا أبا الحارث قلبى هائمٌ فأْتمر أمر رشيد مؤْتَمن
عُلّق القلب غزالا شادناً يا لقومٍ لغزال قد شدن[1]
أُطلُبَنْ لى صاح وصلا عندها إن خير الوصل ما ليس يمنّ

(١) الشادن هو الظبى الذى شدن أى قوى واستغنى عن أمه

إن حبى آل ليلى قاتلى ظهر الحب بجسمى وبطن
ليس حبٌ فوق ما أحببته غير أن أقتل نفسى أو أُجن
جعلت للقلب منى حبها شجناً زاد على كل شجن
فاذا ما شحطت هام بها واذا راعت إلى الدار سكن

ولنلاحظ أن شعر ابن أبى ربيعة فى عائشة بنت طلحة لا يُستطاع تعيينه عند الرجوع إلى ديوانه ، فقد رأينا أنه أُرغم على السكوت عنها ، وأنه اكتفى بالتاميح فى أكثر ما أوحت اليه من الشعر البليغ

وعند ما نلاحظ ذلك يصحّ لدينا أن كثيراً من الأسماء التى وردت فى شعره لم يكن إلا أداة لستر حبه وصرف الناس عن الكيد لمن يهوى من كرائم الملاح[1]

(١) راجع ماتفرق من أخبار الحارث بن خالد المخزومى وأخبار عائشة بنت طلحة وأخبار عمر بن أبى ربيعة فى الاغانى ، وماذكر عن هؤلاء فى الجزء الاول من زهر الآداب

سكينة بنت الحسين

أشرنا فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » عند الكلام عن الباطنية إلى أن أكثر ما يحتل رؤوس المسلمين من الافكار والعقائد ليس إلا أثراً للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب ، وأن الدعاة نجحوا فى حشو تلك الرؤوس الجوفاء بالخرافات والوساوس والأضاليل ، وضربنا المثل بالمعبودات الصغيرة التى تسكن سماء القاهرة من عترة سيدنا الحسين !

واليوم نجرد القلم لتصوير السيدة سُكينة ، لا لنقنع من لا يقتنع بأنه لاخير فى الطواف حول القبور ، ولا لنجرّح سيدة هى منذ أزمان موضع التقديس ، ولا لنكبت قوماً لاهمّ لهم إلا أن يتصيدوا لنا الهفوات على حساب الدين ، إنما نكتب اليوم ، كما كتبنا من قبل ، متأثرين بفكرة واحدة كانت ولا تزال محور ما نُبْدِئُ فيه وما نعيد ، وهى أن الانسان مظهر من مظاهر الحياة ، لامفرّ له من أن يكون مصدراً للخير والشر ، والظلمات والنور ، والهدى والضلال

والحياة تريده كذلك ، فلو قدر ادأن يَحُور ملكا مسكنه فى السماء

أو أن يصير شيطاناً دأبُه البغى والإغواء ، لما استطاع إلى ذلك سبيلا . إنما هو أداة لهذه الحياة الغوية ، الرشيدة ، التى تطيب حين تشاء ، وتخبث حين تريد ، بلا رقيب ولا حسيب !

والسيدة سكينة كانت بنت الطبيعة قبل أن تكون بنت الحسين كما كان أبوها غَذِيَّ الفطرة ، قبل أن يكون سِبط الرسول ، فلا يغضب قوم إن ذكرنا أنها كانت فى عفافها نزقةً طائشة ، تؤثر الخفة على الوقار ، وتهوى أن يخلّد حسنها فى قصائد الشعراء ، فقد قضت الطبيعة أن تكون المرأة كذلك ، إلا أن قدر لها المسخ فعادت شُرْطيًّا[1] يلبس أثواب النساء

وهذه محاولة نحتاج إليها فى مصر لنسوّغ ما نكتبه عن السيدة سكينة فى مثل هذا العصر الذى يفيض بأخبار التردد والإشفاق ، أما صورة تلك السيدة كما رسمها الأولون فهى صورة طبيعية لاغرابة فيها ولا شذوذ ، ولو كتب عنها فصل فى مجلة فرنسية أو انجليزية أو ألمانية لتلقاه أهل الغرب بالقبول ، وعدوا حياتها المرِحة دليلا على تأصُّل الحضارة فى تلك الأسرة التى سادت الشرق زمناً غير قليل

---

(١) الصواب في الشرطى سكون الراء ، والتحريك خطأ لأنه نسبة الى الشرط الذى هو جمع ، والشرطة في الاصل الكتيبة

ويالليتنى أعرف متى يتفق الناس على أصول الاخلاق . ففى بعض ما ننكر اليوم صور من الحياة الاجتماعية كانت فى العصور الماضية من السائغ المألوف ، وفى بعض ما نألفه ونرضاه أنماطٌ من العادات والتقاليد كانت مما يكره الأقدمون ، حتى الألفاظ والتعابير يُذيلها العرف ، وتُحيلها الأوضاع ، وأشدنا حرصاً على الأدب المكشوف يندى وجهه أمام طائفة من الكلمات لم يكن يتحرج منها المتجملون المهذّبون فى الزمن القديم ، فلا يظنّ ناس أن ما ينكرونه على السيدة سكينة كان يقاس فى عصرها بنفس ما عندهم من المقاييس . وإن كانت عناصر التحرُّج والتزمُّت غير جديدة فى البيئات الاسلامية ، فما أظن هـذه السيدة سلمت فى صلتها بابن أبى ربيعة من متورِّع يرميها على طُهرها بالخلاعة والمجون

وأعود فأقول : إنى أكتب هـذا الفصل وأنا أضمر الحب والاجلال لتلك السيدة النبيلة ، التى قدرت نعمة الله عليها ، فدلّت وتاهت بما وُسِمت به من الملاحة والجمال ، وعاشت فى رعاية الحسن والحب غير حافلة بأوضاع الاجتماع ، وكان فيها بلا ريب ما يَنهَى مثلها عن التبذل فى مخالطة المغنين وملابسة الشعراء

* * *

ميادينها الادبية

كانت السيدة سكينة حريصة على أن تعيش عيشة نابهة مِلؤها الزهو والاعجاب ، ويظهر مما نقل عنها من شتى الأحاديث أنها كانت سليمة الذوق فى اختيار الوصائف ، وكان بيتها لذلك خفيف الظل على الأدباء والشعراء ، وكانت ترعى الحياة الأدبية رعاية لاتخلو من قسوة وعنف ، فتفاضل بين المعانى والأغراض ، وتجبه من تشاء من الشعراء بلاذع النقد وموجع التجريح ، وكانت تهتم بنوع خاص بالمعانى الوجدانية التى تقال فى وصف المرأة وفى الخضوع لما لها من السطوة والجبروت. ولها حديث ممتع فى نقد جرير والفرزدق وجميل وكثيِّر ونصيب ، أثبتناه فى البحث الاول من كتاب « الموازنة بين الشعراء » وناقشناه هناك ، فلا نعود إليه الآن . ونكتفى بايراد حديثها مع راوية جرير وراوية كثير وراوية الاحوص ، حين اجتمعوا بالمدينة وافتخر كل رجل منهم بصاحبه ، وذهبوا إليها يحكّمونها لما كانوا يعرفون من بصرها بالمعانى الجيدة ، فقد قالت لراوية جرير بعد أن استأذنوا عليها فأذنت لهم وعرفت ما كان من أمرهم : أليس صاحبك الذى يقول

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أحلى من الطُّروق ؟ (١) قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره !

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول

يقرّ بعينى ما يقرُّ بعينها وأحسن شىء ما به العين قرَّتِ

فليس شىء أقرَّ لعينها من النكاح ، أفيحب صاحبك أن يُنكَح ؟ قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول

فلو تركت عقلى معي ما طلبتها ولكن طِلابيها لما فات من عقلى

فما أرى بصاحبك من هوى ، إنما يطلب عقله . قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى

فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده. قبَّحه الله ، وقبَّح شعره ! ألا قال :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فلا صلحت دعدٌ لذى خُلّة بعدى

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول

من عاشقين تراسلا وتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلّقا

(١) الطروق : زيارة الليل . سمى كذلك لحاجة من يقدم ليلا . الى طرق الباب ، أى دقه

باتا بأنعم ليلة وألذّها حتى إذا وَضَح الصباح تفرقا

قال نعم . قالت : قبحه الله وقبح شعره . ألا قال : تعانقا

فهى كما يرى القارىء قاسية عنيفة تتامس الهفوات ، وتعد السيئات ، وتخاطب الرواة بلهجة خشنة جافية لارفق فيها ولا إيناس ، وما كانوا ليحتملوها لولا جمالها وسيطرتها على ناحية من الحياة الأدبية فى ذلك العصر : هى تقدير الشعر الذى قيل خاصة فى التشبيب بالنساء . ومن ذا الذى يرضى بأن تظامه سيدة يلوذ بجمالها النُّبل والجاه والجمال ؟ فما كل ظالم بغيض ، ولا كل مظلوم مغبون !

ومن مظاهر عنفها الذى كان يتلقاه الشعراء بالقبول حديثها مع الفرزدق وقد خرج حاجا ، فلما قضى حجه خرج إلى المدينة فدخل مُسلِّما ، فقالت له يافرزدق ! من أشعر الناس ؟ قال أنا . قالت : كذبت ! أشعر منك الذى يقول :

بنفسى من تجنُّبُهُ عزيزٌ علىَّ ومن زيارته لِمامُ

ومن أُمسى وأُصبح لا أراهُ ويطرقنى إذا هجع النيام

قال : والله لئن أذنت لى لأسمعنك أحسن منه . قالت : لا أحب ! فاخرج عني ! ثم عاد إليها من الغد فدخل عليها . فقالت . يافرزدق ! من أشعر الناس ؟ قال : أنا ! قالت : كذبت !

صاحبك أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياءُ لهاجنى استعبارُ ولزرت قبرك والحبيب يُزارُ
كانت إذا هجر الضجيع فراشها كُتُم الحديث وعفّت الأسرار
لايلبث القرناء أن يتفرقوا ليلٌ يكرّ عليهمُ ونهار

فقال: والله لئن اذنت لى لأسمعنك أحسن منه ، فأمرت به فأُخرج ، ثم عاد إليها فى اليوم الثالث وحولها مُوَلَّدات كأنهن التماثيل فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها ، فقالت : يافرزدق ! من أشعر الناس ؟ فقال : أنا ! فقالت : كذبت ! صاحبك أشعر منك حيث يقول .

إن العيون التى فى طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراكَ به وهنّ أضعف خلق الله أركانا
أتبعتهم مقلة انسانها غرق هل ماترى تاركٌ للعين إنسانا

فقال : يابنت رسول الله ! إن لى عليك حقا عظيما . ضربت إليك من مكة إرادة السلام عليك . فكان جزائى منك تكذيبى ومنعى من أن أُسمعك . وبى ماقد عِيل معه صبرى ، وهذه المنايا تغدو وتروح ، ولعلى لا أفارق المدينة حتى أموت . فإن أنا مت فأمرى أن أدرج فى كفنى وأدفن فى حِرِ تلك الجارية . يعنى الجارية

التى أعجبته ، فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية فخرج بها آخذاً بريطتها ، وأمرت الجوارى أن يضربن الدفوف تهنئةً لهما . ثم قالت : يافرزدق ! أحسن صحبتها فانى آثرتك بها على نفسى

فلو صحت هذه القصة لكانت دليلاً على تسامح تلك السيدة وغَفْرِها تهافُت الشعراء على ما كانت تملك من المولَّدات الحسان ، والشاعر لم يُخلق إلاّ ليشقى بالحسن ويُعذّب بالجمال ، وبقدر إحساس السيدة سكينة لمحنة الشعراء المسرفين وعلمها بما كتب عليهم من سَفَه المنى وطيش الأحلام ، كانت ترق وتلين كلما شهدت إخلاصهم لما خُلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقد الرشيق . ويمكن الحكم بأن فى توفُّرها على نقد النواحى الغزلية دليلاً على انها كانت تحيا حياة وجدانية معقّدة وكانت تجد فى تفقد الصلات بين أرواح الشعراء وقلوب النساء مفرًّا من لوعة الوجد المكتوم ، ووقدة الحزن الدفين

* * *

عنايتها بالغناء

وكانت سكينة تُعنى بنقد الغناء عنايتها بنقد الشعر ، وكان المغنون يقصدونها لذلك . فقد ذكر صاحب الاغانى أنها حجت فدخل اليها ابن سُرَيج

والغريض ، وقد استعار ابن سريج حلة لامرأة من قريش فلبسها فقال لها ابن سريج : يا سيدتى ! انى كنت صنعت صوتا وحسّنته ، وتنوّقت فيه ، وخبأته لك فى حريرة فى درج مملوء مسكا فنازعنيه هذا الفاسق ، يعنى الغريض ، فأردنا أن نتحاكم اليك فيه ، فأينا قدمته فيه تقدم ، قالت . هاته ! فغناها :

عوجى علينا ربة الهودج ... انك إلاّ تفعلى تَحْرَجى [1]
انى أُتيحت لى يمانيّةٌ ... احدى بنى الحارث من مَذحِج
نلبث حولا كاملا كلهُ ... لانلتقى الا على منهج [2]
فى الحج ان حجت وماذا مِنًى ... وغيره إن هى لم تحجُجِ

فقالت سكينة : ما أشبهكما إلا باللؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحسان لايُدرى أيهما أحسن

وكان بيتها مألفا للمغنين ، وكانت تؤثر ترفيه الناس بما تستطيع تقديمه اليهم من مُتع الغناء . حدث عبيد بن حنين الحيرى قال : كان المغنون في عصر جدى اربعة نفر : ثلاثة بالحجاز ، وهو وحده بالعراق ، والذين بالحجاز ابن سريج والغريض ومعبد ، فكان يبلغهم ان جدى حنينا قد غنّى فى هذا الشعر :

(١) من الحرج وهو الاثم (٢) المنهاج الطريق ، ومثله النهج والمنهاج

هلاّ بكيت على الشباب الذاهب ... وكففت عن ذم المشيب الآيب
هذا ورُبّ مسوّفين سقيتهم ... من خمر بابل لذة للشارب
بكروا علىّ بسُحرةٍ فصبَحتُهم
من ذات كَرْنِيبٍ كقَعْب الحالب [1]
بزجاجة مِلء اليدين كأنها ... قنديل صبح فى كنيسة راهب

فاجتمعوا فتذاكروا امر جدى وقالوا : مافى الدنيا أهل صناعة شر منا . لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز لانزوره ولا نستزيره ، فكتبوا اليه ، ووجهوا له نفقة ، وكتبوا يقولون : نحن ثلاثة وأنت وحدك فأنت أولى بزيارتنا ، فشخص اليهم ، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره ، فخرجوا يتلقونه ، فلم يُر يوم كان أكثر حشرا ولا جمعا من يومئذ . ودخلوا فلما صاروا فى بعض الطريق قال لهم معبد : صيروا الىّ . فقال له ابن سريج : ان كان لك من الشرف والمروءة مثل مالمولاتي سكينة بنت الحسين عطفنا اليك . فقال : مالى من ذلك شىء . وعدلوا الى منزل سكينة ، فلما دخلوا اليها أذنت للناس اذنا عاما فغصت الدار

(١) الكرنيب ويسمى أيضاً المجبع بفتح الميم تمر يعجن بلبن ولبن يشرب على التمر . والقعب بالفتح القدح الضخم . وفي البيت شىء من الغموض

بهم وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها. ثم انهم سألوا جدى حنينا ان يغنيهم صوته الذى اوله

هلا بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب

فغناهم اياه بعد أن قال لهم : ابدؤوا أنتم . فقالوا : ما كنا لنتقدمك، ولا لنغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت ، فغناهم اياه ، وكان من أحسن الناس صوتا ، فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ، فساموا جميعا وأخرجوا أصحاء ، ومات حنين تحت الهدم . فقالت سكينة : لقد كدر علينا حنين سرورنا . انتظرناه مدة طويلة : كأنّا والله كنا نسوقه الى منيته[1]

ولها مع ابن سريج أخبار رأينا أن نضرب عنها صفحا لما فى مقدماتها من مآثم تقف عندها حدود الأدب المكشوف

* * *

ازواجها

تزوجت السيدة سكينة عدة أزواج ، أشهرهم مصعب بن الزبير، وقد رأينا أن نكتب عنه هنا كلمة وجيزة لأمرين : الأول أنه جمع بينها

(١) راجع أخبار حنين في الجزء الثانى من الاغانى

وبين عائشة بنت طلحة ، فهو وثيق الصلة بما عنينا به من ترجمة هاتين المليحتين ، الثاني انه يمثل الفتوة العربية أصدق تمثيل . ولا أعرف شيئا أحب إلى النفس من الحديث عن أولئك الفتيان الغطاريف ، الذين ملؤوا الدنيا بأخبار البأس والجود

ويكفى فى الاشادة بذكر ذلك الفتى ان يعرف القارئ انه أعيا عبد الملك بن مروان وعنّاه ، وان عبد الملك كان يوجّه اليه جيشا بعد جيش فيهزمون ، فلما طال ذلك عليه واشتد غمه أمر الناس فعسكروا ، ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما اراد الركوب قامت اليه أم يزيد ابنه وهى عاتكة بنت يزيد بن معاوية فقالت : ياأمير المؤمنين لو أقمت وبعثت اليه لكان الرأى . فقال : ما إلى ذلك من سبيل ! فلم تزل تمشى معه وتكلمه حتى قرب من الباب . فلما علا الصوت رجع اليها عبد الملك فقال : وانت ممن يبكى ! قاتل الله كثيرا . كأنه كان يرى يومنا هذا حيث يقول :

اذا ما أراد الغزو لم تثن همهُ حَصانٌ عليها نظم دُرٍّ يَزينُها
نهته فلما لم تر النهى عاقهُ بكت فبكى مما شجاها قَطِينها

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج[1]

وقال عبد الملك يوما لجلسائه : من أشجع الناس ؟ فأكثروا فى هذا

(١) الاماليج ١ ص ١٤

المعنى . فقال : أشجع الناس مصعب بن الزبير ، جمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وابنة الحميد بنت عبد الله بن عباس ، وولى العراقين ، ثم زحف الى الحرب فبذلت له الأمان والحِباء والولاية والعفو عما خاص فى يده فأبى قبول ذلك ، واطّرح كل ما كان مشغوفا به من ماله وأهله وراء ظهره ، وأقبل بسيفه قَرْماً يقاتل ، ما بقى معه الا سبعة نفر ، حتى قُتل كريما [1]

وكانت سكينة تخفى ما فى قلبها من مصعب ، وتكاتمه وجدها به ، وعطفها عليه . دخل اليها فى حربه مع عبد الملك وقد نزع عنه ثيابه ، ولبس غلالة ، وتوشح بثوب ، وأخذ سيفه ، فعلمت أنه لا يريد أن يرجع ، فصاحت من خلفه : واحزناه عليك يامصعب ! فالتفت اليها وقال : أوَكل هذا لى فى قلبك ؟ فقالت : إى والله ! وما كنت أخفى أكثر ! فقال : لو كنت أعلم ان هـذا كله لى عندك لكانت لى ولك حال . ثم خرج ولم يرجع

ولما دخلت سكينة الكوفة بعد قتل مصعب خطبها عبد الملك فقالت : والله لا يتزوجنى بعده قاتله أبدا !

(١) الاغانى ج ١٨ ص ١٦٦

وفى رثاء مصعب يقول رجل من بنى أسد بن عبد العزى

لعمرك إن الموت منا لَمولَعٌ ... بكل فتًى رحب الذراع أريبِ
فان يك أمسى مصعب نال حتفه ... لقد كان صلب العود غير هيوب
جميل المحيا يوهن القِرن غَربهُ ... وإن عضه دهر فغير رهوب
أتاه حمام الموت وسط جنوده ... فطاروا سلالاً واستقى بذنوب [1]
ولو صبروا نالوا حِباً وكرامة ... ولكنهم ولّوا بغير قلوب

وقالت سكينة ترثيه

فان تقتلوه تقتلوا الماجد الذى ... يرى الموت إلا بالسيوف حراما
وقبلك ما خاض الحسين منية ... إلى القوم حتى أوردوه حماما

* * *

جمالها

كانت السيدة سكينة إحدى نوادر الجمال فى العصر الذى ظهرت فيه ، وكانت تنافس عائشة بنت طلحة معبودة العيون والقلوب فى ذلك الحين ، وكانت حريصة مُسرفة فى الحرص على جمالها ، حتى ليذكر

(١) الذنوب بفتح الذال المعجمة الدلو

صاحب الاغانى أنه خرجت بها سِلعة [1] في أسفل عينها حتى كبرت ، ثم أخذت وجهها وعينها ، وكان درافيس منقطعاً إليها وفى خدمتها ، فقالت له : ألا ترى ما قد وقعت فيه ؟ فقال لها : أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك ؟ قالت : نعم ! فأضجعها وشق جلد وجهها أجمع ، وسلخ اللحم من تحتها ، حتى ظهرت عروقها ، وكان منها شيء تحت الحدقة فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحية ، ثم سلّ عروق السلعة من تحتها فأخرجها أجمع ، وردّ العين إلى موضعها وسكينة مضطجعة لا تتحرك ولا تئن ، حتى فرغ مما أراد ، وزال ذلك عنها وبرئت منه ، وبقى أثر تلك الحزازة فى مؤخر عينها فكان أحسن شيء فى وجهها من كل حلى وزينة ، ولم يؤثر ذلك فى نظرها ولا فى عينها

وكانت تحدث عن نفسها فتقول : أُدخلت على مصعب وأنا أحسن من النار الموقدة ، وكانت ابنتها من مصعب جِدّ جميلة فكانت تثقلها بالحلىّ واللؤلؤ وتقول : ما ألبستها إياه إلا لتفضحه

وكانت سكينة أحسن الناس شَعراً ، وكانت تصفّف جُمّتها تصفيفاً لم يُرَ أحسن منه ، حتى عُرف ذلك ، وكانت تلك الجمة تسمى « السكينية » وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلا يصفف جمته السكينية جلده

(١) السلعة : زيادة في البدن كالغدة

وحلقه . وفى هذا دليل على أنها صاحبة بدعة Mode فى تصفيف الشّعر وتنسيقه ، وكان تقليدها فى تلك البدعة مما يقدح فى أخلاق الرجال ، ولولا تحرُّج المسلمين الاولين من التصوير لرأينا كيف كانت الفتنة فى ذلك التصفيف ، ولعرفنا بُعد ما بين تلك البدعة وبدعة الشعر المقصوص فى هذا الجيل

* * *

أفكاهتها

كانت السيدة سكينة تميل إلى الفكاهة والمزاح ، تخالط الأجلة من قريش ، ويجتمع اليها الشعراء ، فتمزج الجد بالهزل ، وتخلط الوقار بالمجون ، ولها فى الدعابة أحاديث طريفة . لسعتها يوماً دَبْرة [1] فقالت لها أمها : مالك يا سيدتى ؟ فضحكت وقالت : لسعتنى دُبيرة ، مثل الأُبيرة ، أوجعتنى قُطيرة ! وبعثت مرة إلى صاحب الشرطة : إنه دخل علينا شامى ، فابعث إلينا بالشُّرَط . فلما أتى إلى الباب أمرت ففُتح له . وأمرت جارية من جواريها فاخرجت إليه برغوثاً . ثم قالت : هذا الشامى الذى شكوناه !

وقيل لها يوماً : أمك فاطمة يا سكينة وأنت تمزحين كثيراً

(١) الدبرة : هي النحلة أو الزنبور

وأختك لاتمزح ! فقالت : لأنكم سميتموها باسم جدتها المؤمنة — تعنى فاطمة — وسميتمونى باسم جدتى التى لم تدرك الاسلام — تعنى آمنة بنت وهب أم الرسول . وكانت سكينة تسمى آمنة ، وسكينة لقب

وكانت مع ميلها المفرط إلى الدعابة عفيفةً نقية العِرض ، لايؤخذ عليها غير العبث البرىء ، واللهو المباح

وكانت لاتخلو من الخيلاء : فقد رآها سفيان بن حرب ترمي الجمار ، فسقطت من يدها الحصاة السابعة فرمت بخاتمها . وكانت فيما يظهر ضيقة الصدر فى معاملة الأزواج . ويرجع ذلك إلى غيرتها الشديدة وعنفها فى مراقبة العشير : فقد روى أبو الفرج الاصبهانى ان زيد بن عمرو بن عثمان خرج إلى مال له مغاضباً لسكينة ، وعمر بن عبد العزيز يومئذ والى المدينة ، فأقام سبعة أشهر ، فاستعدته سكينة على زيد وذكرت غيبته مع ولائده سبعة أشهر ، وانها شرطت عليه انه إن مسّ امرأة ، أو حال بينها وبين شىء من ماله ، أو منعها مخرجا تريده ، فهى خليّة . فبعث إليه عمر فأحضره ، وأمر ابن حزم ان ينظر بينهما ، فجاءت سكينة وزيد جالس عند ابن حزم وفاطمة امرأة ابن حزم جالسة فى الحجلة . فقال ابن حزم : أدخلوا سكينة وحدها . فقالت :

والله لا أدخل إلا ومعي ولائدى : فأدخلن معها . فلما دخلت قالت : ياجارية ! ائتى لى هذه الوسادة ، ففعلت ، وجلست عليها ، ولصق زيد بالسرير حتى كاد يدخل في جوفه خوفاً منها . فقال لها ابن حزم : يا ابنة الحسين ! إن الله يحب القصد فى كل شىء . فقالت له : وما أنكرت منى ؟ انى والله واياك كالذى يرى الشعرة فى عين صاحبه ولا يرى الخشبة فى عينه ! فقال لها : أما والله لو كنتِ رجلا لسطوت بك ! فقالت له : يا ابن فرتنى ! لاتزال تتوعّدنى ! وشتمته وشتمها . فلما بلغا ذلك قال ابن أبى الجهم العدوى : مابهذا أُمرنا . فأمض الحكم ولا تُشاتم . فقالت لمولاة لها : من هذا ؟ قالت : أبو بكر بن عبد الله بن أبى الجهم فقالت : لا أراك ههنا وأنا أُشتم بحضرتك . ثم هتفت برجال قريش فغضب ابن أبى الجهم . وقالت : أما والله لو كان أصحابى فى الحيرة أحياء لكفّوا والله العبد اليهودى عند شتمه إياى . عدو الله ! تشتمنى وأبوك الخارج مع يهود ضنانة بدينهم لما أخرجهم رسول الله الى أريحاء ! — فلما كلمها زيد وخضع لها قالت : ما أعرفنى بك يازيد ! والله لاترانى أبداً ! أتراك تمكث مع جواريك سبعة أشهر ثم أعود إليك ! والله لاترانى بعد الليلة أبدا !

وأظرف ما كان يجرى بينها وبين زوجها هذا تكليفها أشعب

بمراقبته وترشّم خُطاه لتعلم ما كان يجترح من وصل الولائد المِلاح

* * *

صلتها بابن أبى ربيعة

ذكر صاحب الأغانى [1] أنه اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنينه ، فقالت سكينة بنت الحسين : أنا لكنّ به ! فأرسلت إليه رسولا وواعدته الصوّرين وسمّت له الليلة والوقت ، وواعدت صواحباتها ، فوافاهن عمر على راحلته ، فحدثهن حتى أضاء الفجر وحان انصرافهن . فقال لهن : والله إنى لمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله والصلاة فى مسجده ، ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئا . ثم انصرف إلى مكة وقال :

قالت سكينة والدموع ذوارف ... منها على الخدين والجلباب
ليت المغيريّ الذى لم أجزه ... فيما أطال تصيُّدى وطِلابى
كانت ترد لنا المنى أيامنا ... إذ لا نُلامُ على هوًى وتصابى
خُبِّرت ماقالت فبتّ كأنما ... يرمي الحشا بنوافذ النُّشابِ [2]

(١) فى أخبار عمر فى الجزء الاول (٢) النشاب . النبل

أسُكين ما ماء الفرات وطيبهُ ... منى على ظمأ وفقد شراب
بألذّ منك وان نأيت وقلما ... ترعى النساء أمانة الغُيّاب
ان تبذلى لى نائلاً أشفى به ... داء الفؤاد فقد أطلت عذابى
وعصيت فيك أقاربى وتقطعت ... بينى وبينهمُ عُرى الأسباب
فتركتنى لا بالوصال مُتعاً ... منهم ولا أسعفتنى بثواب
فقعدت كالمهريق فضلة مائهِ ... فى حر هاجرة لِلَمْعِ سراب

وقال فيها :

أحب لحبك من لم يكن ... صفيًّا لنفسى ولا صاحبا
وأبذل نفسى لمرضاتكم ... وأُعتب من جاءكم عاتبا
وأرغب فى ود من لم أكن ... إلى وده قبلكم راغبا
ولو سلك الناس فى جانب ... من الأرض واعتزلت جانبا
ليمّمت طِيتها إننى ... أرى قربها العجب العاجبا [1]
فما ظبية من ظباء الأرا ... ك تقرو دميث الرُّبى عاشبا [2]
بأحسن منها غداة الغميم ... وقد أبدت الخد والحاجبا
غداة تقول على رِقبةٍ ... لخادمها : يا احبسى الراكبا
فقالت لها فيمَ هذا الكلام ... وأبدت لها عابساً قاطبا

(١) الطية : الناحية (٢) تقرو : تتبع ـ ودميث الربى : سهلها ولينها

فقالت كريمٌ أتى زائراً يمرّ بكم هكذا جانبا
شريف أتى ربعنا زائراً فأكره رجعته خائبا

وذكر صاحب الأغانى فى قصة أولئك النسوة مع عمر بصورة أخرى فى أخبار الغريض فحدثنا أنه وافاهن على رواحله والغريض معه وانه قال عند انصرافه إلى مكة

ألم بزينب إن البين قد أفدا قل الثواء لئن كان الرحيل غدا

فلما كان بمكة قال : يا غريض ! انى أريد أن أخبرك بشىء يتعجل لك نفعه ، ويبقى لك ذكره ، فهل لك فيه ؟ قال : افعل من ذلك ماشئت وما أنت أهله . قال إنى قلت فى هذه الليلة التى كنا فيها شعرا فامض به إلى النسوة فأنشدهن ذلك وأخبرهن أنى وجهت بك فيه قاصداً . قال نعم : فحمل الغريض الشعر ورجع إلى المدينة فقصد سكينة وقال لها : جُعلت فداك ياسيدتى ومولاتى ! إن أبا الخطاب أبقاه الله وجهنى اليك قاصدا . قالت : أوليس في خير وسرور تركته ؟ قال : نعم ! قالت : وفيم وجّهك أبو الخطاب حفظه الله ؟ قال : جعلت فداك ! ان ابن أبى ربيعة حملنى شعراً وأمرنى أن أنشدك اياه . قالت فهاته . فأنشدها :

ألم بزينب إن البين قد أفدا قلّ الثواء لئن كان الرحيل غدا

قد حلفت ليلة الصّورين جاهدةً وما على الحر إلا الصبر مجتهدا
لِتربها ولأخرى من مناصفها لقد وجدت به فوق الذى وجدا
لو جُمِّع الناس ثم اختير صفوتهم شخصاً من الناس لم أعدل به أحدا

فقالت سكينة : ياويحه ! فما كان عليه أن لا يرحل فى غده ! ووجهت إلى النسوة فجمعتهن وأنشدتهن الشعر ، وقالت للغريض : هل عملت فيه شيئا ؟ قال : قد غنيته ابن أبى ربيعة ، قالت فهاته ! فغناه الغريض فقالت سكينة : أحسنت والله وأحسن ابن أبى ربيعة ! لولا انك سبقت فغنيته عمر قبلنا لأحسنا جائزتك . يابنانة ؟ أعطه بكل بيت ألف درهم ، فأخرجت إليه بنانة أربعة آلاف درهم فدفعتها إليه .

وقالت سكينة : لو زادنا عمر لزدناك

هذا وأحب أن لاينسى القارىء أننا اعتمدنا فى هذه الاخبار على الاغاني والأمالى وزهر الآداب . وقد لاحظنا من قبل أنه لايبعد أن يكون بعض هذه الاخبار غير صحيح . فقد ذكر صاحب الاغانى فى موطن آخر [1] أن البيت :

« قالت سكينة » روى « قالت سعيدة »

وأن المراد سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف . وإنما غيره المغنون

(١) ج ١٦ ص ١٢

فجعلوا سكينة مكان سعيدة . وأن إسحق الموصلى غنى الرشيد يوماً

« قالت سكينة والدموع ذوارف »

فوضع القدح من يده وغضب غضباً شديداً وقال : لعن الله الفاسق ولعنك معه ! فسقط فى يد إسحق فعرف الرشيد ما به فسكن ثم قال : ويحك أتغنينى بأحاديث الفاسق ابن أبى ربيعة فى بنت عمى وبنت رسول الله ! ألا تتحفظ فى غنائك وتدرى ما يخرج من رأسك ! عد إلى غنائك الآن وانظر بين يديك ! قال إسحق : فتركت هذا الصوت حتى نسيته ، فما سمعه منى أحد بعده [1] .

وفيما ذكرناه عن السيدة سكينة غُنية لمن يريد أن يعرف كيف تَمَثَّلها الأدباء الاقدمون . أما صورتها فى رؤوس الصوفية فهى صورة القديسة التى تسيطر على الارض والسماء . وكل حزب بما لديهم فرحون ! .

(١) هذا الكلام نفسه يدل على أنه كان مفهوما إذ ذاك أن هذا الشعر قيل فى سكينة

الثريا بنت على

شُغل صاحب الاغانى بتحقيق نسب هذه الثريا ، فليرجع اليه من شاء ، ولنمض نحن فى الحديث عن فتنتها لعمر ابن ابى ربيعة ، وذكر ما اوحت اليه من الشعر الجيد البليغ

كانت الثريا أعجوبة من أعاجيب الجمال . وقد وصفها معاصروها بمثل ماوصفوا به عائشة بنت طلحة فذكروا أنها كانت خصبة الجسم ، وثيرة الردف . قال بعض المكيين : كانت الثريا تصب عليها جرة ماء وهى قائمة فلا يصيب ظاهر فخذيها منه شىء من عظم عجيزتها . وقال مَسْلَمة ابن ابراهيم : قلت لايوب بن مَسْلَمة : أكانت الثريا كما يصف عمر ابن أبى ربيعة ؟ فقال : وفوق الصفة ! كانت والله كما قال عبد الله ابن قيس :

حبَّذا الحجُّ والثريا ومن بالـ ـخَيْف من أجلها ومُلْقَى الرحالِ [1]

ياسليمانُ إن تُلاقِ الثريا تلق عيش الخلود قبل الهلالِ

درةٌ من عَقائل البحر بِكرٌ لم تنلْها مَثَاقِب اللآلِ [2]

(١) الخيف ، ماانحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء ومنه سمى مسجد الخيف من منى كما قال ياقوت (٢) اللآل : ثاقب اللؤلؤ

وكانت تصيف بالطائف ، وكان عمر يغدو عليها كل غداة اذا كانت بالطائف على فرسه ، فيسائل الركبان الذين يحملون الفاكهة من الطائف عن الأخبار قِبَلَهم ، فلقى يوماً بعضهم فسأله عن أخبارهم ، فقال : مااستطرفنا خبرا ، الا انى سمعت عند رحيلنا صوتا وصياحا عاليا على امرأة من قريش اسمها اسم نجم السماء ، وقد ذهب عنى اسمه . فقال عمر : الثريا ؟ قال : نعم وقد بلغ عمر قبل ذلك انها عليلة ، فوجه فرسه على وجهه الى الطائف يركضه مِلْءَ فُروجه وسلك طريق كَدَاء ، وهى أخشن الطرق وأقربها ، حتى انتهى الى الثريا وقد توقعته وهى تتشوف له فوجدها سليمة ومعها أختاها رُضيًّا وأم عثمان . فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : انا والله امرتهم لأختبر مالى عندك . فقال عمر فى ذلك :

تشكَّى الكُميتُ الجرى لماجَهَدتهُ
وبيَّن لويَسْطيع أن يتكلما (١)
فقلت له إن ألقَ للعين قُرةً
فهان علىَّ أن تكلَّ وتسأما
لِذلك أُدنى دون خيلى رِباطَهُ وأوصى به أن لايُهان ويكرما

(١) الكميت : الجواد الذى مزجت حمرته بسواد

عدِمت اذاً وَفْرى وفارقت مهجتى لئن لم أَقِل قَرْنا إنِ الله سلّما (١)
فما راعها الاّ الأغرُّ كأنه عُقابٌ هَوَت مُنقضّةً قدرأت دما
فقلت لهم كيف الثريا هَبِلْتُمُ فقالوا ستدرى مامكرنا وتعلما
هنالك فانزلْ فاسترح فاذا بدتْ ثُرياكَ فى أترابها الحور كالدُّمى
يُردن احتياز السِّر منك فلا تبُحْ بما لم تكن عنه لدينا مُجَمْجِماً (٢)

وكانت الثريا تغار على عمر غيرة شديدة ، وتكاد تجن حين تقف على بعض أخباره مع ظِراف النساء . بلّغتها أم نوفل انه قال فى رملة بنت عبد الله

أَصبح القلب فى الحبال رهينا مُقْصَداً يوم فارق الظاعنينا

فقالت : انه لوَقاحٌ صَنَعٌ بلسانه (٣) ولئن سَلِمت له لأردنّ من شأوه (٤) ولأثنينّ من عنانه ، ولأعرفنه نفسه : فلما بلغت الى قوله :

قلتُ من أنتمُ فصدت وقالت أمُبِدٌّ سؤالُك العالمينا

قالت : انه لسأَّل مُلحّ ، قبحاً له ! ولقد أجابته ان وقت . فلما بلغت الى قوله :

(١) لئن لم أقل : من القيلولة بمعنى الاقامة — وقرن : جبل بعرفات يقال له قرن المنازل ، وهو ميقات أهل اليمن والطائف . قال ابن أبى ربيعة من كلمة أخرى

ألم تسأل الربع ان ينطقا بقرن المنازل قد أخلقا

(٢) الجمجمة : عدم الابانة (٣) الوقاح قليل الحياء والصنع : الحاذق والمؤنث صناع يقال رجل صنع اليدين وامرأة صناع اليدين (٤) الشأو : الزمام

نحن من ساكنى العراق وكنا قبلهُ قاطنين مكة حينا

قالت : غمزته الجَهْمة [1] فلما بلغت الى قوله :

قد صدقناك اذ سألت فمن انـــت عسى ان يجر شأنٌ شئونا

قالت : رمته الوَرْهاء بآخر ماعندها فى مقام واحد [2]

وروى ان الثريا لما سمعت قول ابن أبى ربيعة فى رملة :

وجلا بُردُها وقد حسرتهُ نور بدرٍ يضىءُ للناظرينا

قالت : أُفٍّ له ماأكذبه ! أوَ ترتفع حسناء بصفته لها بعد رملة [3] ثم هجرته

ظرف ابن أبى عتيق

لما هجرت الثريا عمر قال فيها :

قال لى صاحبى ليعلم حابى اتحب القَتول اخت الربابِ

قلت وجدى بها كوجدك بالعذ ب اذا ما مُنِعت برد الشراب

من رسولى الى الثريا فانى ضِقتُ ذرعا بهجرها والكتابِ

(١) غمزته: أشارت اليه .والجهمة: العاجزة الضعيفة (٢) الورهاء: الحمقاء (٣) كانت رملة حسنة الجسم قبيحة الوجه عظيمة الانف وكانت حين استنت عند عمر بن عبيد الله تجتنبه فى أيام أقرائها ثم تغتسل لتريه أنها تحيض .فقال فى ذلك بعض الشعراء

جعل الله كل قطرة حيض قطرت منك فى حماليق عينى

غَصَبَتْنى مجّاجة المسك عقلى فسلوها ماذا أحلّ اغتصابى

أبرزوها مثل المهاة تهادى بين خمسٍ كواعبٍ أتراب

وهى مكنونةٌ تحيَّر منها فى أديم الخدين ماء الشباب

ثم قالوا تحبها ؟ قلت بهراً عدد الرمل والحصا والتراب

قال بلال مولى ابن أبى عتيق : أُنشد ابن أبى عتيق قول عمر :

من رسولى الى الثريا فانى ضِقت ذرعا بهجرها والكتاب

فقال إياىَ أراد ، وبى نَوَّه ! لاجَرَم ، والله لا أذوق أُكْلاً حتى أشخص فأصلح بينهما ، ونهض ونهضت معه ، فجاء الى قوم من بنى الدِّيل بن بكر لم تكن تفارقهم نجائبُ لهم فُرْهٌ يُكرونها ، فاكترى منهم راحلتين وأغلى لهم ، فقلت له : استوضِعْهم ، أو دعنى أُماكسهم فقد اشتطُّوا عليك . فقال : ويحك ! أما علمت ان المكاس ليس من أخلاق الكرام ! ثم ركب احداها وركبت الاخرى فسار سيراً شديداً . فقلت : أَبق على نفسك ! فان ماتريد ليس يفوتك . فقال : ويحك !

أُبادر حبل الود أن يتقضَّبا [1]

وما حلاوة الدنيا ان تمَّ الصَّدع بين عمر والثريا ! فقدمنا مكة ليلاً غير محرمين ، فدقَّ على عمر بابَه فخرج اليه وسلم عليه ولم ينزل عن راحلته .

(١) يتقضب: يتقطع

فقال له : اركب أُصلح بينك وبين الثريا فأنا رسولك الذى سألت عنه.
فركب معنا وقدمنا الطائف ، وقد كان عمر أرضى أم نوفل فكانت تطلب له الحيل لاصلاحها فلا يمكنها . فقال ابن أبى عتيق للثريا : هذا عمر قد جشّمنى السفر من المدينة اليك ، فجئتك به معترفاً لك بذنب لم يجنه ، معتذراً اليك من إساءته اليك . فدعينى من التعداد والترداد ، فانه من الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون ، فصالحته أحسن صلح وأتمه وأجمله ، وكرَرْنا إلى مكة فلم ينزلها ابن أبى عتيق حتى رحل . وزاد عمر فى أبياته .

أزهقت أم نوفل إذ دعتْها مهجتى ، مالقاتلى من متاب[1]
حين قالت لها أجيبى فقالت من دعانى ؟ قالت أبو الخطاب[2]
فاستجابت عند الدعاء كما لبّى رجالٌ يرجون حسن الثواب[3]

* * *

(١) أزهقت مهجتى : أذهبتها : يريد أن أم نوفل ذهبت بعقله حين سعت فى عطف الثريا فلم تفلح (٢) كنت ألاحظ أن الكتاب المتقدمين لايهتمون بوضع الفاء للربط بين عبارات القول . وكنت أرى فى ذلك تخفيفاً . والآن ألاحظ أن الشعراء أنفسهم كانوا يسلكون هذا المسلك كما نرى فى شعر عمر مما يدل على أن هذا من الأساليب العربية المقبولة
(٣) يريد أنها كررت فى التلبية كما يفعل المحرم فقالت : لبيك لبيك !

الثريا وسهيل

كان مسعدة بن عمرو أخرج عمر بن أبي ربيعة إلى اليمن فى أمر عرض له ، وتزوجت الثريا وهو غائب ، تزوجها سهيل بن عبد العزيز فبلغه تزويجها وخروجها إلى مصر فقال :

أيها المنكحُ الثريا سُهيلاً عمرَك الله كيف يلتقيان ؟
هى شامية إذا ما استقلتْ وسهيل إذا استقلّ يمانى[1]

ثم حمله الشوق على أن سار إلى المدينة فكتب إليها :

كتبت إليك من بلدى كتاب مولّهٍ كَمِدِ
كئيب واكف العينـ ـين بالحسرات منفرد
يؤرِّقه لهيب الشو ق بين النَّحر والكبد
فيمسك قلبه بيدٍ ويمسح عينه بيد

فلما وصلتها هذه الأبيات وقرأتها بكت بكاءً شديداً ، ثم تمثلت :

بنفسىَ من لايستقلُّ بنفسه ومن هو إن لم يحفظ الله ضائعُ

(١) استقل : ارتفع . وفى المقابلة بين الثريا وسهيل تورية لطيفة ، لبعد مابين هذين النجمين وبعد مابين الثريا وكانت معروفة بالحسن وبين سهيل وكان مشهوراً بالقبح . وكذلك لطف عجب الشاعر إذ يقول : عمرك الله كيف يلتقيان

وروى صاحب الاغانى من طريق آخر[1] أن سهيل بن عبد العزيز لما تزوج الثريا نقلها إلى الشام ، وأن عمر بن أبى ربيعة لما بلغه الخبر أتى المنزل الذى كانت الثريا تنزله فوجدها قد رحلت منه يومئذ ، فخرج فى أثرها فلحقها على مرحلتين ، وكانت قبل ذلك مُهاجِرته لأمر أنكرته عليه فلما أدركهم نزل عن فرسه ودفعه إلى غلامه ومشى متنكراً حتى مرّ بالخيمة ، فعرفته الثريا وأثبتت حركته ومِشيته ، فقالت لحاضنتها[2] كليه . فسلمت عليه وسألته عن حاله وعاتبته على ما بلغ الثريا عنه ، فاعتذر وبكى ، فبكت الثريا . فقالت : ليس هذا وقت العتاب مع وشْك الرحيل . فحادثها إلى طلوع الفجر ، ثم ودعها وبكيا طويلا وقام فركب فرسه ، ووقف ينظر اليهم وهم يرحلون ، ثم أتبعهم بصره حتى غابوا ، وأنشأ يقول :

يا صاحبيَّ قِفا نستخبر الطَّلَلا ... عن حال من حلّه بالأمس ما فعلا
فقال لى الربع لما أن وقفت به ... إن الخليط أجدَّ البين فاحتملا[3]
وخادعتك النوى حتى رأيتهمُ
فى الفجر يحْثثُ حادى عيسهم زَجِلا[4]

(١) ص ٢٤٤ ج ١ (٢) الحاضنة : المربية وربما قالوا الداية . لولا أن هذه الاخيرة يراد بها المرضع التى قد تظل مع الطفلة تربيها حتى تشب (٣) أجد : اعتزم ـ احتمل : رحل
(٤) يحث : يسوق ـ والزجل رفع الصوت في حداء الابل

لما وقفنا نحيّيهم وقد صرخت
هواتف البين واستولت بهم أُصلا[1]

صدت بعاداً وقالت للتي معها ... بالله لوميه فى بعض الذى فعلا
وحدثيه بما حُدِّثت واستمعى ... ما ذا يقول ولا تعيَىْ به جدلا
حتى يرى أن ما قال الوشاة له ... فينا لديه إلينا كلُّه نُقلا
وعرِّفيه به كالهزل واحتفظى ... في غير مَعْتبة أن تُغضبى الرجلا
فان عهدى به والله يحفظهُ ... وإن أتى الذنب ممن يكره العَذَلا
لو عندنا اغتيب أو نِيلت نقيصتُه
ما آبَ مغتابه من عندنا جَذِلا
قلت اسمعى فلقد أبلغت فى لَطفٍ
وليس يخفى على ذى اللب من هزلا
هذا أرادت به بخلا لأعذرها ... وقد أرى أنها لن تعدم العللا
ما سُمِّى القلب إلا من تقلُّبه ... ولا الفؤاد فؤاداً غير أن عقلا
أما الحديث الذى قالت أُتيت به ... فما عبأتُ به إذ جاءنى حِوَلا[2]

(١) الأصل : العشى تقول : لقيته أصلا ، وأصيلا وأصيلا لا وأصيلا نا
(٢) الحول : الحيلة . والمعنى أنه لم يهتم بما نقل من الحديث اذ كان يعلم أنه ليس الا حيلة لافساد مابينهما من الحب

ما إن أطعت بها بالغيب قد علمتْ

مقالةَ الكاشح الواشى إذا محلا [1]

إني لأرجعه فيها بسخطته وقد يرى أنه قد غرّنى زللا [2]

وهى قصيدة طويلة اقتطفنا بعضها فى المحاضرة الاولى عند الكلام عن إمعانه فى التيّه وإغرابه فى الصّلف

* * *

الثريا عند الوليد بن عبد الملك

لما مات سهيل عن الثريا، أو طلقها، خرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة بدمشق فى دين عليها، فبينما هى عند أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إذ دخل عليها الوليد فقال: من هذه؟ فقالت الثريا، جاءتنى تطلب اليك فى قضاء دين عليها وحوائج لها. فأقبل عليها الوليد فقال: أتروين من شعر عمر بن أبى ربيعة شيئاً؟ قالت: نعم! أما إنه يرحمه الله كان عفيفاً عفيف الشعر، أروى قوله:

ما على الرسم بالبُلَيَّين لو بيَّـ ـن رَجع السلام أو لو أجابا [3]

(١) محل: سعى بالسوء (٢) غره زللا: أوقعه فى الزلل (٣) البليان: مثنى بلى بالضم ثم الفتح وياء مشددة: وهو تل قصير أسفل حاذة بينها وبين ذات عرق كما ذكر ياقوت. وفيه يقول الخطيم العكلى:

فالى قصر ذى العشيرة فالصا ئف أمسي من الأنيس يبابا [1]

موحشاً بعد ما أراه أنيسا من أناس يبنون فيه القبابا

أصبح الربع قد تغير منهم وأجالت به الرياح الترابا

فتعفّى من الرباب فأمسى الـ ـقلب فى إثرها عميداً مصابا

وبما قد أرى به حىَّ صدقٍ ظاهرى العيش نعمةً وشبابا

وحِسانا جواريا خفراتٍ حافظات عند الهوى الأحسابا

لا يُكثّرن فى الحديث ولا يتْـ ـبَعْن ينعقْن بالبهام الظِّرابا [2]

طيّبات الاردان والنشر عِينا كمها الرمل بُدّنا أترابا

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بأعلى بلى ذى السلام وذى السدر

وهل أهبطن روض القطا غير خائف وهل أصبحن الدهر وسط بنى صخر

وابن أبى ربيعة يورده مثنى كما فى هذه القصيدة وأحياناً يورده مفردا كقوله فى مطلع قصيدة أخرى:

سائلا الربع بالبلى وقولا هجت شوقا لى الغداة طويلا

(١) ذو العشيرة: حصن صغير بين ينبع وذى المروة. والصائف: موضع حجازى قريب من ذى طوى. واليباب: الخراب (٢) النعيق: صياح الراعى بالغنم وزجرها البهام: جمع بهمة وهى أولاد الضأن والمعز والبقر ـ والظراب: صغار الجبال واحدها ظرب ككتف. ومن أسجاع الاساس: الكرام طراب، وأنتم ظراب ـ ويحسن أن يلاحظ القارىء أن الظراب فى البيت منصوبة بالفعل: يتبعن. والبيت فى جملته وصف لاولئك الحسان بالنعمة والترف

إذ فؤادى يهوى الرباب ويأبي الد

هر حتى الممات ينسى الربابا

ضربت دونىَ الحجاب وقالت فى خفاءٍ فما عييتُ جواباً

قد تنكّرت للصديق وأظهر ت لنا اليوم هجرةً واجتنابا

قلت لا بل عَداكِ واشٍ فاصبحـ ـت نَوَاراً ما تقبلين عتابا (١)

فقضى حوائجها وانصرفت بما أرادت منه . فلما خلا الوليد بأم البنين قال لها : لله دَرُّ الثريا ! أتدرين ما أرادت بانشادها ما أنشدتنى من شعر عمر ؟ قالت : لا . قال : إني لما عرّضت لها به عرّضت لى بأن أمى أعرابية (٢)

* * *

شعر عمر فى الثريا

قال عمر فى الثريا طائفة من القصائد مرّ بعضها فى هذا الحديث

(١) النوار : المرأة النفور من الريبة . والجمع نور بالضم والاصل نور بضمتين فكرهوا الضمة على الواو فسكنوها (٢) الأعراب سكان البادية . وفيهم خشونة يعابون بها قال شاعرهم :

وإنى لأهدى بالأوانس كالدمى وإنى بأطراف القنا للعوب

وإنى على ما كان من عنجهيتى ولوثة اعرابيتى لأديب

ومرت مختارات منها فى المحاضرة الأولى والثالثة ، فلنضف إليها هذه البائية :

شاق قلبى تذكر الأحباب واعترتنى نوائب الأطراب

يا خليلىّ فاعلما ان قلبى مُستهامٌ بربة المحراب (١)

علِقَ القلبُ من قريش ثقالاً ذات دلّ نقيـة الأثواب

ربةٌ للنساء فى بيت مَلْك جَدُّها حلَّ ذروة الاحساب

شفَّ عنها محقَّقٌ جَندِىٌّ فهى كالشمس من خلال السحاب (٢)

فتراءت حتى إذا جنَّ قلبى سترتها ولائذٌ بالثياب

قلت لما ضربن بالستر دونى ليس هـذا لعاشق بثواب

فأجابت من القطين فتاة ذات دلّ رقيقة بعتاب

أرسلى نحوه الوليدة تسعى قد فعلنا رضا أبى الخطاب

(١) المحراب : الغرفة وصدر البيت وأكرم مواضعه . وهو بالطبع غير المحراب بمعنى المسجد في قوله من كلمة ثانية :

دمية عند راهب ذى اجتهاد صوروها في جانب المحراب

(٢) محقق : ثوب عليه وشى على صورة الحقة . كما يقال : ثوب مرجل عليه تصاوير رجل . وفي الاساس : ثوب محقق النسج محكمه . والجندى نسبة الى الجند وهو أحد مخاليف اليمن

افعلي بالأسير إحدى ثلاثٍ ... فافهميهنّ ثم ردّي جوابي
اقتليه قتلاً سريحاً مُريحاً ... لا تكوني عليه سوط عذاب[1]
أو أقيدي فانما النفس بالنفـ ... ـس قضاءٌ مفصلا في الكتاب[2]
أو صِليه وصلاً يقرّ عليهِ ... ان شر الوصال وصل الكِذَاب

وهذه اللامية :

ياخليليّ سائِلا الأطلالا ... بالبُلَيَّيْن إن أجزن سؤالا
وسفاهٌ لولا الصبابةُ حَبْسي ... في رسوم الديار ركباً عِجالا
بعدما أوحشت من آل الثريا ... وأجدّت فيها النعاج الظّلالا
يفرح القلب إن رآك وتستـ ... ـبر عيني إذا أردت احتمالا

وقد مر باقي هذه القصيدة البديعة في المحاضرة الثالثة عند الكلام عن تلطفه في مخاطبة الغواني وتوددِه اليهن بحسن الحديث

* * *

(١) سريح : أي سريع (٢) أقيدي : انتقمي ، من القود بالتحريك وهو القصاص وتقول : استقدت الامام من القاتل فاقادني منه

جناية الثريا على ثنايا عمر

زار عمر الثريا يوما ومعه صديق له كان يصاحبه ، ويتوصل بذكره في الشعر ، فلما كشفت الثريا الستر وأرادت الخروج اليه رأت صاحبه فرجعت . فقال لها : انه ليس ممن أحتشمه ، ولا أخفي عنه شيئا واستلقى فضحك . فخرجت اليه فضربته بظاهر كفها ، وكان النساء اذ ذاك يتختّمن في أصابعهن العشر ، فأصابت الخواتيم ثنيّتيه العُليين فنَغَضتَا وكادتا تسقطان ، فقدم البصرة فعُولجتا له ، فثبتتا واسودتا ، فقال الحزين الكناني [3] يعيّره بذلك

ماباك سِنّيك أم ماباكُ كسرهما
أهكذا كُسِرا في غير ما باسِ
أم نفحةٌ من فتاةٍ كنت تألفها
أم نالها وسْط شَرْبٍ صَدْمة الكاس

ولقيه الحزين يوماً فأنشده هذين البيتين ، فقال له عمر : إذهب ،

(٣) هو عمرو بن عبيد الله بن وهيب بن مالك ، ويكنى أبا الشعثاء . من شعراء الدولة الاموية ، حجازي مطبوع وليس من فحول طبقته ، وكان هجاء خبيث اللسان . ومن شعره :

اذا لم يكن للمرء فضل يزينه ... سوى ماادعى يوماً فليس له فضل
وتلقى الفتى ضخما جميلا رواؤه ... يروعك في النادي وليس له عقل
وآخر تنبو العين عنه مهذب ... يجود اذا ما الضخم نهنهه البخل

اذهب ، ويلك ! فانك لاتحسن أن تقول :

ليت هنداً أنجزتنا ما تَعِد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجز من لا يستبد

* * *

بكاء الثريا

لما ماتت الثريا طلب الفريض من بعض الشعراء أن يقول أبياتاً ينوح بها عليها فقال :

ألا ياعين مالك تدمعينا أمن رمد بكيت فتُكحلينا
أم انت حزينةٌ تبكين شجواً فشجوك مثله أبكى العيونا

وكانت والله أهلاً لأن تبكى بغير هذا الشعر الضعيف ، لو عرف معاصروها انهم يوم دفنوها إنما غيَّبوا الثريا فى التراب !

زينب بنت موسى

كان سبب شغف ابن أبى ربيعة بزينب بنت موسى كما قال صاحب الأغانى ان ابن أبى عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ماشغل قلبه وأماله إليها ، فقال فيها الشعر وشبَّب بها . فمن ذلك هذه النونية :

ياخليلىَّ من ملام دعانى وألمّا الغداةَ بالأظعانِ
لاتلوما فى آل زينب ان الـ ـقلب رهنٌ بآل زينب عانى
ما أرى مابقيت ان أذكر المو
قف منها بالخَيْفِ إلاّ شجانى[1]

(١) الخيف ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء . وهو هنا موضع في مكة عند منى . قال نصيب :

ولم أر ليلى بعد موقف ساعة بخيف منى ترمى حمار المحصب
ويبدى الحصا منها اذا قذفت به من البرد أطراف البنان المخضب

قال ابن جنى : أصل الخيف الاختلاف وذلك ان ما انحدر من الجبل فليس شرفاً ولا حضيضاً فهو مخالف لهما . ومنه : الناس أخياف أى مختلفون . قال الشاعر :

الناس أخياف وشتى في الشيم وكلهم يجمعهم بيت الادم

لم تَدَعْ للنساء عندى نصيباً ... غير ماقلت مازحاً بلسانى [1]

هى أهل الصفاء والود منى ... وإليها الهوى فلا تعذلانى

حين قالت لأختها ولأخرى ... من قطين مُولَّد: حدِّثانى [2]

كيف لى اليوم أن أرى عمر المُر ... سِلَ سراً فى القول أن يلقانى

قالتا نبتغى رسولاً إليه ... ونميت الحديث بالكتمان

ان قلبى بعد الذى نلت منها ... كالمعنَّى عن سائر النسوان [3]

فلما بلغ ذلك ابن أبى عتيق لامه وقال له: أتنطق الشعر فى ابنة عمى؟ فقال:

إننى اليومَ عادنى أحزانى ... وتذكرت ميعتى فى زمانى [4]

وتذكرت ظبية أُم رئمٍ ... هاج لى الشوق ذكرها فشجانى [5]

لاتلمنى عتيق حسبى الذى بى ... إن بى ياعتيق ما قد كفانى

لاتلمنى وأنت زينتها لى ... أنت مثل الشيطان للانسان

(١) لما سمع ابن أبى عتيق هذا البيت قال: رضيت لها بالمودة وللنساء بالدهفشة ـ والدهفشة: التجميش والخديعة بالشىء اليسير ـ والتجميش القرص باطراف الاصابع

(٢) القطين: الخدم والاتباع: والمولد من العبيد والاماء من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم (٣) المعنى: المحبوس (٤) الميعة: أول الشباب (٥) الرئم: ولد الظبية ويجمع على آرام وأرآم

إن بى داخلاً من الحب قد أبـ ... ـلى عظامى مكنونُه وبراني

لو بعينيك ياعتيق نظرنا ... ليلة السفح قرَّت العينان

إذ بدا الكشح والوشاح من الدر ... وفصلٌ فيه من المرجان [1]

قد قَلَى قلبىَ النساء سواها ... بعد ما كان مغرماً بالغوانى

إن دهراً يلُفُّ شملى بسُعدى ... لزمانٌ يهم بالاحسانِ

ليتنى أشترى لنفسىَ منها ... مثل ودى بساعدى وبنانى

خلَجَتْ عينىَ اليمين بخير ... تلك عينٌ مأمونة الخلجانِ

قال قُدَامة بن موسى: خرجت بأختى زينب إلى العمرة فلما كانت بسرف [2] لقينى عمر بن أبى ربيعة على فرس فسلّم علىَّ. فقلت له: إلى أين أراك متوجِّهاً يا أبا الخطاب؟ فقال: ذكرت لى امرأة من قومى بَرْزة الجمال [3] فأردت الحديث معها، فقلت: هل علمت أنها أُختى؟ فقال: لا، واستحيا وثنى عنق فرسه راجعاً إلى مكة [4]

وخرج ابن أبي ربيعة يريد المسجد وخرجت زينب تريده، فالتقيا

(١) الكشح مابين الخاصرة الى الضلع الخلف ـ والوشاح: اديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها. وفصل الدر بالمرجان تفريقه فيه فيقال: وشاح مفصل. وتوصف المرأة الهيفاء بأنها غرثى الوشاح (٢) سرف على وزن كتف موضع على عشرة أميال من مكة (٣) برزة الجمال: بارزة المحاسن أو متجاهرة تبرز للقوم يجلسون اليها ويتحدثون (٤) ص ٩٩ ج ١ من الاغانى

فاتّعدا لبعض الشِّعاب فلما توسّطا الشِّعب [1] أخذتهما السماء، فكره أن يُرى بثيابها بَلَل المطر، فيقال لها: ألا استترت بسقائف المسجد إن كنت فيه؟ فأمر غلمانه فستروهما بكساء خزّ كان عليه. وفى ذلك يقول:

ومن لسقيمٍ يكتم الناس مابه ... لزينبَ نجوى صدره والوساوِسُ
أقول لمن يبغى الشفاء متى تجىء ... بزينب تُدْرِكْ بعض ما أنت لامس
فانك إن لم تشف من سَقَمى بها ... فانىَ من طب الأطباء آيسُ
ولست بناسٍ ليلةَ الدار مجلساً ... لزينب حتى يعلوَ الرأس رامس [2]
خلاءً بدت قرأوُهُ وتكشّفتْ ... دُجُنّته وغاب من هو حارسُ
وما نِلت منها محرماً غير أننا ... كلانا من الثوب المورَّدِ لابس
نجيّينِ نقضى اللهوَ فى غير مأثمٍ ... وإن رغمتْ منّا الكاشحين المعاطس [3]

ومن شعره فى زينب قوله:

طال من آل زينب الإعراض ... للتعدّى وما بها الابغاضُ
ووليدين كان عُلّقها القلـ ... ـبُ إلى أن علا الرءوس بياضُ

(١) الشعب بالكسر الطريق في الجبل (٢) الرامس: الدافن في الرمس وهو التبر
(٣) المعاطس جمع معطس وهو الانف

حبلها عندنا متينٌ وحبلى ... عندنا واهن القُوَى أنقاض [1]
نظرت يوم فرع لِفتٍ الينا ... نظرة كان رجعها إيماض [2]
حين قالت لموكب كمها الرم ... ل أطاعت له النباتَ الرياضُ
عُجْنَ نحو الفتى البغال نحيّ ... هِ بما تكتم القلوب المِراضُ
وأُحدّثه ما تضمنت منهُ ... إذ خلا اليوم للمسير المرَاض [3]

وقوله:

تصابى القلب وادّكرا ... صباه ولم يكن ذكرا
لزينب إذ تُجدّ لنا ... صفاءً لم يكن كدرا
أليست بالتى قالت ... لمولاةٍ لها ظُهرا
أشيرى بالسلام له ... اذا هو نحونا خطرا
لقد أرسلت جاريتى ... وقالت لها خذى حذرا
وقولى فى ملاطفةٍ ... لزينب نوّلى عمرا

(١) القوى: طاقات الحبل مفردها قوة. والانقاض جمع نقض بالكسر وهو الحبل الذى لم يجود فتله ولم يبرم (٢) لفت بالكسر ثنية بين مكة والمدينة
(٣) المراض مكان الرياضة. وهو هنا موضع على طريق الحجاز من ناحية الكوفة. قال ياقوت: وهناك لقى الوليد بن عقبة بن أبى معيط بجادا مولى عثمان ابن عفان رضى الله عنه فأخبره بقتل عثمان فقال:

يوم لاقيت بالمراض بجاداً ... ليت أنى هلكت قبل بجاد

فهزَّت رأسها عجباً وقالت من بذا أمرا
أهذا سِحرك النسوا نَ قد خبَّرننى الخبرا

وقوله :

ايها الكاشح المعيِّر بالصَّرْ مِ تزحزحْ فما لها الهجرانُ
لا مُطاعٌ فى آل زينب فارجع او تكلَّم حتى يملَّ اللسان
نجعل الليلَ موعداً حين نُمسى ثم نُخفى حديثنا الكتمان

كيف صبرى عن بعض نفسى وهل يصـ ـبر عن بعض نفسه الانسان
ولقد أشهد المحدَّث عند الـ ـقصر فيه تعفف وبيان [1]
فى زمان من المعيشة لَدْنٍ قد مضى عصر وهذا زمانُ

ومن شعره فيها هذه الرائية الغزلة التى عدُّوها من هفواته ورأوه ينسب فيها بنفسه ، وهي لو يعلمون من أظرف مايقوله شاعر حُلْو الشمائل فى حِسان يتلمَّسن أسباب هواه

مازال طرفى بحار اذ برزت حتى رأيت النقصان فى بصرى
ابصرتها ليلةً ونسوتها يمشين بين المقام والحجر
ما ان طمعنا بها ولا طمعت حتى التقينا ليلاً على قَدَرِ [2]

(١) المحدث : الحديث ، فهو مصدر على صيغة المفعول
(٢) على قدر : مصادفة على غير موعد

بيضاً حِساناً خرائدا قُطُفاً يمشين هَوْناً كمشية البقر [1]
قد فزن بالحسن والجمال معاً وفزن رِسلا بالدلّ والخفر [2]
قالت لِترب لها تحدّثها لنفسدنّ الطواف فى عمر
قومى تصدَّىْ له ليعرفنا ثم اغمزيه ياأخت فى خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرّت تسعى على اثرى [3]
من يُسق بعد المنام ريقتها يُسق بمسك وباردٍ خَصِرِ [4]

وقد لاحظت انه يُفيض فيما يُسبغ على زينب هذه من الاوصاف الحِسية ، كقوله :

يامن لقلب متيم كلفٍ يهذى بخود مريضة النظر [5]
تمشى الهوينا اذا مشت فُضُلاً وهى كمثل العُسْلوج فى الشجر [6]

وقوله من كلمة أخرى

خَدَلَّجة اذا انصرفتْ رأيت وِشاحها قَلِقا [7]
وساقاً تملأ الخاخا ل فيه تراه مختنقا

(١) الخرائد جمع خريدة وهى الخفرة الحيية . والقطف جمع قطوف وهى البطيئة السير . وذلك أثر الترف في النساء (٢) الرسل بالكسر الرفق واللين (٣) اسبطرت : اسرعت (٤) الخصر : البارد (٥) الخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة (٦) الفضل بضمتين المختالة التى تفضل من ذيلها ، وكان هذا في ذلك العصر عمارة النعمة ورغد العيش والعسلوج : الغصن اللين (٧) الخدلجة بتشديد اللام المرأة الممتلئة الذراعين والساقين

فاطمة بنت عبد الملك

ربما كان حديث ابن ابي ربيعة مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان أظرف مامرّ بنا من الأحاديث ، لما فيه من المفاجآت التى تمثل دهاء ربات القصور فى ذلك الحين . فقد روى صاحب الاغانى انها حجت فكتب الحجاج الى عمر بن ابى ربيعة يتوعده ان ذكرها فى شعره بكل مكروه . وكانت تحب أن يقول فيها شيئا وتتعرض لذلك ، فلم يفعل خوفاً من الحجاج . فلما قضت حجها خرجت فمرّ بها رجل فقالت له : من انت ؟ قال من أهل مكة . قالت : عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله ! قال ولِمَ ذاك ؟ قالت : حججت فدخلت مكة ومعى من الجوارى مالم تر الأعين مثلهن . فلم يستطع الفاسق ابن ابى ربيعة ان يزوّدنا من شعره ابياتا نلهو بها فى الطريق فى سفرنا . قال : فانى لاراه إلا قد فعل . قالت فأتنا بشىء ان كان فاله ولك بكل بيت عشرة دنانير . فمضى اليه فأخبره . فقال : لقد فعلت ، ولكن أحب ان تكتم علىّ ، قال : أفعل . فأنشده

راع الفؤاد تفرق الاحباب يوم الرحيل فهاج لى أطرابى
فظللت مكتئباً أكفكف عبرةً سحّاً تفيض كوابل الأسراب

لما تنادوا للرحيل وقرّبوا بُزُل الجمال لِطيةٍ وذهاب
كادالأسى يقضى عليك صبابة والوجه منك لبين إلفك كابِ

وانشده :

هاج قلى تذكر الأحباب واعترتنى نوائب الاطراب

وهى قصيدة طويلة ذكر صاحب الاغانى فى اخبار حنين ان ابن أبي ربيعة قالها في فاطمة بنت عبد الملك وذكر فى أخبار الشاعر نفسه انه قالها فى الثريا بنت على . فلنقيد ذلك فانه يؤيد ماأشرنا اليه من ان ابن أبى ربيعة غير صادق الحب ، وانه ينقل شعره من جميلة الى جميلة وَفقاً لمقتضيات الظروف ، وان الرواة وضعوا من أقاصيص عشقه ماشاء لهم الخيال ، ترويحاً لأنفس السامرين من الخلفاء والأمراء

* * *

مسابها لعمر على هتك الحرائر

ولنذكر تلك القصة الطريفة التى رواها صاحب الاغاني فى اخبار ابن ابى ربيعة ، اذ نقل انه كان جالسا بمنى فى فِناء مضربه وغلمانه حوله ، فأقبلت امرأة برزة عليها أثر النعمة ، فسلمت فردّ عليها السلام ، فقالت له : انت عمر بن ابى ربيعة ؟ فقال لها : انا هو ، فما حاجتك ؟ قالت له : حيّاك الله وقرّبك هل لك فى محادثة أحسن الناس وجهاً ، وأتمهم خلقاً ،

وأكملهم ادبا ، وأشرفهم حسبا ؟ قال : ماأحبَّ الىّ ذلك ! قالت : على شرط . قال : قولى . قالت : تمكّننى من عينيك فأشدُّهما وأقودُك حتى اذا توسّطت الموضع الذى اريد حللت الشدّ ثم أفعل ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهى بك الى مضربك . قال : شأنك . ففعلت ذلك به . فلما انتهت به الى المضرب الذى ارادت ، كشفت عن وجهه ، فرأى امرأة على كرسى لم ير مثلها قط جمالاً وكمالا . فسلم وجلس . فقالت : أنت عمر بن ابى ربيعة ؟ قال : انا عمر . قالت انت الفاضح للحرائر؟ قال : وما ذاك ، جعلنى الله فداك ! قالت : ألست القائل :

قالت وعيش ابى وحرمة والدى ... لأُبَيِّنَنَّ الحيَّ ان لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسّمت ... فعلمت أن يمينها لم تَحْرَجِ[1]
فتناولت رأسى لتعرف مسَّهُ ... بمخضَّب الأطراف غير مُشنَّجِ[2]
فلثمت فاها آخذاً بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج[3]

ثم قالت : قم فاخرج عنى ! ثم قامت من مجلسها وجاءت المرأة فشدّت عينيه وقد دخله من الكآبة والحزن ما لا طاقة له به ، وبات

(١) من الحرج وهو الضيق ، يريد انها لم تحلف معتزمة الحرص على اليمين
(٢) مشنج : متقبض (٣) القرون : أفرع الشعر — والنزيف : كالمنزوف هو الظمآن الذى جف لسانه من العطش ، أو هو المحموم الذى منع الماء — والحشرج : النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو ويطيب

ليلته . فلما أصبح اذا هو بها . فقالت : هل لك فى العَود ؟ فقال شأنكِ . ففعلت به مثل فعلها بالأمس حتى انتهت به إلى الموضع ، فلما دخل اذا بتلك الفتاة على كرسى . فقالت : إيهِ يا فضّاحَ الحرائر ! قال : بماذا ؟ جعلنى الله فداكِ ! قالت : بقولك :

وناهدة الثديين قلت لها انكى ... على الرمل من جبانة لم توسَّدِ
فقالت على اسم الله أمرك طاعةٌ ... وان كنت قد كُلِّفتُ مالم أُعوَّدِ
فلما دنا الإصباح قالت فضحتنى ... فقم غير مطرود وان شئت فازدد

ثم قالت : قم فاخرج عنى ! فقام فخرج ثم رُدَّ ، فقالت له : لولا وَشْكُ الرحيل ، وخوف الفَوْت ، ومحبّتى لمناجاتك والاستكثار من محادثتك ، لأقصيتك . هات الآن كلِّمنى وحدّثنى وأنشدنى ، فكلّم آدب الناس واعلمهم بكل شىء . ثم نهضتْ وأبطأت العجوز وخلا له البيت ، فأخذ ينظر فاذا هو بتَوْر فيه خَلوق[1] فأدخل يده فيه ثم خبأها فى رُدنه[2] وجاءت تلك العجوز فشدّت عينيه ونهضت به تقوده حتى إذا صار على باب المضرب أخرج يده فضرب بها على المضرب ثم صار إلى مضربه

(١) التور : اناء صغير . قال صاحب الاساس: ومررت بباب العمرة على امرأة تقول لجارتها : أعيرينى تويرتك . سمى بذلك لانه يتعاور ويردد ، أو سمى بالتور وهو الرسول الذى يتردد ويدور بين العشاق . ومأخذه من التارة لانه تارة عند هذا وتارة عند هذا (٢) الردن : الكم

فدعا غلمانه فقال : أيكم يقفنى على باب مضرب عليه خلوق كأنه أثر كف فهو حر ، وله خمسمائة درهم . فلم يلبث أن جاء بعضهم فقال : قم ، فنهض معه فاذا هو بالكف طرية ، واذا المضرب مضرب فاطمة بنت عبد الملك ابن مروان ، فأخذت فى أهبة الرحيل ، فلما نفرت نفر معها ، فبصرت فى طريقها بقباب ومضرب وهيئة جميلة ، فسألت عن ذلك فقيل لها : هذا عمر بن أبى ربيعة ، فساءها الأمر ، وقالت للعجوز التى كانت ترسلها اليه : قولى له نشدتك الله والرحم أن تصحبنى ، ويحك ! ما شأنك وما الذى تريد ؟ انصرف ولا تفضحنى وتشيط بدمك[1] ، فسارت العجوز اليه فأدت ما قالت لها فاطمة ، فقال : لست بمنصرف أو توجه إلىّ بقميصها الذى يلى جلدها ، فأخبرتها ففعلت ووجهت اليه بقميص من ثيابها فزاده ذلك شغفاً ، ولم يزل يتبعهم لا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف وقال فى ذلك :

ضاق الغداة بحاجتى صدرى
ويئست بعد تقارب الأمر
وذكرت فاطمة التى علقتها
عرضاً فيا لحوادث الدهر

(١) أشاط دمه وبدمه : أهدره وعرض نفسه للقتل

ممكورة رَدْع العبير بها جم العظام لطيفة الخصر[1]
وكأن فاها عند رَقْدتها تجرى عليه سُلافة الخمر
شَرِقاً بذَوْب الشهد يخلطهُ بالزنجبيل وفأرة التجر[2]
عرضت لنا بالخَيْف فى بترٍ
نقْرو الكَبَاثَ وناضِر السِّدر[3]
وجلَت أسيلاً يومَ ذى خُشُبٍ ريّان مثل فُجَاءة البدرِ[4]
فسبَتْ فؤادى إذ عرضت لها يوم الرحيل بساحة القصرِ
بمُزيَّنٍ رَدْع العبيرِ بهِ حَسَن الترائب واضح النحرِ[5]
وبجيدِ آدمَ شادنٍ خرِقٍ يرعى الرياض ببلدةٍ قَفْرِ[6]

(١) الممكورة : الحسناء المستديرة الساقين المحكمة التكوين ، والردع أثر الطيب فى الجسد — والعبير الزعفران أو اخلاط من الطيب . وجم العظام : دقيقتها مكتنزة اللحم . والقياس أن يقول : جماء . ولكن ابن أبى ربيعة كثير التساهل في ضوابط العربية

(٢) التجر : جمع تاجر والفأرة نافجة المسك . قال صاحب القاموس : أو الصواب إيراد فارة المسك في فور لفوران رائحتها أو يجوز همزها لأنها على هيئة الفأرة . وقيل لأعرابى : أتهمز الفأرة ؟ فقال : الهرة تهمزها . وغرض الشاعر من هذا البيت والذى قبله وصف ثغر المحبوبة بطيب النكهة وعذوبة المذاق (٣) تقرو : تتبع — والكباث كسحاب النضيج من ثمر الأراك — والسدر : شجر النبق (٤) الاسيل : الرقيق — وذو خشب بضمتين واد على مسيرة ليلة من المدينة له ذكر كثير في الحديث والمغازى

(٥) الترائب جمع تريبة وهي موضع القلادة من الصدر (٦) الجيد : العنق — والادم من الظباء ما فيه أدمة وهو لون مشرب بياضا ، وهي فى الانسان السمرة فيقال : رجل آدم اللون أى أسمره — والشادن : الظبى الذى شدن أى قوى واستغنى عن أمه وهو أول العهد بالمرح وجنون الشباب — والخرق هو الخائف المتحير

لما رأيت مَطيَّها حِزَقاً خَفَق الفؤاد وكنت ذا صبر (١)
وتبادرت عيناىَ بعدهمُ وانهلَّ دمعها على الصدرِ

ومن شعره فيها وقد جدَّ بها الرحيل

كدتُ يوم الرحيل أقضى حياتي ليتنى متُّ قبل يوم الرحيلِ
لا أطيق الكلام من شدة الوجْـ ـد ودمعى يسيل كالمسيلِ
ذرفت عينُها ففاضت دموعي وكلانا يلقى بلُبٍّ أصيلِ
لو خلَت خلتى أصبتُ نوالاً وحديثاً يشفى مع التنويلِ
ولظَلَّ الخلخال فوق الحشايا مثل أثناء حية مقتول (٢)
ولقد قالت الحبيبة لولا كثرة الناس جُدت بالتقبيل
ليس طعم الكافور والمسكِ شِيبا ثم عُلاً بالراح والزنجبيل (٣)
حين تَنْتابُها بأطيبَ من فيـ ـها طُروقاً إن شئت أو بالمقيل (٤)

(١) الحزق جمع حزقة بالكسر وهي الجماعة (٢) الحشايا جمع حشية وهي الفراش المحشو – وأثناء الحية مطاويها وتضاعيفها اذا تثنت ، وجرى وصفها مذكرا اذ كانت لا تقصر على التأنيث (٣) شيبا : مزجا من الشوب وهو المزج – وعلا : من العلل بفتحتين وهو الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعا ، يقابل النهل بفتحتين وهو الشرب الاول – والمراد من على الكافور والمسك بالراح والزنجبيل اضافة الأخيرين الى الاولين ليتألف منها الشراب (٤) تنتابها : تزورها . من الانتياب وهو الاتيان مرة بعد أخرى – والطروق: زيارة الليل – والمقيل : راحة الظهيرة . والشاعر يصف محبوبته بطيب الفم في وقت القيلولة وعند هدأة الليل لان هذا أدل على قوة الصبا اذ كانت الافواه تتغير عادة عند الهجوع

ذاك ظنى ولم أذق طعم فيها لا وما فى الكتاب من تنزيل
ربعةٌ أو فُويق ذاك قليلاً ونؤوم الضحى وحَقٌّ كسولِ (١)

وقال فيها أيضاً هذه الرائية :

يا خليلى شفّنى الذِّكرُ وحُمول الحيِّ إذ صدروا
ضربوا خُمر القباب لها وأديرت حولها الحُجَرُ
لو سُقى الاموات ريقتها بعد كأس الموت لانتشروا
ويكاد الحَجْل من غَصصٍ حين تستأنيه ينكسر (٢)
ويكاد العجز ان نهضت بعد طول البُهر ينبتر (٣)
أخيام البئر منزلهم أم هُمُ بالعمرة ائتمروا (٤)
أم بأعلى ذى الأراك لهم مَرْبعٌ قد جاده المطر (٥)
سلكوا شِعب النِّقاب بها زُمَرًا تحتثُّها زُمَرُ (٦)

(١) ربعة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة – ونؤوم الضحى : كناية عن الترف اذ لا تنام الضحى الا المرأة المخدومة التى يقوم وصائفها بما يعنيها من مختلف الشئون ، وهى لذلك مكسال (٢) الحجل بالكسر والفتح الخلخال – والغصص : الضيق – وتستأنيه : تثبته (٣) البهر : انقطاع النفس من الاعياء – والبتر : القطع (٤) البئر : اسم لعدة اماكن أكثرها بالمدينة . منها بئر رومة وبئر رئاب وبئر عروة وبئر غدق . ولم نعرف بالضبط مايقصد الشاعر من بين هذه الآبار (٥) وادى الاراك قرب مكة . قال ياقوت : وذو أراك في الاشعار (٦) النقاب موضع من أعمال المدينة يتشعب منه طريقان الى وادى القرى ووادى المياه – وتحتث : تسوق

وطرقت الحي مكتتماً ومعى عضبٌ به أثرُ (١)
وأخٌ لم أخش نبوته بنواحى أمرهم خَبِرُ (٢)
فاذا ريمٌ على فُرُش فى حِجال الخزّ مختدر (٣)
حوله الأحراس ترقبه نُوَّمٌ من طول ما سهروا
شَبَهُ القتلى وما قُتلوا ذاك إلا أنهم سَمَروا (٤)
فدعت بالويل آونة حين أدنانى لها النظر
ودعت حوراء آنسةً حرة من شأنها الخفر (٥)
ثم قالت للتى معها ويح نفسى قد أتى عُمر
ماله قد جاء يطرقنا ويرى الاعداء قد حضروا
لشقائي كان علّقنا ولحيني ساقه القدر (٦)
قلت عرضى دون عِرضكمُ ولمن ناواكم الحجر (٧)

(١) العضب : السيف القاطع ـ وأثر السيف افرنده (٢) النبوة : الجفوة ـ وخبر : خبير
(٣) الحجال : جمع حجلة بفتحتين وهى قبة تزين للعروس ـ ومختدر : ناعس
(٤) وسمروا من السمر وهو حديث الليل . وقد يراد به شرب الخمر
(٥) الخفر : شدة الحياء (٦) الحين بالفتح الهلاك (٧) العرض هنا النفس ومنه قول حسان :

فان أبي ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

وقد يراد به الجسد كما في الحديث (يجرى من أعراضهم مثل ريح المسك) وناواكم : من المناوأة وهى المعاداة

أزواجها

كانت فاطمة بنت عبد الملك تحت عمر بن العزيز ، فلما مات عنها تزوجها داود بن سليمان بن مروان ، وكان قبيح الوجه ، فقال فى ذلك موسى شهوات

أبعد الأغر بن عبد العزيز قَريع قريش إذا يُذكرُ
تزوجتِ داود مختارةً ألا ذلك الخلف الأعور

فكانت إذا سخطت عليه تقول : صدق والله موسى ، إنك لأنت الخلف الأعور ! — فيشتمه داود

ولفاطمة بنت عبد الملك أحاديث فى فتنة من عاصرها من الشعراء ، كنا نود ذكرها لولا إيثار الايجاز

هند بنت الحارث

هى إحدى جميلات ذلك العصر ، وهى التى أوحت إلى عمر عينيته التى قرنها القدماء إلى رائيته وفضلوه بهما على جميل ، ولنترك ابن أبي ربيعة يتكلم هذه المرة إذ كان حديثه عن هند يشبه ما يعرف بالاعتراف .

حدث مصعب بن عبد الله عن عثمان بن ابراهيم الخاطبى قال [1]

أتيت عمر بن أبي ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو فى مجلس قومه من بنى مخزوم . فانتظرت حتى تفرق القوم ، ثم دنوت منه ومعى صاحب لى ظريف ، فقال : تعال حتى نهيجه على الغزل فننظر هل بقى فى نفسه منه شىء ؟ فقلت : دونك ! فقال : يا أبا الخطاب ! لقد أحسن العذرى وأجاد فيما قال . فنظر عمر إليه ثم قال له : وماذا قال ؟ قال : حيث يقول .

(١) ورد هذا الحديث فى زهر الآداب ج ١ ص ٢٢٨ وفى امالى القالى ج ٢ ص ٥٠ وفى الاغانى ج ١ ص ١٧٤ . ومع أن المحدث واحد فقد اختلفت العبارات فى هذه الكتب الثلاثة . وقد اخترنا ما رأيناه أنسب بالسياق من غير أن نتقيد بنص بعينه

لو جُذّ بالسيف رأسى فى مودتها ... لمرّ يهوى سريعاً نحوها راسى [1]

ولو بَلِى تحت أطباق الثرى جسدى ... لكنت أبلَى وما قلبى لكم ناس

أو يقبض الله روحي صار ذكركمُ ... روحاً أعيش به ما عشت فى الناس

لولا نسيمٌ لذكراكم يروّحنى ... لكنت محترقاً من حرّ أنفاسى

فارتاح عمر إلى هذه الأبيات ثم قال : يا ويحه ! أبعد ما يُجذُّ رأسه يميل إليها !

فقلت : ولله در جُنادة العذرى ! فقال عمر : حيث يقول ماذا ويحك ! فقلت حيث يقول :

سرت لعينك سلمى بعد مغفاها ... فبت مستنبهاً من بعد مسراها [2]

فقلت أهلاً وسهلا من هداك لنا ... إن كنت تمثالها أو كنت إياها

تأتي الرياح التى من نحو بلدتكم ... حتى أقول دنت منا بريّاها

وقد تراخت بنا عنها نوًى قَذَفٌ ... هيهات مُصْبَحها من بعد مُمْساها [3]

من حبها أتمنى أن يلاقينى ... من نحو بلدتها ناع فينعاها

(١) جذ : قطع (٢) مستبه : مستيقظ (٣) نوى قذف : بعيدة . ومثلها النوى القذوف

كيما أقول فراقٌ لا لقاء له وتضمر النفس يأساً ثم تسلاها
ولو تموت لراعتني وقلت لها يا بُؤْس للدهر ليت الموت أبقاها

فضحك عمر ثم قال : وأبيك لقد أحسن وأجاد وما أبقى [1] ولقد هيجتما عليّ ساكنا ، وذكرتماني ماكان عنى غائبا ، ولأحدثنكما حديثا حلواً :

بينما أنا منذ أعوام جالس إذ أتاني خالد الخِرِّيت [2] فقال لى : يا أبا الخطاب ، مرت بي أربع نسوة قبيل العشاء يردن موضع كذا وكذا لم أر مثلهن فى بدو ولا فى حضر ، فيهن هند بنت الحارث المرية ، فهل لك أن تأتيهن متنكراً فتسمع من حديثهن ، وتتمتع بالنظر اليهن ، ولا يعلمن من أنت ؟ فقلت له ، ويحك ! وكيف لى أن أخفى نفسى ؟ قال : تلبس لبسة أعرابي ثم تجلس على قَعود فلا يشعرن إلا بك قد هجمت عليهن ، ففعلت ما قال وجلست على قعود فسلمت عليهن ثم وقفت بقربهن ، فسألنى أن أنشدهن وأحدثهن ، فأنشدتهن لكثير وجميل ، والاحوص ونصيب وغيرهم ، فقلن لى : ويحك يا أعرابى ! ما أملحك وأظرفك ! لو نزلت فتحدثت معنا يومنا هذا فاذا أمسيت انصرفت فى حفظ

(١) فى زهر الآداب انه لم يهش لهذه الابيات . وهى فيه منسوبة الى الفرزدق
(٢) هو خالد بن عبد الله القسرى وكان يترسل بينه وبين النساء وكان من أهل العبث فى صباه ـ والخريت على وزن سكيت هو الدليل الحاذق

الله ! فأنخت بعيرى ثم تحدثت معهن ، وأنشدتهن ، فسُرِرن بى وجَذِلن بقربى وأعجبهن حديثى . ثم تغامزن وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هذا الاعرابى ! ما أشبهه بعمر بن أبى ربيعة ! فقالت إحداهن : هو والله عمر ! فمدت هند يدها فانتزعت عمامتى فألقتها عن رأسى ثم قالت : هِيهِ يا عمر ! أتُراك خدعتنا منذ اليوم ! بل نحن والله خدعناك ، واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه اليك لتأتينا فى أسوإ هيئة ونحن كما ترى . ثم أخذنا فى الحديث . فقالت هند : ويحك يا عمر ! اسمع منى ، لو رأيتنى منذ أيام وأصبحت عند أهلى ، فأدخلت رأسى فى جيبى ، فاما نظرتُ إلى كَعْبَى فرأيته ملء العين وأُمنيّة المتمنّى ناديت : يا عمراه ! يا عمراه ! فصِحْتُ : يا لَبَيْكاه ! يا لَبَيْكاه ! ثلاثا ، ومددت فى الثالثة صوتى . فضحكت ، وحادثنهن ساعة ثم ودعتهن وانصرفت ، فذلك حيث أقول :

ألم تسأل الأطلال والمتربّعا ببطن حُلَيَّاتٍ دوارس بلقعا [1]
الى السَّرح من وادى المغمَّس بُدِّلتْ معالمهُ وبلاً ونكباء زَعْزَعا [2]

(١) المتربع : منزل القوم فى الربيع ـ حليات اسم موضع قرب مكة ـ دوارس جمع دارس وهو البالى ـ بلقع : قفر (٢) السرح اسم موضع ـ والمغمس : موضع قرب مكة فى طريق الطائف . مات فيه أبو رغال وقبره يرجم لانه كان دليل أبرهة صاحب الفيل ـ الوبل : المطر ـ النكباء : الريح التى تنكب عن مهاب الرياح ـ وريح زعزع : شديدة . وكذلك زعزاع وزعزوع

فيبخلن أو يخبرن بالعلم بعد ما نكأن فؤاداً كان قِدماً مفجّعا[1]
لهند وأتراب لهند اذ الهوى جميعٌ واذ لم نخش أن يتصدعا[2]
واذْ نحن مثلُ الماء كان مِزاجهُ
كما صفّق الساقي الرحيق المُشَعْشَعا[3]
وإذ لا نطيع الكاشحين ولا نرى لواشٍ لدينا يطلب الصَّرْم موضعا[4]
تُنُوعِتْن حتى عاود القلبَ سُقمهُ وحتى تذكرت الحديث المودَّعا[5]
فقلت لِمُطْرِيهن بالحسن انما
ضررت فهل تسطيعُ نفعاً فتنفعا[6]
وأَشْرَيتَ فاستشرى وقد كان قد صحا فؤادٌ بأمثال المَهَا كان مُوزعا[7]
وهيَّجتَ قلباً كان قد ودَّع الصِّبا وأشياعه فاشفع عسى أن تُشفَّعا[8]

(١) نكأ الجرح أدماه من جديد . ونكأ القلب أضرمه بالحب قبل أن يخبو به الوجد
(٢) هوى جميع : مجتمع ومجموع . ومثله حي جميع ــ والتصدع : التفرق
(٣) صفق الشراب : حوله من اناء الى اناء ليصفو ــ الرحيق : الخالص من الخمر ــ المشعشع : الممزوج . بخلاف الصرف وهو الذى لم يمزج وبخلاف المقتول وهو الذى زاد مزاجه فذهبت سورته . قال حسان :
ان التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل
كلتاهما حلب العصير فعاطنى بزجاجة أرخاهما للمفصل
(٤) الكاشحون : المبغضون ــ الصرم : القطيعة (٥) تنوعتن : فعل مبنى للمجهول من النعت وهو الوصف ــ المودع : المصون (٦) الاطراء : المبالغة في الوصف
(٧) أشراه فاستشرى : أغراه فهاج ــ موزع : مولع . وقد روى البيت بهما معا كما ذكر القالى فى أماليه (٨) أشياع الصبا هم اخوانه وأولياء مافيه من النزق والجنون

لئن كان ما حدّثتَ حقاً فما أرى
كمثل الأولى أطريت فى الناس أربعا
فقال تعال انظر فقلت وكيف لى أخاف مقاماً أن يشيع فيشنُعا[1]
فقال اكتفل ثم التثم وأت باغياً فسلِّم ولا تُكثر بأن تتورَّعا[2]
فانى سأخفى العين عنك فلا تُرى مخافة أن يفشو الحديث فيُسمعا
فأقبلت أهوى مثل ماقال صاحبى لموعده أُزْجى قَعوداً مُوَقَّعا[3]
فلما تواقفنا وسلمت أشرقت وجوهٌ زهاها الحسن أن تتقنّعا[4]
تبالهن بالعِرفانِ لمّا عرفننى وقلن امرؤٌ باغٍ أضلَّ فأوضعا[5]
وقرَّبن أسباب الهوى لمتيّم يقيس ذراعاً كلما قِسْن إصبعا

(١) يشنع : يقبح (٢) اكتفل البعير وتكفله اذا أخذ كساء فعقد طرفيه ثم القى مقدمه على كاهله ومؤخره على عجزه ثم ركب بين العقدة والسنام . واسم ذلك الكساء الكفل بالكسر ــ الباغى : الطالب (٣) أزجى : أسوق ــ بعير موقع : أنهكه الركوب فكثرت آثار الدبر عليه . وحافر موقع : وقعته الحجارة فقطعت سنابكه
(٤) يريد أنها وجوه مدلة بجمالها فلا تتقنع فتستر شيئاً عن الناظرين اليها ــ وقد أشار الى هذا المعنى الشماخ بن ضرار اذ قال يصف ناقته:
كأن ذراعيها ذراع مدلة أطارت من الحسن الرداء المحبرا
(٥) أضل بعيره : ذهب عنه ــ وفي رواية أخرى : أكل . من الكلال وهو الاعياء ــ أوضع : أسرع

فلما تنازعنا الأحاديث قلن لى ... أخِفتَ علينا أن نُغِرَّ ونخْدَعَا
لَبالأمس أرسانا بذلك خالداً ... إليك وبيَّنَّا له الشأن أجمعا
فما جئتنا إلا على وَفْق موعدٍ ... على ملأٍ منَّا خرجنا لهُ معا
رأينا خلاءً من عيون ومجلساً ... دميث الرُّبى سهل المحلة ممرعا[1]
وقلنا كريم نال وصل كرائم ... فحقَّ له فى اليوم أن يتمتّعا[2]

ولعمر فى هند شعر كثير، منه هذه الرائية

ياصاحبيَّ قِفا نستخبر الدارا ... أقوت وهاجت لنا بالنعف تذكارا[3]
تبدّل الربع ممن كان يسكنهُ ... أُدم الظباء به يمشين أسطارا[4]
وقد أرى مرةً سِرباً به حسناً ... مثل الجآذر لم يُمسَسْن أبكارا[5]
فيهنّ هندٌ وهندٌ لاشبيه لها ... فيمن أقام من الاحياء أوسارا
هيفاء مقبلةً عجزاء مُدبرةً ... تخالها فى ثياب العَصب دينارا[6]

(١) دميث : سهل ــ الربى جمع ربوة وهي ما ارتفع من الارض ــ ممرع : مخصب
(٢) وردت قصة عمر مع هند في الجزء التاسع عشر من الاغانى فى أخبار خالد القسرى من طريق آخر يختلف عما أثبتناه بعض الاختلاف
(٣) أقوت : خلت (٤) أدم جمع ادماء وهى التى أشرب لونه بياضا ــ أسطار صفوف، مفردها سطر، قال ابن مقبل

لهم ظعن سطر تخال زهاءها ... اذا ماحزاها الآل من ساعة نخلا

(٥) السرب بالكسر القطيع من الظباء والنساء وغيرها ــ الجآذر جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية (٦) العصب ضرب من البرود يعصب غزله ثم يصبغ ثم يحاك

تفترُّ عن ذى غُروبٍ طعمه ضَرَبٌ ... تخاله بردًا من مزنةٍ مارا[1]
كأن عِقد وشاحيها على رشأٍ ... يقرو من الروض روض الحزن أثمارا[2]
قامت تهادى وأترابٌ لها معها ... هوْناً تَدافُعَ سيل الزُّل إذ مارا[3]
يَمَّن مُورقة الافنان دانيةً ... وفى الخلاء فما يؤنسن ديّارا[4]
تقول ليت أبا الخطاب وافقنا ... كى نلهو اليوم أو ننشد أشعارا[5]
فلم يَرُعهنَّ إلا العيسُ طالعةً ... يحملن بالنَّعف رُكّاباً وأكوارا[6]

(١) غروب الاسنان ماؤها. وتقول كأن غروب أسنانها وميض البرق ــ والضرب: العسل الابيض ــ مار: سال (٢) يقرو: يتبع ــ والحزن: ماارتفع من الارض
(٣) سيل الزل هو الذى تزل منه الاقدام ــ ومار السيل اندفع (٤) الافنان جمع فنن بالتحريك وهو الغصن ــ مايؤنسن ديارا: لا يلقين أحداً. ويقال: مابه دارى ودیار ودورى وديور: ليس فيه أحد (٥) وافقنا: صادفنا (٦) النعف ما انحدر من حزونة الجبل وارتفع من منحدر الوادى، وهواسم لعدة أماكن منها نعف وداع، ونعف مياسر، ونعف سويقة، الذى يقول فيه الاحوص:

وما تركت أيام نعف سويقة ... لقلبك من سلماك صبراً ولاعزما

ولم يعين ابن أبى ربيعة النعف الذى يقصده، والمرجح أنه يريد نعف محسر وهو موضع بين مكة وعرفة، فقد عينه بقوله من كلمة ثانية:

وفارسٌ يحمل البازى فقلن لها

هاهم أولاء وما أكثرن إكثارا [1]

لما وقفنا وعنّنا ركائبنا بُدِّلن بالعُرف بعد الرَّجع إنكارا [2]

قلن انزلوا نَعِمتْ دارٌ بقربكمُ أهلا وسهلا بكم من زائر زارا

لمّا ألَمَّت بأصحابى وقد هجعوا حسبتُ وسط رحال القوم عطارا

من طيب نشر التى تامتك إذ طرقت

ونفحة المسك والكافور إذ ثارا

فقلت من ذا المحيّى وانتبهت لهُ ومَن محدِّثنا هذا الذى زارا [3]

قالت محبٌّ رماه الحب آونةً وهيّجته دواعى الحب إذ ثارا

حُلّى إزارك سُكنَى غير صاغرة إن شئت واجزى محبًّا بادى سارا

ومقالها بالنعف نعف محسر لفتاتها هل تعرفين المعرضا

هذا الذى أعطى مواثق عهده حتى رضيت وقلت لى لن ينقضا

والأكوار جمع كور وهو رحل الناقة بأداته (١) البازى ضرب من الصقور. وحمل البازى اشارة الى الخروج للصيد (٢) عنا ركائبنا: حبسناها بالأعنة

(٣) يلاحظ أن كلمة «مار» تكررت وكذلك كلمة «زار» وهو عيب في الشعر يسمى الايطاء، والعرب تستقبحه لدلالته على ضعف مادة الشاعر. ومن القدماء من أجازه للعرب وحرمه على المولدين، ومنهم من لايستقبحه الا اذا كثر. على انه ينبغى أن نذكر ما أشرنا اليه من أن ابن أبى ربيعة كثيرا مايتسامح في ضوابط الشعر واللغة كما كثر شعراء العصر الاموى

فقد تجشّمتُ من طول السُّرى تعباً

وفى الزيارة قد أبلغت أعذارا

إن الكواكب لا يشبهن صورتها وهنّ أسوأ منها بعدُ أخبارا [1]

وفيها أيضا يقول:

هاج القريضَ الذِّكرُ لما غدوْا فابتكروا

على بغالٍ شُحّجٍ قد ضمهنّ السفر [2]

فيهنّ هندٌ ليتنى ما عُمِّرتْ أعمَّر [3]

حتى إذا ما جاءها حَتفٌ أتانى القدر [4]

ومن شعره فى هند تلك الدالية التى استطال بها على الحزين الكنانى وقد أشرنا إلى ذلك فى أخبار الثريا، والتى كانت فيما بعد سبباً لثورة الرشيد بالبرامكة، وتمزيقهم كل ممزّق، حين دسّ إليه خصومهم من غنّاه:

ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد

---

(١) وما هي أخبار الكواكب ياسيدنا عمر! (٢) شحج جمع شاحج. والشحاج: صوت البغل (٣) عمر: عاش طويلا وهو مبنى للمجهول، ومنه: المعمرون

(٤) يتمنى أن تكون حياته وفق حياة محبوبته حتى لايقع في حيرة نصيب اذ يقول:

أهيم بدعد ماحييت فان أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى

واستبدت مرة واحـدةً إنما العاجز من لايستبد

فلنذ كرها هنا كاملة لاهميتها فى الادب والتاريخ — قال

زعموها سألت جاراتِها وتعرت ذات يوم تبترد[1]

أ كما ينعتنى تبصرننى عمركنّ الله أم لا يتئد

فتضاحكن وقد قلن لها حسنٌ فى كل عين من تود

حسداً حُمِّلنه من أجلها وقديما كان فى الناس الحسد

غادة تفترّ عن أشنبها حين تجلوه أقاح أو بَرَد[2]

ولها عينان فى طرفيهما حَوَرٌ منها وفى الجيد غَيَد[3]

طَفْلَةٌ باردة القيظ إذا معمعان الصيف أضحى يتقد[4]

(١) هذه رواية الديوان طبع ليبسك . وقد أثبتناه فيما سلف كما رواه الاغانى :

ولقد قالت لجارات لها ذات يوم وتعرت تبترد

وابترد الماء : صبه عليه باردا . أو شربه ليبرد به كبده . والمراد المعنى الاول

(٢) الغادة : المرأة الناعمة اللينة — والأشنب : من الشنب بالتحريك وهو برد ورقة وعذوبة في الاسنان — والاقاحى جمع الاقحوان وهو زهر ابيض تشبه به الاسنان — والبرد بالتحريك حب الغمام (٣) الحور : شدة بياض العين مع شدة سوادها أو هو اسوداد كلها كما في الظباء ، ولايكون في الانسان وانما يستعار له — والغيد : الميل . وغيد كفرح مالت عنقه ولانت أعطافه . والغيداء : المتثنية لينا . وتغايدت : تمايلت والاغيد من النبات الناعم المتثنى . والانسان الاغيد هو الذى يتهادى من النعومة واللين

(٤) الطفل بالفتح الرخص الناعم من كل شيء — القيظ : الحر . أو هو صميم الصيف . وقاظ اليوم اشتد حره

سُخنة المشتى لحافٌ للفتى تحت ليل حين يغشاه الصَّرَد[1]

ولقد أذكر إذ قلت لها ودموعى فوق خدى تطّرد

قلت من أنت فقالت أنا من شفّه الوجد وأبلاه الكمد

نحن أهل الخيف من أهل منى ما لمقتول قتلناه قَوَد[2]

قلت أهلاً أنتمُ بغيتنا فتسمَّين فقالت أنا هند

إنما ضُلِّل قلبى فاحتوى صعدةً فى سابرىٍّ تطّرد[3]

إنما أهلك جيران لنا إنما نحن وهم شيءٌ أحد

حدثونى أنها لى نفثت عُقداً حبذا تلك العقد[4]

كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هندٌ وقالت بعد غد

وبمناسبة ما كان من سعى عمر الى أتراب هند نذكر مانقله صاحب الأغانى عن الحارث بن خالد اذ قال[5] :

(١) الصرد : البرد (٢) القود : القصاص (٣) الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك — والسابرى : ثوب رقيق جيد — والشاعر يصف محبوبته بأنها قناة تتمايل في ثوب رقيق (٤) جاء في القرآن الاستعاذة « من شر النفاثات في العقد » وهن السواحر والنفث في العقدة يكون عند الرقية . والشاعر يحدثنا أنها سحرته وأنه بهذا السحر مغتبط جذلان ، والنفث : النفخ ، والنفاثة بالضم ماينفث المصدور من فيه . وهذا من نفاثات فلان : من شعره ، وكانوا يرون الشعر من نفث الشيطان

(٥) ج ٦ ص ٨٥

بلغنى أن الغريض خرج مع نسوة من أهل الشرف ليلا إلى بعض المتحدّثات من نواحى مكة وكانت ليلة مقمرة ، فاشتقت اليهن والى مجالستهن ، وإلى حديثهن ، وخفت على نفسى لجناية كنت أُطالَب بها ، وكان عمر مهيباً معظماً لا يقدم عليه سلطان ولا غيره ، وكان منى قريباً ، فأتيته فقلت له : ان فلانة وفلانة وفلانة ، حتى سميتهن كلهن ، قد بعثنى ، وهن يقرأن عليك السلام ، وقد تشوقنا اليك فى ليلتنا هذه لصوت أنشدَناه فُوَيْسِقُك الغريض — وكان الغريض يغنى هذا الصوت فيجيده ، وكان ابن أبى ربيعة به معجباً ، وكان كثيراً ما يسأل الغريض أن يغنيه ، وهو

أمسى بأسماء هذا القلب معمودا ... إذا أقول صحا يعتاده عِيدا[1]
كأن أحور من غزلان ذى بقر ... أهدى لها شبَهَ العينين والجِيدا[2]
قامت تَراءى وقد جد الرحيل بنا ... لتنكأ القرح من قلب قد اصطِيدا
كأننى يوم أُمسى لا تكلمنى ... ذو بغية يبتغى ماليس موجودا[3]

(١) معمود : مقتول (٢) ذو بقر : واد بين أخيلة حمى الربذة

(٣) قال الوليد بن يزيد بن عبد الملك لأصحابه ذات ليلة : أى بيت قالته العرب أغزل؟ فقال بعضهم قول جميل :

يموت الهوى منى اذا ما لقيتها ... ويحيا اذا فارقتها فيعود

وقال اخر قول عمر بن أبى ربيعة :

أجرى على موعد منها فتخلفنى ... فما أملُّ وما توفى المواعيدا
قد طال مَطلى لو أن اليأس ينفعنى ... أو أن أصادف من تلقائها جودا

فلما أخبرته الخبر قال : لقد أزعجتنى في وقت كانت الدعة أحب فيه الىّ ولكن صوت الغريض ، وحديث النسوة ، ليس له متْرك ، ولا عنه محيص . فدعا بثيابه فلبسها وقال : امض ! فمضينا نمشى العَجَل حتى قربنا منهن . فقال لى عمر : خَفِّض عليك مشيك . ففعلت ، حتى وقفنا عليهن ، وهن فى أطيب حديث وأحسن مجلس . فسلمنا ، فتهيّبننا وتخفّرن منا ، فقال الغريض : لا عليكن ! هذا ابن أبى ربيعة والحارث بن خالد جاءا متشوّقين إلى حديثكن وغنائى . فقالت فلانة : وعليك السلام يا ابن أبى ربيعة ! والله ماتم مجلسنا الا بك ، اجلسا ، فجلسنا غير بعيد ، وأخذن عليهن جلابيبهن وتقنعن بأخمرتهن وأقبلن علينا بوجوههن وقلن لعمر : كيف أحسست بنا وقد أخفينا أمرنا ؟ فقال : هذا الفاسق جاءنى برسالتكن ، وكنت وقيذاً من علة وجدتها[1] ، فأسرعت الاجابة ، ورجوت منكن على ذلك حسن الاثابة ، فرددن عليه : قد وجب

كأننى حين أمسى لاتكلمنى ... ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا

فقال الوليد حسبك والله بهذا ! (١) الوقيذ كالموقوذ هو الشديد المرض المشرف على الهلاك

أجرك ، ولم يخب سعيك ، ووافق منا الحارث إرادة . فحدثهن بما قلت له من قصة غناء الغريض فقال النسوة : والله ما كان ذلك كذلك ، ولقد نبهتنا على صوت حسن ، يا غريض ! هاته ! فاندفع الغريض يغنى ويقول :

أمسى بأسماء هذا القلب معمودا إذا أقول صحا يعتاده عيدا

حتى أتى على الشعر كله ، إلى آخره ، فكل استحسنه ، وأقبل علىّ ابن أبى ربيعة فجزانى الخير ، وكذلك النسوة ، فلم نزل بأنعم ليلة وأطيبها حتي بدأ القمر يغيب ، فقمنا جميعاً ، وأخذ النسوة طريقاً ، ونحن طريقاً ، وأخذ الغريض معنا ، وقال عمر فى ذلك :

هل عند رسم برامةٍ خبرُ أم لا فأى الأشياء تنتظر
وقفت فى رسمها أسائله والدمع مثل الجمان مُنْحدر
قد ذكّرتنى الديار إذ درست
والشوق مما يهيجه الذِّكَرُ
لا أنسَ طول الحياة ما بقيت بطيبةٍ روضة لها شجر
تمشى فتاة إلىّ تخبرنى عنهم عشاءً ببعض ما ائتمروا
ومجلس النسوة الثلاث لدى الـ ـخيمات حتى تبلّج السَّحَرَ

فيهن هند والهم ذِكرتها تلك التى لا يُرى لها خَطَرَ (١)
ثم انطلقنا وعندنا ولنا فيهن لو طال ليلنا وطر
وقولها للفتاة إذ أزف الـ ـبين أغادٍ أم رائحٌ عمر
عجلان لم يقض بعض حاجته ألا تأنّى يوماً فينتظر
الله جارٌ له وإن نزحت دار به أو بدا له سفر

* * *

وإلى هنا نكتفي بما قدمنا للقارىء من أخبار الملاح ، وإن يكن للحديث بقايا أطيب من عبث الشباب على ضِفاف النيل !

(١) المراد انه ليس لها مثيل

رائية ابن أبي ربيعة

لقد بحثنا لنعرف فيمن قيلت هذه القصيدة ، ولكننا لم نصل بعد إلا إلى فروض بعضها يشبه اليقين . فمن الممكن أن تكون قيلت فى عائشة بنت طلحة كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فقد سهرت ليلة لهمٍّ ألم بها فقالت : إن ابن أبى ربيعة لجاهل بليلتى هذه حيث يقول :

وأعجبها من عيشها ظلُّ غرفة ... وريّان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شىء يهمها ... فليست لشىء آخر الليل تسهر

وقد قلنا إنه لو لم يعنها بهذه الاشارة لما رجّعتها حين قهرها الحزن فى هَدْأة الليل .

ولكن أستاذنا الدكتور طه يرى أنها إنما تمثلت بهذا الشعر لا أكثر ولا أقل . وفى الحق أن ما فى القصيدة من الحوادث يُبعد أن تكون قيلت فى عائشة بنت طلحة ، وان لم يبعد أن يكون الشاعر عناها ببعض أطراف الحديث ، فقد نهاه قومها عن ذكرها فى شعره وحمله وعيدهم على الاكتفاء بالتلميح

وقد ذكر صاحب الأغانى أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله

ابن عباس شعره فى الثريا ، فلما عدنا إلى حديث عمر مع ابن عباس وجدناه لم ينشده إلا قصيدتين : أولاهما داليته :

تشط غداً دار جيراننا ... وللدار بعد غدٍ أبعدُ

وأخراهما رائيته :

أمن آل نعم أنت غاد فمبْكر ... غداة غد أم رائح فمهجّر

أما الدالية فقد ذكر أنه قالها فى فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية ، ولم يقل فيمن قال الرائية : أفنحسبه قالها فى الثريا ؟ المقدمات ترجح ذلك ، ولكنها لا تفيد اليقين .

وقد نص صاحب الأغانى فى الجزء الرابع [1] أنه قالها فى امرأة من قريش يقال لها نُعم كان كثيراً لذكرها فى شعره ، وكانت تكنى أم بكر وهي من بنى جُمح . ويؤيد هذا أن الشاعر ذكر نُعْما هذه فى القصيدة ، وان لم يبعد أن يكون عَنَى غيرها فى أثناء القصيد

* * *

وقد حاولنا التثبت من نعم التى قيلت فيها هذه الرائية فلم نجد غير أخبار مقتضبة : منها أن ابن أبى ربيعة وابن أبى عتيق كانا جالسين

(١) ص ٣٦ طبع بولاق

بفِناء الكعبة فمرت بهما امرأة من آل أبى سفيان فدعا عمر بكتاب فكتب اليها وكنى عن اسمها

ألِمَّا بذات الخال فاستطلعا لنا ... على العهد باقٍ ودها أم تصرَّما
وقولا لها إن النوى أجنبيَّةٌ ... بنا وبكم قد خفت أن تتيمَّما (١)

فقال له ابن أبى عتيق : سبحان الله ! ماتريد إلى امرأة مسلمة مُحرِمة أن تكتب إليها مثل هذا ! قال : فكيف بما قد سيَّرته فى الناس من قولى :

لقد حبَّبت نعمٌ إلينا بوجهها ... مساكن مابين الوتائر والنَّقْع (٢)
ومن أجل ذات الخال أعملت ناقتى ... أكلِّفها سير الكَلال مع الظلع (٣)
ومن أجل ذات الخال يوم لقيتها ... بمندفع الأخباب أخضلنى دمعى (٤)
ومن أجل ذات الخال آلف منزلاً ... أحل به لا ذا صديق ولا زرع

(١) أجنبية : عصية صعبة المرأس (٢) الوتائر : موضع بين مكة والطائف ــ والنقع : موضع قرب مكة في جنبات الطائف ، ذكره العرجى اذ يقول :

لحبى والبلاء لقيت ظهرا ... بأعلى النقع أخت بنى تميم
فلما أن رأت عيناى منها ... أسيل الخد من خلق عميم
حنى أترابها دونى عليها ... حنو العائدات على السقيم

(٣) الكلال : الاعياء ــ الظلع : الغمز في المشى أو هو العرج (٤) الأخباب : موضع قرب مكة ، وقيل بلد بجنب السوارقية من ديار بنى سليم ــ وأخضله الدمع : بلله

ومن أجل ذات الخال عدت كأننى ... مخامر داءٍ داخل أو أخو رِبع (١)
ألما بذات الخال ان مقامها ... لدى الباب زاد القلب صدعا على صدع
وأخرى لدى البيت العتيق نظرتها ... اليها تمشت فى عظامى وفى سمعى

وحدث مصعب بن عبد الله أن عمر وافقها وهى تستلم الركن ، فقرب منها ، فلما رأته تأخرت وبعثت إليه جاريتها فقالت له : تقول لك ابنة عمك : إن هذا مقام لابد منه كما ترى ، وأنا أعلم انك ستقول فى موقفنا هذا ، فلا تقولنّ هُجرا (٢) . فأرسل إليها : لست أقول إلاّ خيراً . ثم تعرّض لها وهى ترمى الجمار فأعرضت عنه واستترت فقال :

دِين هذا القلب من نُعم ... بسقامٍ ليس كالسُّقْمِ
إن نُعما أقصدت رجلاً ... آمناً بالخيف إذ ترمى

وحدث مصعب أيضاً أنه قيل لعمر بن أبى ربيعة : ما أحب شىء أصبتَه إليك ؟ قال : بينا أنا فى منزلى ذات ليلة إذ طرقنى رسول مصعب بن الزبير بكتابه يقول : انه قد وقعت عندنا أثواب مما يشبهك وقد بعثت بها إليك وبدنانير ومسك وطيب وبغلة . قال : فاذا

(١) خامره الداء لازمه ــ والربع بالكسر الحمى تأخذ يوما وتدع يومين ثم تجىء في اليوم الرابع (٢) الهجر بالضم الفحش . ويقال : من أكثر أهجر ، أى نطق بالهجر . ورماه بالهاجرات والمهجرات : بالفواحش . والهاجرات : الكلمات التى فيها فحش

بثياب من وشى وخزّ العراق لم أر مثلها قط ، وأربعمائة دينار ومسك وطيب كثير وبغلة ، فلما أصبحت لبست بعض تلك الثياب ، وتطيبت ، وأحرزت الدنانير وركبت البغلة وأنا نشيط لاهمّ لى قد أحرزت نفقة سنتى ، فما أفدت فائدة كانت أحبّ إلىّ منها ، وقلت فى ذلك :

ألا أرسلت نعمٌ إلينا أن ائتنا ... فأحببْ بها من مُرسل متعصّب (١)
فأرسلتُ أن لا أستطيع فأرسلت ... توكّد أيمان الحبيب المؤنّب
فقلت لجنّادٍ خذ السيف واشتمل ... عليه بحزم وانظر الشمس تغرب
وأسْرج لىَ الدّهماء واعْجل بمطرى
ولا يعلمن خَلقٌ من الناس مذهبي (٢)
وموعدنا البطحاء أو بطن يأجج
أو الشِّعب ذو المسروح من بطن مغرب (٣)
فلما التقينا سامت وتبسمت ... وقالت مقال المعرض المتجنّب
أمن أجل واش كاشح بنميمة ... مشى بيننا صدقته لم تكذّب

(١) المتعصب : الذى شد العصابة وتقنع (٢) الدهماء : يريد بها الفرس . من الدهمة وهي السواد — والممطر والممطرة بكسرهما ثوب صوف يتوقى به من المطر (٣) البطحاء فى الاصل المسيل الواسع فيه دقاق الحصى ، وهو اسم لعدة مواضع منها بطحاء مكة — يأجج : مكان على ثمانية أميال من مكة

قطعت حبال الوصل منا ومن يطع ... بذى وده قول المحرّش يعتب (١)
فبات وسادى ثنىَ كفٍّ مخضّبٍ ... معاودَ عذب لم يكدّر بمشرب
إذا مِلت مالت كالكثيب رخيمةً ... منعّمةً حُسّانة المتجلْبَبِ (٢)

وحدث أيضاً أن عمر بن أبى ربيعة بلغه أن نُعما اغتسلت فى غدير فنزل عليه ولم يزل يشرب منه حتى نضب . ولعل هذا الحديث من أظرف ما صاغ الخيال !

وقد روى أنها استقبلت عمر فى المسجد الحرام وفى يدها خَلوق من خلوق المسجد (٣) فمسحت به ثوبه ومضت وهي تضحك ، فقال :

أدخل الله ربُّ موسى وعيسى ... جنة الخلد من ملانى خَلوقا
مسحته من كفها فى قميصى ... حين طافت بالبيت مسحاً رفيقا
غضبتْ ان نظرتُ نحو نساءٍ ... ليس يعرفنى ولكن طريقا
وأرى بينها وبين نساءٍ ... كنت أهذى بهن بَوناً سحيقا (٤)

ومن جيد شعره فى نعم هذه الأبيات

أيها القلب لا أراك تُفيقُ ... طالما قد تعلقتك العَلوق

(١) المحرش : المحرض على الفساد (٢) الحسانة بالضم الجميلة
(٣) الخلوق : ضرب من الطيب (٤) بون سحيق : فرق بعيد

هل لك اليوم إن نأت أمُّ بكر وتولّت إلى عزاءٍ طريقُ
من يكن مِن هوَى حبيبٍ قريباً
فأنا النازح البعيد السحيقُ[1]
قُدِّر الحب بيننا فالتقينا وكلانا إلى اللقاء مشوق
فالتقينا ولم نخف مالقينا ليلة الخيف والمنى قد تسوق
وجرى بيننا فجدَّد وصلاً حُوَّلٌ قُلَّبٌ اللسان رفيق
لا تظنى أن التراسل والبذ لَ لكل النساء عندى يليق
إن منهن للكرامة أهلا والذى بينهن بَوْنٌ سحيق

* * *

أسلفنا أن عمر أنشد ابن عباس رائيته ، فلنذكر ما رواه صاحب الأغانى فى ذلك ، قال :

بينا ابن عباس فى المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين موردّين حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس فقال : أنشدنا فأنشده .

(١) ذكر صاحب الاغانى أن هذا البيت ليس من شعر عمر بل أضافه المغنون

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجّر

حتى أتى على آخرها . فأقبل عليه نافع بن الازرق فقال : الله يا ابن عباس، إنا نضرب إليك أكباد الابل من أقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مُترَف من مترفى قريش فينشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشى فيخسَرُ

فقال : ليس هكذا قال . قال : فكيف قال ؟ فقال : قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت
فيضحى وأما بالعشىّ فيخصَر

فقال : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ! قال : أجل ! وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها . قال : فانى أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها — ولامه بعض أصحابه فى حفظ هذه القصيدة فقال : إنا نستجيدها .

وكان بعد ذلك كثيراً ما يقول : هل أحدث هذا المغيرىُّ شيئاً بعدنا ؟[1]

(١) حديث عمر مع ابن عباس روى من طرق مختلفة وعلى صور متعددة ، وما أثبتناه هو أوضح صور ذلك الحديث

ولم يقف أثر هذه القصيدة عند إعجاب ابن عباس ، فقد أنشدها عمر طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرى وهو راكب فوقف وما زال شانقاً بغلته حتى كُتبت له . وكان جرير إذا أنشد شعر عمر بن أبى ربيعة قال : هذا شعر تهامىٌّ إذا انجد وجد البرد ، حتى أنشد أبياتاً من هذه القصيدة فقال : ما زال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر .

وقال الرشيد للأصمعى : أنشدنى أحسن ما قيل فى رجل قد لوّحه السفر ، فأنشده :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت
فيضحى وأما بالعشىِّ فيخصرُ
أخاسفر جوّاب أرض تقاذفت به فلَوات فهو أشعث أغبر
قليلاً على ظهر المطية رحلهُ سوى ما نقى عنه الرداء المحبَّر

فقال الرشيد : أنا والله ذلك الرجل . وكان هذا بعقب قدومه من بلاد الروم . فهذا دليل على أن أولئك الرجال كانوا يرون أنفسهم وحوادثهم مصورة فى هذه القصيدة

وكان ابن أبى ربيعة نفسه يراها من خير شعره ، فقد حجّ فى سنة من السنين ، فلما انصرف من الحج لقى الوليد بن عبد الملك وقد فُرش له فى ظهر الكعبة وجلس ، فجاءه فسلم عليه ، وجلس إليه ، فقال له

أنشدنى شيئاً من شعرك . فقال يا أمير المؤمنين ، أنا شيخ كبير وقد تركت الشعر ، ولى غلامان هما عندى بمنزلة الولد ، وهما يرويان كل ما قلت وهما لك ، قال : إئتنى بهما . ففعل . فأنشداه هذه الرائية ، فطرب الوليد واهتز لذلك ، ولم يزالا ينشدانه حتى قام ، فأجزل صلته ورد الغلامين إليه

ونحسب أن ما أسلفناه يكفى للتمهيد لهذه القصيدة ، فلنقدمها للقارىء مصحوبة بالشرح والتفسير — قال :

أمن آل نُعْم أنت غاد فمبكر غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجِّرُ[1]
بحاجة نفس لم تقل فى جوابها فتُبلغ عذراً والمقالة تُعذرُ[2]
تهيم إلى نعم فلا الشمل جامعٌ
ولا الحبل موصول ولا القلب مُقصر
ولا قرب نُعْم إن دنت لك نافع ولا نأيها يُسْلى ولا أنت تصبر
وأخرى أتت من دون نعم ومثلُها نهى ذا النهى لو ترعوى أو تفكّر[3]

(١) غاد فمبكر : من الغدوة والبكرة وهما الوقت بين ظهور الفجر وطلوع الشمس . وفي القاموس : بكر عليه واليه وفيه بكوراً ، وبكّر ، وابتكر ، وأبكر ، وباكره : أتاه بكرة . وكل من بادر إلى شيء فقد أبكر اليه فى أى وقت كان — والرائح : الذى يسير في الرواح وهو العشى أو من الزوال الى الليل . والمهجر الذى يسير في الهاجرة وهي شدة الحر (٢) تعذر : تظهر العذر (٣) النهى بالضم العقل ، ويكون جمع نهية بالضم أيضاً وهي العقل — وارعوى الرجل أقصر عن غيه

إذا زرت نعما لم يزل ذو قرابة ... لها كلما لاقيتها يتنمّرُ (١)

عزيزٌ عليه أن أُلِمَّ ببيتها ... يُسرُّ لى الشحناء والبغض مظهر (٢)

أَلِكْنى إليها بالسلام فانه ... يُشهَّر إلمامى بها وينكَّر (٣)

بآية ماقالت غداة لقيتها ... بمدفع أكنانٍ أهذا المشهَّر (٤)

أشارت بمدراها وقالت لأختها ... أهذا المغيرىُّ الذى كان يُذكر (٥)

أهذا الذى أطريتِ نعتاً فلم أكن ... وعيشك أنساه إلى يوم أُقبَرُ (٦)

فقالت نعم لاشكَّ غيَّرَ لونَهُ ... سُرَى الليل يحيى نصه والتهجُّرُ (٧)

لئن كان إياه لقد حال بعدنا ... عن العهد والانسان قد يتغيَّرُ

(١) يتنمر : يغضب ويثور ، والفعل فى الأصل مأخوذ من التشبه بالنمر لانه لايلقى الا متنكرا غضبان (٢) ألم ببيتها : أنزل به أو أمر عليه ـ والشحناء : العداوة ، وشاحنه : باغضه

(٣) ألكنى اليها : احمل اليها ألوكتى ومألكتى وهي الرسالة ـ ويشهر : يذاع ، يقال شُهر بكذا واشتهر به واشتُهِر وشهره وشهَّره فهو مشهور وشهير ومشهر

(٤) مدفع اكنان : اسم موضع والمدفع فى الاصل مجرى الماء حيث يندفع السيل ويجمع على مدافع ، ومنه مدافع الريان في قول لبيد

فمدافع الريان عرى رسمها ... خلقاً كما ضمن الوحى سلامها

(٥) هكذا روى صاحب الاغانى الشطر الاول من هذا البيت وفي الديوان « قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه » والظاهر أن رواية الاغانى اصح اذ عرفها المتقدمون كذلك حيث قال جميز : امرأته طالق ان كانت أشارت اليه بمدراها الا لتفقأ بها عينه الخ (٦) الاطراء : حسن الثناء ، والنعت : الوصف (٧) نص السرى : اسراعه ـ والتهجر : السير في الهاجرة وهي شدة الحر

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت ... فيضْحَى وأما بالعشىِّ فيخصَر (١)

أخا سفر جوّاب أرض تقاذفت ... به فلواتٌ فهو أشعث أغبر (٢)

قليلٌ على ظهر المطية ظلُّهُ ... سوى مانفى عنه الرداء المحبَّر (٣)

وأعجبها من عيشها ظل غُرفةٍ ... وريّان ملتف الحدائق أخضر

ووَالٍ كفاها كل شىء يهمها ... فليست لشىء آخرَ الليل تسهر

* * *

وليلة ذي دَوران جشَّمتنى السُّرَى ... وقد يجشَم الهول المحب المغرَّرُ (٤)

فبت رقيباً للرفاق على شفاً ... أحاذر منهم من يطوف وأنظر (٥)

إليهم متى يستمكن النوم منهمُ ... ولى مجلسٌ لولا اللُّبانة أوعر (٦)

وباتت قلوصى بالعَراء ورحلها ... لطارق ليل أو لمن جاء مُعوِر (٧)

(١) يضحى : تصيبه الشمس ـ وتخصر : يصيبه الخصر بالتحريك وهو البرد

(٢) جواب ارض : من الجوب وهو القطع ـ والفلوات جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة

(٣) المحبر : المحسن الجميل (٤) ذو دوران بفتح فسكون موضع بين قديد والجحفة والتجشيم التكليف (٥) على شفا : على حذر (٦) اللبانة : الحاجة ـ والاوعر : من الوعورة وهي الخشونة (٧) القلوص : الناقة الفتية ـ والعراء : الفضاء ـ ومعور : ظاهر يقال : أعور الفارس اذا بدا منه موضع خلل للضرب

وبت أناجى النفس أين خِباؤها ... وكيف لما آتى من الأمر مصدر (١)

فدلّ عليها القلبَ ريّا عرفتها ... لها وهوى النفس الذى كاد يظهر (٢)

فلما فقدت الصوت منهم وأُطفئت ... مصابيحُ شبّتْ بالعشاء وأنؤر (٣)

وغاب قُمير كنت أهوى غُيُوبهُ ... وروّح رُعيانٌ ونوّم سُمّرُ (٤)

وخُفّضَ عنى الصوت أقبلت مِشية الـ ... ـحُباب وشخصى خشية الحىّ أزور (٥)

فحييت إذ فاجأتها فتولّتْ ... وكادت بمخفوض التحية تجهر (٦)

وقالت وعضت بالبنان فضحتنى ... وأنت امرؤٌ ميسور أمرك أعسر (٧)

أريتَك إذ هُنّا عليك ألم تخف ... وقِيت وحولى من عدوك حُضّر

فوالله ما أدرى أتعجيل حاجةٍ ... سرت بك أم قد نام من كنت تحذر

فقلت لها بل قادنى الشوق والهوى ... إليك وما نفسٌ من الناس تشعر

---

(١) المصدر يقابل المورد، وموارد الامور : طرق الاقبال عليها . ومصادرها مسالك الانصراف عنها . والشاعر يذكر كيف بات حيران لايدرى كيف يصدر اذا قدر له الورود (٢) الريا : هي الريح الفائحة التى رويت من الطيب . قال المتلمس :

فلو أن محموما بخير مدنفا ... تنشق رياها لأقلع صالبه

(٣) انؤر : جمع نار (٤) روح الرعيان عادوا الى بيوتهم ــ ونوم : نام، والتضعيف للمبالغة لاللتعدية، ومثله قول ابن مقبل

ثم نومن ونمنا ساعة ... خشع الطرف سجودا في الخطم

(٥) والسمر : الذين يتحدثون بالليل (٥) الحباب كغراب الحية ــ وازور : مائل (٦) توهلت : قهرها الحزن (٧) تريد أن يسره عسر اذ كان هدفا للرقباء

فقالت وقد لانت وأفرخَ روعها ... كَلاكَ بحفظٍ ربك المتكبّر (١)

فأنت أبا الخطاب غير مُدافعٍ ... علىّ أميرٌ ما مكثت مُؤمّرُ

فيالكَ من ليل تقاصر طولهُ ... وما كان ليلى قبل ذلك يقصُرُ

ويالكَ من ملهًى هناك ومجلسٍ ... لنا لم يكدره علينا مكدّرُ

يَمُجُّ ذكىّ المسك منها مفلّجٌ ... نقىُّ الثنايا ذو غُرُوبٍ مؤشّرُ (٢)

تراه إذا ما افترّ عنه كأنهُ ... حَصَى بَرَدٍ أو أُقحوان منوّرُ (٣)

وترنو بعينيها إلىّ كما رنا ... إلى ظبية وسط الخميلة جُؤذرُ (٤)

فلما تقضّى الليل إلا أقلّهُ ... وكادت توالى نجمه تتغوّرُ (٥)

أشارت بأن الحىّ قد حان منهمُ ... هبُوبٌ ولكن موعِدٌ لك عزْوَرُ (٦)

---

(١) أفرخ روعها: هدأ قلبها ، والروع بالضم القلب . وفي أساس البلاغة للزمخشرى « أفرخ روعك : أى خلا قلبك من الهم خلو البيضة من الفرخ . قال :

وقل للفؤاد ان نزا بك نزوة ... من الروع أفرخ أكثر الروع باطله

وهذا ظاهر وأما أفرخ روعك فيمن رواه بالفتح فوجهه أن يريد زوال مايتوقعه المرتاع واذا زال ذلك انقلب الروع أمنا »

(٢) مسك ذكى: ساطع الرائحة ــ وثغر مفلج وأفلج من الفلج بالتحريك وهو تباعد مابين الاسنان ــ وغرب الثغر ماؤه وريقه ــ ومؤشر : فيه أشر وهو حسنه وتحزيز أطرافه (٣) الاقحوان : زهر أبيض تشبه به الاسنان (٤) ترنو : تنظر في رقة وتكسر ــ والخميلة : الموضع الكثير الشجر ــ والجؤذر : هوولد الظبية والبقرة الوحشية (٥) تتغور : تغيب (٦) عزور : ثنية بين مكة والمدينة وقيل : جبل مقابل رضوى. وقد ورد ذكره فى رائية لهأخرى اذ يقول :

فما راعنى إلا مُنادٍ ترحَّلُوا
وقد لاح معروفٌ من الصبح أشقر (١)

فلما رأت من قد تنبّه منهمُ ... وأيقاظَهم قالت أشِرْ كيف تأمر
فقلت أُباديهم فامّا أفُوتَهمْ ... وإما ينال السيّف ثأراً فيثأر (٢)
فقالت أتحقيقاً لما قال كاشحٌ ... علينا وتصديقاً لما كان يُؤْثَر (٣)
فان كان مالا بد منه فغيرُهُ ... من الأمر أدنى للخفاء وأستر
أقصُّ على اختىَّ بدء حديثنا ... وما لىَ مِن أن تعلما مُتأخَّر (٤)
لعلهما أن تطلبا لك مخرجا ... وان ترحبُا سَرْبا بما كنت أحْصَر (٥)
فقامت كئيباً ليس فى وجهها دمٌ ... من الحزن تذرى عبرةً تتحدَّرُ (٦)
فقامت إليها حُرتان عليهما ... كساءآن من خزٍّ دِمقسٌ وأخضر (٧)

فلما أضاء الفجر عنا بدا لنا ... ذرى النخل والقصر الذى دون عزور
فقلت اعتزل زل الطريق فاننا ... متى تر تعرفنا العيون فنشهر

(١) الأشقر هو الذى تعلو بياضه حمرة (٢) أباديهم : أجاهرهم بالعدوان (٣) الكاشح : المبغض ـ يؤثر : ينقل ، ومنه الحديث المأثور (٤) متأخر : تأخر، فهو مصدر جاء على وزن اسم المفعول . قال دعبل

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى ... متأخر عنه ولا متقدم

(٥) السرب بالفتح الطريق ، ومنه أطلق الاسير وخلا سربه ـ وأحصر : من الحصر وهو الضيق ، والمراد من رحب السرب هنا سعة الحيلة في العمل للخلاص (٦) كئيب : من الكآبة وهى الحزن (٧) الدمقس : الديباج

فقالت لأختيها أعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يُقدرُ
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا ... أقِلِّى عليك اللومَ فالخطبُ أيسَرُ
يقوم فيمشى بيننا متنكراً ... فلا سرُّنا يفشو ولاهو يظهرُ (١)
فكان مِجَنِّى دونَ من كنت أتّقى ... ثلاثُ شخوصٍ كاعبانِ ومُعْصِرُ (٢)

* * *

فلما أجزنا ساحةَ الحىّ قلن لى ... أَلم تتق الأعداء والليلُ مقمر (٣)
وقلن أهذا دأبك الدهرَ سادراً ... أماتستحى أو ترعوى أو تفكّرُ (٤)
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر (٥)
فآخر عهدٍ لى بها حين أعرضت ... ولاح لها خدٌّ نقىٌّ ومَحجِر

(١) يفشو : يذيع (٢) المجن والمجنة : الترس ـ والكاعب هي التى نهد ثديها ـ والمعصر : هي التى بلغت تمام الشباب وأدركت (٣) جاز الموضع وأجازه وجاوزه : سار فيه وخلفه (٤) السادر : الذى لايهتم ولا يبالى ماصنع ـ وارعوى الرجل : رجع عن غيه (٥) حرف أبوعلى الفارسى هذا البيت فرواه هكذا

وطرفك إما جئتنا فاحبنه ... كما يحسبوا ان الهوى حيث تنظر

ليصح له أن يقول: إن «كما» أصلها «كيما» فحذفت الياء . فتعقبه ابن مالك فقال: هذا تكلف بل هي كاف التعليل وما الكافة ، ونصب الفعل بها لشبهها بكى في المعنى وهذا البيت بعد تحريفه يذكر بقول جميل :

وطرفك إما جئتنا فاحفظنه ... فزيغ الهوى باد لمن يتبصر
وأعرض اذا لاقيت عيناً تخافها ... وظاهر ببغض إن ذلك أستر

راجع حرف الكاف في المغنى وحواشيه

سوى أننى قد قلت يا نعم قولةً لها والعِتاق الأرحبيات تُزجَر (١)
هنيئاً لأهل العامرية نشْرها اللّـ ـذيذ وريّاها التى أتذكر (٢)
فقمت إلى عَنْسٍ تخوّن نيَّها سُرى الليل حتى لحمها متحسّر (٣)
وحبسى على الحاجات حتى كأنها بقيّة لوح أو شِجار مؤشر (٤)

وماءٍ بموماةٍ قليلٍ أنيسُهُ
بسابس لم يحدث به الصيف محضر (٥)
به مُبتَنًى للعنكبوت كأنه على طَرَف الارجاء خامٌ منشّر (٦)
وردت وما أدرى أما بعد موردى من الليل أم ماقد مضى منه أكثر
فقمت إلى مغلاة أرض كأنها إذا التفتت مجنونة حين تنظر (٧)
تنازعنى حرصاً على الماء رأسها ومن دون ماتهوى قليبٌ مُعوَّر (٨)

---

(١) الارحيات : نسبة الى أرحب . وهو مخل ، أو قبيلة من همدان (٢) النشر الرائحة الطيبة ومثله الريا (٣) العنس : الناقة الصلبة القوية . والنى : الشحم . والمتحسّر الذى أضواه السير (٤) الشجار : خشبة يضبب بها السرير ، وعود يجعل في فم الجدى لئلا يرضع . والمؤشر : المرقق ، وأشر الخشب بالمئشار شقه (٥) المومأة : الفلاة — والبسابس جمع بسبس وهو القفر الخالى (٦) الخام الجلد لم يدبغ ، أو لم يبالغ في دبغه (٧) مغلاة : قاطعة (٨) القليب : البئر قبل الطى ، فاذا طويت فهى الطوى . والقليب في الاصل التراب المقلوب . والقليب المعور : المطموس ، من قولهم : عور عين الركية اذا كبسها وأفسدها حتى نضب الماء . أو هو الممنوع ، من قولهم : عورته عن الماء اذا منعته

محاولة للماء لولا زمامها وجذبى لها كادت مراراً تكسّر
فلما رأيت الضر منها وأننى ببلدةِ أرض ليس فيها مُعصَّر (١)
قصرت لها من جانب الحوض منشأ
جديداً كقاب الشبر أو هو أصغر (٢)
إذا شرعت فيه فليس لملتقى
مشافرها منه قِدَى الكف مسأَرُ (٣)
ولا دَلْو إلا القَعب كان رشاءَهُ
إلى الماء نِسعٌ والأديم المضفَّر (٤)
فسافت وما عافت وما ردّ شربها
عن الريّ مطروق من الماء أكدر (٥)

---

(١) المعصر : الملجأ والمنجاة (٢) القاب : المقدار (٣) قدى الكف وقيده بالكسر : قدره — والمسأر : الباقى . وأسأره : أبقاه ، من السؤر بضم فسكون وهو البقية والفضلة ، ويقال للمرأة التى جاوزت الشباب ولم يهرمها الكبر : ان فيها لسؤرة . قال حميد بن ثور :

إزاء معاش ما تحل إزارها من الكيس فيها سؤرة وهى قاعد

والمشافر جمع مشفر ، وهو للبعير كالشفة للانسان . وشرعت الناقة فى الماء : وردته ، من الشريعة وهى مورد الشاربة
(٤) القعب : القدح الضخم — والرشاء : الحبل . والنسع بالكسر : سير يفسج عريضاً على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال . والقطعة منه نسعة . والأديم : الجلد
(٥) سافت من السوف وهو الشم . يقال سافه واستافه اذا شمه ،

لامية جميل

مرت الاشارة إلى هذه القصيدة فى المحاضرة الثالثة ، ولكنا رأينا أن نثبتها هنا بجانب رائية عمر ، ليرى القارىء إلى أى حد صدق من قال : إن عمر أشعر من جميل فى الرائية ، وإن جميلا أشعر منه فى اللامية . وقد بحثنا عن نسخة كاملة لهذه القصيدة ، فلم نجد غير ما أثبته صاحب الاغانى فى ترجمة جميل ، ثم حاولنا الموازنة بين القصيدتين فلم نجد ما يبرر وضعهما فى الميزان ، إذ كانت رائية عمر أجمل بلا مراء . وجاء فى الاغانى في أخبار الغريض : قال الزبير فيما اخبرنى به الحرمى ابن أبى العلاء عنه : من الناس من يفضل قصيدة جميل اللامية على قصيدة عمر . وأنا لا أقول هذا ، لأن قصيدة جميل مختلفة غير مؤتلفة ، فيها طوالع النجد ، ، وخوالد المهد ، وقصيدة عمر بن أبى ربيعة ملساء المتون مستوية الأبيات ، آخذ بعضها بأذناب بعض ، ولو أن جميلا خاطب فى قصيدته مخاطبة عمر لأربح عليه ، وعثر كلامه به — قال جميل :

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى
بثينة أو أبدت لنا جانب البخل

يقولون مهلاً يا جميلُ وإننى لأُقسمُ مالى عن بُثَيْنة من مهل
أحِلماً فقبل اليوم كان أوانه
أم اخشى فقبلَ اليوم أُوعدت بالقتل
لقد أنكحوا جهلاً « نبيهاً » ظعينةً
لطيفةَ طىِّ الكشح ذات شوًى خَدَل[1]
وكم قد رأينا ساعياً بنميمةٍ لآخرَ لم يعمد بكف ولا رجل

* * *

ألا أيها البيت الذى حِيل دونه بنا أنت من بيت وأهلك من أهل
ثلاثة أبيات فبيتٌ أُحبه وبيتان ليسا من هواىَ ولا شكلى
إذا ما تراجعنا الذى كان بيننا
جرى الدمعُ من عَيْنَىْ بثَيْنة بالكحل
كلانا بكى أو كاد يبكى صبابة إلى إلْفه واستعجلت عبرةً قبلى
أبيت مع الهُلاّك ضيفاً لأهلها
واهلى قريب موسعون ذوو فضل[2]

(١) نبيه : اسم علم ، وهو نبيه بن الاسود العذرى — الكشح : الخصر ، الشوى : الاطراف
(٢) الهلاك : الصعاليك الذين يتابون الناس ابتغاء معروفهم

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طِلابيها لما فات من عقلى

فياويح نفسي حسب نفسى الذى بها

ويا ويح أهلى ما أُصيب به أهلى

وقالت لأتراب لها لا زعانف قصار ولا كُسّ الثنايا ولا ثُعل (١)

إذا حميت شمس النهار اتقينها بأكسية الديباج والخز ذى الخمل (٢)

تداعين فاستعجمن مشياً بذى الغضا

دبيب القَطَا الكُدْرىّ فى الدمث السهل (٣)

إذا ارتعْنَ أو فُزّعن أوقمن حولها قيام بنات الماء فى جانب الضحل (٤)

أجَدّىَ لا ألقى بثينة مرةً من الدهر إلا خائفاً أو على رحل

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلى ؟

على أن من الحق أن نكرر ما أشرنا اليه فيما سلف من أن عمر

(١) الزعانف جمع زعنفة بالكسر والفتح وهى القصيرة ـ كس: جمع كساء وأكس من الكسس بالتحريك وهو قصر الاسنان ـ ثعل جمع ثعلاء وأثعل من الثعل بالتحريك وهو زيادة سن أو دخول سن تحت سن مع اختلاف المنابت

(٢) الخمل : الهدب (٣) الكدرى ، كما في القاموس ، ضرب من القطا غبر الالوان رقش الظهور صفر الحلوق (٤) الضحل : الماء القليل على الارض لا عمق له ويجمع على أضحال وضحول وضحال

أقل صدقاً فى الصبابة من جميل ، فان لم تشهد هذه اللامية على سبقه فله قصائد ومقطوعات تجعله فى الطراز الأول بين أصحاب العواطف والقلوب . أليس هو الذى يقول :

لما دنا البين بينُ الحى واقتسموا حبل النوى فهو فى أيديهم قِطَعُ

جادت بأدمعها ليلَى وأعجلنى وَشْكُ الفراق فما أُبقى وما أدع

ياقلب ويحك ماعيشى بذى سَلَم ولا الزمان الذى قد مرّ مُرتجع

أكلما بان حيٌّ لا تلائمهم ولا يبالون أن يشتاق من جمعوا

علّقتنى بهوًى مُرْدٍ فقد جعلت من الفراق حصاة القلب تنصدع

بلى ! وهو الذى يقول :

وما زلتمُ يابْثنَ حتى لو أنى من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا

اذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنتِ دعائيا

وما زادنى النأى المفرق بعدكم سلُوًّا ولا طول التلاقى تقاليا

ولا زادنى الواشون إلا صبابةً ولا كثرة الناهين إلا تماديا

لقد خِفت أن يغتالنى الموت غَنوةً وفى النفس حاجات اليك كما هيا

وإنى لتثنينى الحفيظة كلما لقيتك يوماً أن أبثك مابيا

ألم تعلمى ياعذبة الريق أننى أظلُّ إذا لم أُسق ريقك صاديا

تأثير ابن أبى ربيعة

فى شعراء اللغة العربية

عرف القارئ كيف أثّر عمر بن أبي ربيعة فى شعراء عصره ، وكيف حملهم على الاعتراف بتفوقه عليهم فى مذاهب النسيب . فمن الخير أن نعرف كيف أثر فيمن خلَفه من الشعراء

وانما عينّا من خَلف من بعده لأنه غلب على شعراء عصره ، فأضاف إليه الرواة أكثر القصائد التى وُسِمَت بميسمه ، وطُبِعَتْ بطابعه ، فى حِوار المِلاح .

وكان طبيعياً أن نحاول معرفة من تأثر به ابن أبى ربيعة من القدماء ، وان كنا قد ألمعنا إلى ذلك فى المحاضرة الثالثة ، فلنذكر الآن أنه تأثر بامرئ القيس : فجاراه فى الحديث عن حوادث الليل ، ومدافعة الأحراس ، ومطاوعة الصبا والحب فى هَصر أعواد الحسان

وفى الحق أن أكثر ما مرّ من شعر ابن أبى ربيعة يذكرنا فى الغرض والأسلوب بقول امرئ القيس :

وبيضة خِدرٍ لا يُرام خِباؤها ... تمتّعت من لهو بها غير مُعجَل (١)

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً ... علىّ حِراصاً لو يُسرُّون مقتلى (٢)

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... تعرُّض أثناء الوشاح المفصّل (٣)

فجئت وقد نضَت لنوم ثيابها ... لدى السِّتر إلا لبسة المتفضل (٤)

فقالت يمين الله مالك حيلةٌ ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلى (٥)

خرجت بها أمشى تجرُّ وراءنا ... على أثَرَيْنا ذيل مِرطٍ مرحّل (٦)

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحت ... بنا بطن خَبْت ذى حِقاف عقنقَل (٧)

---

(١) بيضة الخدر كناية عن العقيلة المخدرة المحجبة ــ غير معجل : غير مضطر الى العجلة

(٢) الاحراس والحراس معناها واحد ــ حراص : جمع حريص ــ يسرون مقتله : يضمرونه (٣) الوشاح : أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها ــ والمفصل : هو المرصع بالذهب أو الزبرجد (٤) نضت ثيابها : نزعتها ــ والمتفضل هو الذى يلبس ثوبا واحدا حين يأوى الى فراشه (٥) مالك حيلة : هى كلمة نسائية يراد بها الدعابة لا التحقير (٦) المرط : كساء من صوف أو خز ــ المرحل : الذى فيه صور رحال ، كالمشجر وهو الذى يحمل صور الاشجار (٧) حزت المكان وأجزته وجاوزته وتجاوزته : قطعته وخلفته ــ انتحت : قصدت ــ الخبت : الفضاء الواسع ــ الحقاف والاحقاف جمع حقف وهو نقا يعوج ويدق ــ العقنقل : الوادى العظيم والكثيب المتراكم

هصرت بفودَىْ رأسها فتمايلت ... علىّ هضيم الكشح ريّا المخلخَل (١)

مهفهفةٌ بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولةٌ كالسجنجل (٢)

كبكر المقاناة البياض بصُفرةٍ ... غذاها نمير الماء غير المحلل (٣)

تصدُّ وتبدى عن أَسيل وتتقى ... بناظرة من وحش وجرة مطفِل (٤)

وجيدٍ كجيد الريم ليس بفاحشٍ ... إذا هي نصته ولا بمعطّل (٥)

وفرع يزين المتْنَ أسود فاحمٍ ... أثيث كقنو النخلة المتعثكل (٦)

---

(١) هصرت فوديها وبفوديها : أملتها الى ــ والفودان : جانبا الرأس ــ هضيم الكشح : دقيقة الخصر ــ ريا المخلخل : بضة الساق ــ والمخلخل : موضع الخلخال (٢) مهفهفة : ضامرة البطن ــ غير مفاضة : غير مسترخية اللحم ، واسترخاء اللحم من عيوب النساء ــ الترائب موضع القلادة من الصدر ــ السجنجل : المرآة المجلوة (٣) المقاناة : الخلط . تقول : قوني بياضها بصفرة ، أى خلط . والشاعر يشبه خليلته ببيضة النعام لأول عهدها بمزج الصفرة بالبياض ــ نمير الماء : صافيه ــ المحلل : الذى كدرته الابل ــ وهذا البيت يذكرنا بابن أبى ربيعة اذ يصف معشوقاته كثيرا بالترف ولين العيش

(٤) أسيل : رقيق ، صفة لموصوف محذوف هو الخد ــ وجرة : مرب للوحش بين مكة والبصرة . قال بعض الاعراب :

وفي الحيرة الغادين من بطن وجرة ... غزال أحم المقلتين ربيب

فلا تحسبى أن الغريب الذى نأى ... ولكن من تنأين عنه غريب

ومطفل : ذات طفل . يريد أن نظرتها فيها عطف وحنان (٥) الجيد : العنق الريم : الظبى ــ نصته : رفعته ــ ومعطل وعاطل : لا حلية فيه (٦) الفرع : الشعر المتن : الظهر ــ فاحم : شديد السواد ــ أثيث : غزير ــ متعثكل : ذو عثاكيل ــ وهي في النخل كالعناقيد فى الاعناب

غدائره مستشزرات إلى العُلى ... تضلّ المدارَى فى مثنًّى ومرسل (١)

وكشح لطيف كالجديل مخصّرٍ ... وساقٍ كأُنبوب السقىّ المذلّل (٢)

وتُضحى فتيت المسك فوق فراشها

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل (٣)

وتعطو برخص غير شثن كأنه ... أساريع ظبى أو مساويك إسْحِل (٤)

تضىء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة مُمْسَى راهب متبتل

إلى مثلها يرنو الحليم صبابةً

إذا ما اسبكرّت بين درع ومجول (٥)

تسلت عمايات الرجال عن الصبا ... وليس فؤادى عن هواها بمنسل (٦)

---

(١) الغدائر : خصل الشعر ــ مستشزرات : مرتفعات ــ المدارى : الامشاط يسمى البردى ــ المذلل : اللين (٢) الجديل : الوشاح ــ مخصر : دقيق ــ الساق على وزن غنى نبات يسقى كثيراً (٣) نؤوم الضحى : لم تلبس المنطق أو انتطق ، وهو شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الاعلى على الاسفل وينجر الاسفل على الارض ــ والتفضل : لبس الثوب الواحد ــ وعن ، هنا ، بمعنى بعد ــ أى لم تلبس المنطق بعد المفضل . يريد أنها أصيلة الترف لم تكتس بعد عرى (٤) تعطو : تتناول ــ رخص : لين ناعم ــ شثن : خشن ــ أساريع : جمع أسروع وهو دود أبيض أحمر الرأس تشبه به الانامل المخضبة الاطراف ــ وظبى : اسم واد ــ والاسحل : شجر يستاك به (٥) اسبكرت : طابت واعتدلت ــ والدرع القميص ــ والمجول على وزن منبر ثوب تلبسه الفتاة وتجول فيه قبل أن تخدر (٦) منسل : سال

ألا رُبَّ خصم فيك أَلْوَى رددتهُ

نصيح على تعذاله غير مؤتل [1]

فعلى هذا المنهج جرى ابن أبى ربيعة فى محاكاة امرئ القيس ، ولكن أستاذنا الدكتور طه حسين يعكس القضية : فيقرر أن امرأ القيس هو الذى حاكى ابن أبى ربيعة ، إذ يفترض أن شعر امرئ القيس منحول ، وضعه شاعر إسلامى تأثر بعمر ابن أبى ربيعة فحاكاه ، وأجاد المحاكاة والتقليد . وعنده أن هذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر هو فن عمر بن أبى ربيعة قد احتكره احتكاراً ، ولم ينازعه فيه أحد ، وأن من الغريب أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ، ويتخذ فيه هذا الأسلوب ، ويُعرف عنه هذا النحو ، ثم يأتى ابن أبي ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبي ربيعة قد تأثر بامرئ القيس ، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرئ القيس فى طائفة من الشعراء فى أنحاء الوصف ، وأنه يبعد أن يكون امرؤ القيس هو منشئ هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبى ربيعة والذى كوّن شخصية ابن أبى ربيعة الشعرية ولا يُعرف له ذلك [2]

(١) خصم ألوى : عسر يلتوى على خصمه — غير مؤتل : غير مقصر

(٢) راجع ص ٢٢٢ من الادب الجاهلى

وقد يُلاحظ أن ابن أبى ربيعة أذاع فى شعراء عصره فكرة تَقَارُض المودة بين المحبين ، وأظهر ما يكون ذلك فى شعر العرجى [1] إذ يقول :

وما أنسَ مِلْأشياء لا أنس موقفا ... لنا ولها بالسَّفح دون ثبير [2]

ولا قولها وَهناً وقد بلَّ جيبها ... سوابقُ دمع لا يجفُّ غزير [3]

أأنت الذى خَبَّرتَ أنك باكرٌ ... غداة غد أو رائح بهجير [4]

فقلت يسيرٌ بعض شهر أغيبهُ ... وما بعض يوم غبته بيسيرِ

أحين عصيت العاذلين إليكمُ ... ونازعت حبلى فى هواكِ أميرى

وباعدنى فيكِ الأقاربُ كلهم ... وباح بما يخفى اللسان ضميرى

وقلت لها قول امرئ شفَّه الهوى ... اليها ولو طال الزمان فقير

فما أنا إن شطت بك الدار أونأتْ ... بىَ الدار عنكم فاعلمى بصبور

(١) العرجى هو عبد الله بن عثمان بن عمرو بن عثمان بن عفان وكان ينزل بعرج الطائف فنسب اليه (٢) ثبير : من جبال مكة (٣) الوهن : نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه (٤) يرى أستاذنا الدكتور طه حسين أنه لايصح أن تقول : أنت الذى فعلت هذا ، وانما تقول : أنت الذى فعل هذا ، فان القرآن يقول : ياأيها الذين آمنوا ، ولا يقول يا أيها الذين امنتم . ونرى أنه لا مانع من أن تقول : أنت الذى فعلت هذا ، بدليل قول العرجى هنا (أأنت الذى خبرت) وقول ابن الدمينة

وأنت التى أخلفتنى ما وعدتنى ... وأشمت بى من كان فيك يلوم

وقول كثير :

وأنت التى حببت شغبا الى بدا ... الى وأوطانى بلاد سواهما

ولنرجع فنذكر أننا بحثنا طويلا عن شاعر سَلَك مسلك عمر ابن أبى ربيعة فى مخاطبة النساء فلم نجد من يقاربه غير بشار بن برد ، الذى شهد آخر أيام بنى أُمية وصدر دولة بنى العباس ، ففى شعر بشار قرب من منهج ابن أبى ربيعة فى محاورة الغوانى والتودد إلى المِلاح ، وفيه كذلك تأنُّق فى وصف الجوانب الحِسِّية من المرأة المجدولَة الخلْق ، المشرقة الجبين . وهو الذى يقول :

وبيضاء يضحك ماء الشبا ... بِ فى وجهها لك إذ تبتسم
رواء العذارى إذا زرنها ... أطَفْنَ بحوراء مثل الصنم
يَرُحْن فيمسَحْن أركانَها ... كما يمسح الحجَر المستلِم

وفى هذا الشعر على يُسْره وسهولته نفحة من عبادة الجمال ، وهو يذكرنا بقوله من كلمة ثانية

تُلقَى بتسبيحة من حُسن ما خُلقت ... وتستفزّ حشا الرائى بارعاد
كأنما صُوِّرت من ماء لُؤلؤةٍ ... فكل جارحةٍ وجه بمرصاد

وقوله من كلمة أخرى يتحدث فيها عن ليلة وصل :

ومُرْتجَّة الأرداف مهضومة الحشا ... تمور بسحرٍ عينها وتدورُ
إذا نظرت صبّتْ عليك صبابةً ... وكادت قلوب العالمين تطيرُ
خلوت بها لايخلص الماء بيننا ... إلى الصبح دونى حاجب وستور

وذكر صاحب زهر الآداب أن بشاراً لما قال :

لايؤيسنَّك من مخبّأة ... قولٌ تغلّظه وإن جرحا
عُسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يمكن بعد ماجمحا

بلغ ذلك المهدى ففاظه ، وقال : يحرِّض النساء على الفجور ، ويسهِّل السبيل إليه ! فقال له خاله يزيد بن منصور الحميرى : ياأمير المؤمنين ، قد فتن النساء بشعره ، وأى امرأة لاتصبو إلى مثل قوله .

عجبت فطمة من نعتى لها ... هل يُجيد النعت مكفوف البصر ؟
بنت عشْر وثلاث قسِّمت ... بين غصن وكثيب وقمر
دُرّةٌ بحريةٌ مكنونةٌ ... مازها التاجر من بين الدرر
أذرت الدمع وقالت ويلتى ... من وَلوع الكف ركاب الخطر
أمتى بدّد هذا لُعبى ... ووشاحى حلّه حتى انتثر
فدعينى معه يا أمتى ... علّنا فى خلوة نقضى الوطر
أقبلت فى خلوة تضربها ... واعتراها كجنون مُستعر
بأبى والله ما أحسنه ... دمعُ عينٍ غسل الكحل قطر
أيها النُّوام هُبُّوا ويحكم ... وسلونى اليوم ماطعم السهر

فأمره المهدى أن لا يتغزّل ، فقال أشعاراً فى ذلك ، منها هذه التائية :

يامنظراً حسناً رأيتهْ من وجه جارية فديتهْ
لَمَعَت إلىَّ تسومنى ثوب الشباب وقد طويته[1]
والله ربِّ محمدٍ ما إن غدرت ولا نويتهْ
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيته
ويشوقنى بيت الحبيـ ـب إذا غدوت وأين بيته
قام الخليفة دونهُ فصبرت عنه وما قليته
ونهانىَ الملك الهما مُ عن النساء فما عصيته
لا بل وفيت ولم أضع عهداً ولا رأياً رأيته

وفى الحق أننا نجد فى القصيدة الأولى شبهاً قوياً بشعر عمر ابن أبى ربيعة ، وإنه ليحاكيه حتى فى التغزل بنفسه والتحدث عن أسْره لقلوب النساء . ولو بقى شعر بشار لاستطعنا التثبُّت مما نراه من التشابه بين شعر هذين الشاعرين ، ولكن شعر بشار ضاع فلم يبق إلا الاعتماد على تلك الشواهد الضئيلة فى تأييد ما ذهبنا إليه ، وإن كنا على يقين من أن لهذا الرأى حظا من الصحة غير قليل

(١) لمعت الى : أشارت

والخلاصة أننا لانجد شاعراً بعد عمر بن أبى ربيعة وقف حياته وشعره على التشبيب بالنساء ، وإن كنا لانتكر أن كثيراً من الشعراء نحوا منحاه فى القصص الغرامى ، وإن لم يعرفوا بذلك ، فاننا لانشك فى أن الأبيوردى حاكاه حين قال :

تَنوّر سناها من بعيد ولا تُرى فليس على من آنس النار من باس
ومن مُوقديها غادةٌ دونها الظُّبَى تلوح بأيدى غِلمة غير أنكاس[1]
وكل رُدينىٍّ كأن سنانه يعط رداء الليل عنهم بنبراس[2]
مهفهفةٌ غَرْثى الوشاحين دونها تحرُّش عُذّال ورقبة حراس
يضىء لها وجهٌ يرقّ أديمهُ فما ضرّها لو رقّ لى قلبها القاسى
سموت لها والليل حارت نجومه على أُفق عارٍ بظل الدُّجى كاسى
فهبَّت كما ارتاع الغزال وأوجست من ابن أبيها خيفةً أى إيجاس
تشير إلى مُهرى رِحذَار صهيلهِ
وتستكتم الارض الخُطى خشية الناس
فقلت لها لاتفرقى وتشبثى بنهّاس أقران ومنّاع أخياس[3]

(١) الانكاس جمع نكس بالكسر وهو الضعيف (٢) الردينى : الرمح ، نسبة الى رديئة وهو رجل كان يثقف السلاح ـ يعط رداء الليل : يشقه . وقرىء (فلما رأى قميصه عط من دبر) أى قد ـ والنبراس المصباح (٣) النهس فى الاصل أخذ اللحم بمقدم الاسنان ـ ومن أسماء الاسد النهاس ـ والاخياس جمع خيس بالكسر وهو موضع الاسد

ترد يديه عن وشاحك عفةً وعرض صقيل لا يُزنُّ بأدناس[1]

وطوّقتها يُمنى يديَّ وصارمى بيُسرى فارتاحت قليلا لاياسى

وذقت عفا عنّا الاله وعنكمُ

جَنَى ريقةٍ تلهى أخاكم عن الكاس[2]

فلما استطال الفجر مال بعطفها وداعى كما هز الصبا قُضُبَ الآس

ويمكن الحكم بأن أبا نواس جارى ابن أبي ربيعة فى النسيب ، لولا أنّه غيَّر مجرى الحديث ، فنقله من النساء إلى الغلمان ، وجارى أبا نواس فريق من شعراء الاندلس ، أشهرهم ابن خفاجة الذى يقول فى وصف ليلة قضاها بين ضلال الهوى وجنون الصهباء

وليلَ تعاطينا المدام وبيننا حديثٌ كما هبَّ النسيم على الورد

نُعاوده والكأس يعبقُ نفحهُ وأطيب منه ما نعيد وما نبدى

ونَقْلى أقاح الثغر أو سوسن الطلى ونرجسة الاجفان أو وردة الخد[3]

إنى أذسرت فى جسمه الكأس والكرى

ومالا بعطفيه فمال على عضدى

(١) لايزن : لا يتهم (٢) تقبل الله دعاء الشاعر وعفا عنا وعنه انه سميع مجيب !

(٣) النقل بالفتح مايتناول على مائدة الشراب

فأقبلت أستهدى لما بين أضلعى من الحر ما بين الضلوع من البرد

وعاينته قد سُلّ من وشى بُرده

فعاينت منه السيف سُلّ من الغمد

لِيان مَجَسٍّ واستقامة قامةٍ وهزة أعطاف ورونق إفرند

أغازل منه الغصن فى مغرس النقا

وألثم وجه الشمس فى مطلع السعد

فان لم يكنها أو تكنه فانه أخوها كما قُدَّ الشراك من الجلد

تسافر كلتا راحتىّ بجسمه فطوراً إلى خصر وطوراً إلى نهد

فتهبط من كشحيه كفّى تهامة وتصعد من نهديه أخرى إلى نجد

مصعب بن عبد الله الزبيرى

وعدنا فى مقدمة هذه الطبعة بكتابة فصل عن مصعب بن عبد الله الزبيرى الذى قدم شعر ابن أبى ربيعة إلى القدماء ، وقد رأى القارئ أننا نقدناه فى المحاضرة الثانية نقداً رآه أستاذنا الدكتور طه حسين إلى الظلم أقرب منه إلى الانصاف ، فلنف بما وعدنا به ، ولنحدد بعد ذلك رأينا فى ذلك البحث الطويل الذى كتبه مصعب عن عمر ورآه أستاذنا الدكتور طه من ذخائر الأدب القديم (١)

مصعب الزبيرى هو ابن عبد الله بن مصعب أحد الشعراء المجيدين والخطباء المفوّهين ، الذين نادموا أوائل الخلفاء من بنى العباس ، وتولّوا لهم أعمالا . وكان خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة على أبى جعفر المنصور فيمن خرج من آل الزبير ، فلما قتل محمد استتر إلى أن حج أبو جعفر المنصور ، وأمّن الناس جميعاً فظهر . وكان يُلقب « عائد الكلب » لقوله :

مالى مرضتُ فلم يَعُدنى عائدٌ ... منكم ويمرض كلبكم فأعودُ
وأشدُّ من مرضى علىّ صدودكم ... وصدود عبدكمُ علىّ شديد

وذكر الربيع بن يونس أنه دخل على المهدى واذا هو يكتب على

(١) حديث الاربعاء ص ١٤٠ ج ٢

الأرض بفحمة قول عبد الله بن مصعب

فان يَحجُبوها أو يَحُلْ دون وصلها ... مقالة واشٍ أو وعيد أمير
فلن يحجبوا عينىّ من دائم البكا ... ولن يُخرجوا ماقد أجنّ ضميرى
وما برح الواشون حتى بدت لنا ... بطون الهوى مقلوبةً لظهور
إلى الله أشكو ما ألاقى من الجوى ... ومن نَفَس يعتادنى وزفير

ويقول : أحسن والله عبد الله بن مصعب ماشاء (١)

ونعود إلى مصعب بن عبد الله فنذكر أننا لمّا نَصِلْ إلى الوقوف على تفاصيل حياته الأدبية ، وانما عرفنا مما ينقل عنه صاحب الأغانى انه كان من كبار الكتاب فى القرن الثالث ، واليه يرجع الفضل فى تدوين أكثر أخبار المغنين والشعراء ، وعبارته نقية واضحة سليمة لايشوبها تكلُّف ولا غموض . وله شعر جيد لم يبق منه إلا القليل ، وفيه على نزارته دليل على أنه كان من المبدعين

ويظهر مما قرأناه من أخباره المتفرقة انه كان يعيش فى جماعة لها حظ من المال والجاه والجمال . فكانت حياته لذلك فيها نفحة وجدانية لايظفر بها إلا من استظل بأعطاف الحسن الجامح والدّل الغَضُوب . كان متصلا بأحمد بن هشام أخى على بن هشام الذى كتب إليه اسحق الموصلى : جُعلت فداك ، بعث إلىّ أبو نصر مولاك بكتاب منك إلىّ يرتفع

(١) راجع أخباره فى الجزء العشرين من الاغانى

عن قدرى ، ويقصر عنه شكرى ، فلولا ما أعرف من معانيه ، لظننت أن الرسول غلط بي فيه ، فمالنا ولك يا أبا عبد الله تَدَعُنا حتى إذا نسينا الدنيا وأبغضناها ورجونا السلامة من شرها ، أفسدتَ قلوبنا ، وعلقتَ أنفسنا ، فلا أنت تريدنا ، ولا أنت تتركنا ، فبأى شئ تستحل هذا؟ أما ما ذكرته من شوقك إلىّ فلولا انك حلفت عليه لقلت :

يامن شكا عبثا الينا شوقه ... شكوى المحب وليس بالمشتاق
لو كنت مشتاقا إلىّ تريدنى ... ما طِبت نفساً ساعة بفراق
وحفظتنى حفظَ الخليل خليلهُ ... ووفيت لى بالعهد والميثاق
هيهات قد حدَثتْ أمورٌ بعدنا ... وشُغلتَ باللذات عن إسحق

قد تركتُ جُعلت فِداك ما كرهتَ من العتاب فى الشعر وغيره وقلت أبياتاً لا أزال أخرج بها إلى ظهر المربد [1] واستقبل الشَّمال ، وأتسم أرواحكم فيها ، ثم يكون ما الله أعلم به ، وان كنت تكرهها تركتها إن شاء الله

ألا قد أرى أن الثواء قليلُ ... وأن ليس يبقى للخليل خليل

(١) المربد بالكسر ثم السكون وفتح الباء اسم موضع كان أهم أسواق البصرة ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . والمربد في الاصل كل شيء حبست فيه الابل ، وأنشد الاصمعى :

بيت بأبواب القوافي كأننى ... أصيد بها سربا من الوحش نزعا
عواصى الا ما جعلت وراءها ... عصا مربد يغشى نحورا وأذرعا

وإنى وإن مُلِّيت في العيش حقبةً ... كذى سفرٍ قد حانَ منه رحيل
فهل لى إلى أن تنظر العين مرةً ... الى ابن هشام فى الحياة سبيل
فقد خفت أن ألقى المنايا بحسرة ... وفى النفس منه حاجة وغليل

وقد تورط مصعب فى صحبة هذه الجماعة ولحقه من تقلُّبها بعض الشر والسوء ، حين وقعت الجفوة بين احمد بن هشام واسحق بن ابراهيم ، فقد لقى احمدُ مصعباً فقال له : أما تستحى أنت وصباح بن خاقان المنقرى وأنتما شيخان من مشايخ المروءة والعلم والأدب أن يشيد بذكركما اسحق فى شعره فيقول :

قد نهانا مُصعبٌ وصَباحٌ ... فعصينا مصعبا وصباحا
عَذَلا ما عذلا ثم ملاّ ... فاسترحنا منهما واستراحا

فقال له مصعب : ان كان قد فعل فما قال إلا خيراً . انما ذكر أننا نهيناه عن خمر شربها ، أو امرأة عشقها ، وقد أشاد باسمك فى الشعر بأشد من هذا . قال : بماذا ؟ قال بقوله :

وصافية تُعشي العيون رقيقة ... رهينة عام فى الدنان وعام
أدرنا بها الكأس الروية موهناً ... من الليل حتى انجاب كل ظلام
فما ذرَّ قرن الشمس حتى كأننا ... من العِىّ نحكى احمد بن هشام

وكان صباح بن خاقان نديماً لمصعب بن عبد الله . فقال عبدالرحمن ابن أبى عبدالرحمن وكان خليعاً من أهل البصرة

من يكن إبطه كآباط ذا الخَلْـ ... ـقِ فإبطايَ فى عداد الفِقاح[1]
لىَ إبطان يرميان جليسى ... بشبيه السلاح بل بالسلاح
فكأنى من نتن هذا وهذا ... جالسٌ بين مصعب وصباح

وقد ظل مصعب وفيا لاسحق الموصلى إلى أن مات فرثاه بقصيدة بليغة نقتطف منها الكلمة الآتية :

أتدرى لمن تبكى العيون الذوارفُ ... وينهلّ منها واكف ثم واكف
نعم لامرئ لم يبق في الناس مثله ... مفيد لعلم أو صديق ملاطف
تجهز اسحقٌ إلى الله غادياً ... فلله ما ضمت عليه اللفائف
وما حملَ النعشَ المزجَّى عشية ... إلى القبر إلا دامع العين لاهف
صدورهمُ مَرْضى عليه عميدةٌ ... لها أزمة من ذكره وزفازفُ[2]

ذهبت وخلّيت الصديق بعولةٍ ... به أسف من حزنه مترادفُ
إذا خطَرَات الذكر عاودن قلبهُ ... تتابع منهن الشئون النوازفُ
حبيبٌ إلى الاخوان يرزون مالهُ ... وآت لما يأتى امرؤ الصدق عارف
هو المَنُّ والسَّلْوَى لمن يستفيدهُ ... وسمٌ على من يشرب السم زاعف
بكت داره من بعده وتنكرت ... معالم من آفاقها ومعارف
هى الدار إلا أنها قد تخشَّعت ... وأظلم منها جانب فهو كاسف

(١) الفقاح جمع فقحة وهى حلقة الدبر (٢) عميدة : مجروحة

وقد كان فيها للصديق معرَّسٌ ... وملتمَسٌ إن طاف بالدار طائف

سريعٌ إلى إخوانه برضائه ... وعن كل ماساء الأخلاء صارف
أرى الناس كالنسناس لم يبق منهم ... خلافك إلا حشوةٌ وزعانف

* * *

أراء مصعب فى النقد

كان مصعب من الكتاب والنقاد الممتازين ، ولكن نقده لم يصل الينا بطريقة تُفصِّل ما كان له من قواعد وأصول ، فلم يبق إلا الاستئناس بما تفرق من آرائه لنرى كيف كان يفهم الشعر ، وكيف كان يحكم على الشعراء .

رأيناه يقضى فى شعر العباس بن الأحنف وعمرو العراف فيقرر أنهما « ما ابتذلا شعرهما فى رغبة أو رهبة ، ولكن فيما أحباه ، فلزما فنا واحداً لو لزمه غيرهما ممن يكثر إكثارهما لضعف فيه »

وهذا نظر بعيد من مصعب ، فان الشاعر الذى يكثر فى فن واحد ويجيد مع الاكثار أولى بالتقدمة ممن يجيد فى طائفة من الفنون ، وفى كلامه تقدير لصدق العاطفة التى تعد أساساً لجودة الشعر البليغ

وقيل له : إن الناس يستبردون شعر العباس بن الاحنف ، فقال . لقد ظلموه ! أليس هو الذى يقول :

قالت ظَلومُ سَمِيّةُ الظلم مالى رأيتك ناحل الجسم
يامن رمى قلبى فأقصده أنت العليم بموقع السهم

وهو فى هذا يذكرنا بكثير من القدماء الذين كانوا يحكمون للشعراء أو عليهم بشواهد من شعرهم من غير أن يبينوا مواطن الضعف ومواقع القوة ، وكذلك كان يرى أبا العتاهية أشعر الناس إذ قال .

تعلقتَ بآمالٍ طوال أى آمال
وأقبلت على الدنيا مُلِحًّا أى أقبال
أيا هـذا تجهَّز لـــفراق الأهل والمال
فلا بد من الموت على حال من الحال

ولعل أظهر آثار مصعب فى النقد هو كلمته المطولة فى خصائص شعر عمر بن أبى ربيعة ، وقد تكلمنا عنها فى المحاضرة الثانية ، وأشار أستاذنا الدكتور طه فى حديث الاربعاء إلى أننا أسرفنا فى نقده ، وأن مصدر هذا الاسراف أننا لم نقدر كما ينبغي اختلاف المُثل الأدبية باختلاف العصور والاجيال

وهذا حق ، إذ كان النقد يتأثر باختلاف الاذواق ، وأنه لايجب أن يرضينا ما كان يرضى أسلافنا من قبل ، ولكن أليس فى كلام مصعب بعد نقدنا له شيء يستحق التقدير ؟

لقد بحثت فى ذلك طويلا ، فرأيت فى كلمة مصعب ناحية لها حظ عظيم من الاهمية ، وذلك أنه أراد التنويه بما أبدع ابن أبى ربيعة من التعابير ، وأحدث من الصُّور : من ذلك تحيير ماء الشباب فى قوله :

وهى مكنونةٌ تحيَّر منها فى أديم الخدين ماء الشباب

وغم الطير فى قوله :

سراعاً نغم الطير إن سنحت لنا وان تلقنا الركبان لانتخبَّرِ

ومخالفته بسمعه وطرفه فى قوله :

سمعى وطرفي حليفاها على جسدى فكيف أصبر عن سمعى وعن بصرى

وإغلاقه رهن منًى وإهداره قتلاه فى قوله

فكم من قتيل ما يُباء به دمٌ ومن غَلِقٍ رهناً إذا لفَّه مِنى [1]

وجنيه الحديث فى قوله

فاجتنينا من الحديث ثماراً ما جنى مثلها لعَمرُك جانى

وقياسه الهوى فى قوله

وقرَّبن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعاً كلما قِسْنَ إصبعا

وتشكِّيه الذى أشجى فيه إذ يقول

(١) ما يباء به دم : لا يؤخذ له بثأر — وغلق الرهن فى الرهن إذا لم يقدر الراهن على افتكاكه في الوقت المشروط

لعمرك ما جاورت غُمدان طائعاً وقصر شَعوب أنْ أكون به صبًّا[1]
ولكنَّ حمّى أضرعتنى ثلاثة مجرَّمة ثم استمرت بنا غِبا[2]
وحتى لو أنّ الخُلد يعرض إن مشت إلى الباب رجلى ما نقلت لها إربا[3]
فانكِ لو أبصرت يوم سُويقةٍ
مُناخى وحبسى العيس داميةً حُدبا[4]
ومصرع إخوان كأن أنينهم أنين مكاكى فارقت بلداً خصبا[5]
إذاً لاقشعرّ الجلد منك صبابةً ولاستفرغت عيناك من عبرة سكبا

وكلمة مصعب مثبتة فى الجزء الاول من الاغانى فليرجع اليها القارىء فقد يرى غير ما نراه

(١) غمدان : قصر باليمن كان من أعاجيب عصره . وقصر شعوب كذلك من قصور اليمن (٢) أضرعتنى : أضعفتنى وأذلتنى. مجرمة : كاملة — والغب من الحمى ما تأخذ يوما وتدع يوما (٣) ما نقلت لها إربا : ما حركت لها عضواً (٤) حدب جمع حدباء وهى الدامية التى تقوس ظهرها هزالا (٥) المكاكى جمع مكاء وهو طير يشبه القبرة أبلق الجناحين

الجوانب الجدية

فى حياة عمر بن أبى ربيعة

لقد أسلفنا القول فى حب ابن أبي ربيعة وشعره ، وقدمناه للقارئ فى صورته التى ألفها الناس فى حياته ، وتمثّلوها بعد مماته . فلم يبق إلا أن نقف قليلا عند الجوانب الجدية من حياة ذلك الشاعر الغَزل الذى لم يره الناس إلاّ تَبِعَ نساء .

ولنُعِد مرة ثانية ما أشرنا إليه من قبل : فقد قلنا إن كثيراً من حوادثه الغرامية من صُنع الخيال ، وقد قبلناه على علاته ، واكتفينا بتلك الاشارة عند التمهيد لأخبار الملاح ، إذ كانت حوادث ابن أبي ربيعة التى أضيفت اليه تدلنا على شيئين : فهى أولاً علامة على أن المتقدمين أَنِسُوا بروحه ، وأسلموا قلوبهم لوحيه ، فأبدعوا فى ظِلال ذكراه ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر ، والهوى الغلاّب . وهى ثانياً دليلٌ على أنه كان للمتقدمين مَيلٌ إلى القَصَص الغرامي وحظ من الاجادة فيه . فكان من الخير أن نستغِلَّ تلك الباكورة القَصصية ونحن نتحدث عمن هَوِى هذا الشاعر من حِسان النساء .

ومن العجيب أنه لم يلتفت أحد من القدماء ولا المُحدَثين إلى

حياة هـذا الشاعر الجدية ، ولم يخطر ببال باحث منهم أن الدنيا فى أحداثها وتصاريفها وأعاجيبها قد تكون ألأم من أن تسمح لشاعر بأن يظل عمره يمرح ويلعب فى ميادين الحب ، وملاعب الجمال .

لقد عاش ابن أبى ربيعة سبعين سنة ، وقد حدثونا أنه ودَّع لهوه وهواه بعد الاربعين ، فياليت شعرى كيف قضى الثلاثين الباقية ، على فرض أنه أمضى أر بعينه الأولى ناعِم القلب ، وادع الروح ؟

ثلاثون سنة بلا لهو ولا عبث ، ولا تذ كُّر ولا التِياع !

هذا والله كثير على شاعر روَّى شبابه بصهباء الرُّضاب ، وقضى فوق ترائب المِلاح ليالىَ وأياماً كانت كل لحظةٍ فيها خيراً من ألف سنة مما تعدون !

أصحيح أن ابن أبي ربيعة لم يقل كلمة واحدة فى بكاء شبابه ، والتوجُّع من مشيبه ، وأنه ودَّع الشعر وداعا أبديا بعد الأربعين ؟ أم كانت له مواقف شعرية لها لونٌ غير ذلك اللون المشرق ، وأن الرواة نسوها أو تناسوها لأن هواهم كان يقضى ببقاء تلك الشخصية الجذابة فى مَرحها ولهوها لِتظل متعة بين نكت السَّمَر ، وأطايب الحديث ؟

نحن إذاً لانعرف شيئاً عن الفصل الأخير من تلك الرواية ، لأنهم أسدلوا الستار بعد انقضاء الفصل الثانى حين حلف الشاعر

لايقول بيتاً إلا أعتق رقبة . فلنبحث أكان الفصل الأول الذى مثَّل لنا الشاعر وهو يعبث فى مناسك الحج صحيحاً فى جملته ، أم كان فصلا غير محكم الوضع ، ولا متقَن التصوير ، أراد واضعه أن يبرز ما فيه من الجوانب الغراميـة ، وأن يغفل الجوانب الجدية ، لحاجة فى نفس يعقوب ؟!

* * *

أكتب هذا وأنا أذكر كلمة الثريا وقد توسل إليها رسول عمر أن تعطف عليه ، فقد قالت :

« ابن أبى ربيعة فارغٌ ونحن فى شُغل »

وهي كلمة نقرؤها باسمين لأنها كلمة نسائية مألوفة من ربات الحِجال ، فانه إذا فرغ عمر وشُغلت الثريا فقد حق لنا أن نرتاب فيما نُسب إليه من الفراغ !

ومن العجيب أن هذا الشاعر الذى اتفق القدماء والمحدثون على فراغه وبطالته هو صاحب هذا البيت :

كُتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وهو بيت عميق الأثر فى النفوس العربية ، وطالما كان لهباً تَقبِسُ

منه عزائم الثائرين — وهو كذلك صاحب هذين البيتين :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجز من لايستبد

والقارىء يعلم أن خصوم البرامكة دسُّوا إلى الرشيد من غناه بهذا الشعر فثار بالبرامكة ، ومزّقهم كلّ ممزق ، بفضل روح عمر بن أبي ربيعة الذى ظنوا شعره برداً وسلاماً ، وفيه لو يعلمون أنفاس السَّعير !

ولقد حدَّثونا أن أخاه الحارث كان ينهاه عن قول الشعر فيأبى أن يقبل منه ، وأنه أعطاه الف دينار ، على ألاّ يقول شعراً ، فأخذ المال وخرج إلى أخواله بِلَحْج وأبين [1] مخافة أن يهيجه مُقامه بمكة على قول الشعر ، فطرب يوماً فقال :

هيهات من أمةِ الوهاب منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدن [2]
واحتلّ أهلك أجياداً فليس لنا إلا التذكُّر أو حظٌّ من الحزن [3]
لو أنها أبصرت باجزع عبرته من أن يغرِّد قمرىٌّ على فَنن [4]
إذاً رأت غير ما ظنت بصاحبها وأيقنت أن لحجاً ليس من وطني

(١) لحج وأبين من مخاليف اليمن (٢) سيف البحر ، بكسر السين ، هو ساحله
(٣) أجياد : موضع بمكة (٤) القمرى ، بضم القاف ، ضرب من الحمام ، والأنثى قمرية ، والجمع قمارى

ما أنسَ لا أنسَ يوم الخَيف موقفها وموقفي وكلانا ثَمَّ ذو شجن
وقولها للثريا وهى باكية والدمعُ منها على الخدين ذو سُنن [1]
بالله قولى له فى غير مَعتبة ما ذا أردت بطول المكث فى يمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن

وأن القصيدة سارت حتى سمعها أخوه الحارث فقال : هذا والله شعر عمر ، قد فتك وغدر !

وأنا لا أصدق أن ابن أبى ربيعة ذهب إلى أخواله باليمن ليفر من نساء الحجاز ، ولا أقبل أن يكون ابن أبى ربيعة قَبِل الرشوة من أخيه ليتوب يوماً أو يومين قبل أن يموت !

فلا بد إذاً أن يكون قد ذهب إلى اليمن فى شأن من الشئون الجدية . ولكن ما هو هذا الشأن ؟ نحن لا نعرفه لأن الرواة لم يحدثونا عنه ، إذ كان من هوانهم أن يخترعوا لهذه القصيدة سبباً طريفاً يضاف إلى ماله من شهىّ الاقاصيص

وقد حدثنا صاحب الأغاني أن مسعدة بن عمرو أخرج عمر ابن أبى ربيعة إلى اليمن فى أمر عرض له ، وتزوجت الثريا وهو غائب ، فليتنا نعلم أى غرض هذا الذى أخرج من أجله عمر بن أبى ربيعة إلى اليمن ؟

(١) ذو سنن : ذو طرائق

فقد يكون أنشأ هذه الغونية فى هذه السَّفْرة ، إن لم يكن ذهب إلى اليمن مرتين لغرضين مختلفين

على أن صاحب الاغانى ذكر فى أخبار جميلة أنها لما قضت حجها سألها المكيون أن تجعل لهم مجلساً ، فقالت : للغناء أم للحديث ؟ قالوا : لهما جميعاً . فقالت : ما كنت لأخلط جداً بهزل ، وأبت أن تجلس للغناء ، فقال عمر بن أبى ربيعة : أقسمت على من كان فى قلبه حبٌّ لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة ، فانى خارج ، فعزم جماعة من الاشراف والشعراء على الخروج ، فلما قدمت المدينة تلقّاها أهلها وأشرافها من الرجال والنساء ، فلما دخلت منزلها وتفرق الجمع إلى منازلهم ونزل أهل مكة على اقاربهم وإخوانهم أتاها الناس مسلمين ، فلما مضى لمقدمها عشرة أيام جلست للغناء ، وقالت لعمر بن أبى ربيعة : إنى جالسة لك ولأصحابك ، وإذا شئت قعد الناس لذلك اليوم ، فغصت الدار بالاشراف من الرجال والنساء ، فابتدأت جميلة فغنت :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدن

فضج القوم من حسن ما سمعوا ، ودمعت عينا عمر حتى جرى الدمع على ثيابه ولحيته . وما رأوه كذلك من قبل

وهذه القصة تدلنا على أن ابن أبى ربيعة كان لا يزال يلهو ويتبع

النساء بعد قصيدته التى قالها فى اليمن شوقاً إلى الحجاز ، فلم يكن إذاً بالرجل الذى يقبل الرشوة من أخيه ليودع قرة عينه فى الحياة !

* * *

وهناك فرض آخر لتوبة ابن أبى ربيعة ، فقد ذكروا أن عمر ابن عبد العزيز لما ولى الخلافة لم تكن له همة إلا عمر بن أبي ربيعة والاحوص فكتب إلى عامله على المدينة :

« قد عرفت عمر ، والاحوص ، بالخبث والشر ، فاذا أتاك كتابى هذا فاشددهما واحملهما إلىّ »

فلما أتاه الكتاب حملهما إليه فأقبل على عمر فقال له : هِيهِ

فلم أر كالتجمير منظر ناظرٍ ولا كليالى الحج أفلتن ذا هوى

وكم مالىءٍ عينيه من شىء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدُّمى

فاذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام فمتى يُفلتون ؟ أما والله لو اهتممت بأمر حجك لم تنظر إلى شىء غيرك — ثم أمر بنفيه . فقال يا أمير المؤمنين ، أو خير من ذلك . قال : وما هو ؟ قال : أعاهد الله أن لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء فى شعر أبداً ، وأجدد توبةً على يديك . قال . أو تفعل ؟ قال نعم . فعاهد الله على التوبة وخلاه

ولم تقف قصة هذا الشعر عند عمر بن عبد العزيز ، فقد ذكروا أيضاً أن سليمان بن عبد الملك حج وهو خليفة فأرسل إلى عمر بن أبى ربيعة فقال له : ألست القائل :

وكم من قتيل ما يُباء به دمٌ ومن غَلِقٍ رهنا إذا لفّه مِنَى

قال نعم ، فقال : لاجَرَم ، والله لاتحضر الحج مع الناس هـذا العام ، وأخرجه إلى الطائف ،

أفكان هذا الشعر بعينه شُؤماً على صاحبه إلى هـذا الحد : فيُمنع من الحج مرة ، وينفى مرة ؟ !

أما أنا فأستبعد ذلك ، وأرجح أن أنصار بنى أمية أرادوا أن يبالغوا فى وصف خلفائهم بالحزم والغيرة على الحرمات فصوروا ابن أبى ربيعة طريداً لعبد الملك بن مروان [1] وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز

(١) وفد عمر على عبدالملك فادخل عليه فسأله عن نسبه فانتسب له ، فقال :

لاأنعم الله بعين عينا تحية السخط اذا التقينا

أنت لاأم لك القائل :

نظرت اليها بالمحصب من منى ولى نظر لولا التحرج عارم
فقلت أشمس أم مصابيح بيعة بدت لك تحت السجف أم أنت حالم
بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ثم قال له : قاتلك الله فما ألأمك ! أما كانت لك في بنات العرب مندوحة عن بنات

وهذا ليس بغريب فى بابه : فقد اخترع أشياع عمر بن الخطاب حكايةً جازت على الناس إلى اليوم حتى ادخلها شاعرنا حافظ بك ابراهيم في قصيدته العمرية ، وهى حكاية نصر بن حجاج ، إذ زعموا أن عمر سمع امرأة تتغنى فى هدأة الليل :

هل من سبيلٍ إلى خمر فأشربَهَا أم هل سبيلٌ إلى نصر بن حجّاج

فغضب وطلب نصر بن حجاج فاذا هو فتى وسيم الوجه ، أجمل ما فيه شعَره ، فأمرَ أن يُحلق لتُتّقى فتنته ، ولكنه نظر فاذا هو أفتن الناس وهو حليق ، فأمر بنفيه من المدينة !

وأنا لاأشك فى أن هذا من حديث خرافة ، فما كنت لأصدق أن عمر بن الخطاب يفرُغ لهذه السفاسف أو ينفى فتى لاذنب له إلا أنه جميل ، وهو يعلم أنه ينقل فتنته إلى غير المدينة من أمصار المسلمين

* * *

عمك ؟ فقال عمر : بئست والله هذه التحية ياأمير المؤمنين لابن العم على شحط الدار ، وتنائى المزار

وله مع عبدالملك موقف آخر أشرنا اليه في المحاضرة الثالثة . وفي كلا الموقفين يتنكر عبد الملك ويقف من الشاعر موقف المسيطر الغضبان . ولهذا النحو من الحديث دلالته على حرص اشياع بنى أمية في تصوير خلفائهم بصورة الجد والوقار فى معاملة الغزلين من الشعراء

وقد استقصيت أخبار عمر بن أبي ربيعة لأحدد ما كان فى حياته من الجوانب الجدية ، فرأيت مثلا أنه كان يشتغل بالدفاع عن قومه بنى مخزوم ، وانه كان يقارع خصومهم ، وله في ذلك حديثه المشهور يوم نازع اللهبى فى المسجد الجامع[1] . ورأيت أيضاً انه كان حريصا مسرفاً فى الحرص على الاستبداد بالحياة الأدبية : فكان يعارض جميلا وجريراً والفرزدق والأحوص ومالك بن أسماء ، وهذا نوع من الجد لو دوّنت أخباره لكان أمتع وانفع من أخباره فى أيام الطواف . ورأيت كذلك أنه تزوج غير مرة ، وكان له بنون وبنات ، وهذه شئون جدها جد ، وهزلها جد ، لو عُنى بها الرواة لأرونا كيف كان يقابل هذا الشاعر مصاعب الحياة

وقد مرت بالقارئ اشارات إلى مواقفه مع جميل والفرزدق ونُصيب وكثير ، وله معهم حديث آخر سيجيء فى باب المُلح والفكاهات فلنذكر هنا حديثه مع مالك بن أسماء ، فقد كان مفتوناً بشعره ، وكان يتشوق إليه منذ سمع قوله

ان لى عند كل نفحة بستا ... ن من الورد أو من الياسمينا
نظرةً والتفاتةً أتمنّى ... أنّ تكونى حللت فيما يلينا

(١) ص ٨ ، ٩ ج ١٥ من الاغانى طبع بولاق

فلما تلاقيا وتعارفا وتناشدا قال له عمر : ما أحسن شعرك لولا أسماء القرى التى تذكرها فيه . قال : مثل ماذا ؟ قال : مثل قولك :

ان فى الرفقة التى شيّعتنا ... بجويريسما لزينَ الرِّفاقِ

ومثل قولك :

حبذا ليلتى بتلّ بَوَنّا ... حيث نُسقي شرابنا ونُغنّى

فقال له مالك : هى قرى البلد الذى أنا فيه ، وهو مثل ما تذكره فى شعرك من أرض بلادك : قال : مثل ماذا ؟ قال : مثل قولك

حىّ المنازل قد درن خرابا ... بين الجوين وبين ركن كسابا

ومثل قولك :

ما على الرسم بالبليّين لو يبـ ... ـنَ رجع السلام أو لو أجابا

وفى هذا الحديث نحوٌ من الجد فى نقد الشعر ، ونظن أنه كانت له اتجاهات أدبية فى النقد لم يدونها الرواة إذ صرفوا همهم إلى حياته الغرامية

قلت إنه تزوج غير مرة ، وكان له بنون وبنات ، فلا أذكر أنى لم أستطع التثبت من عدد زوجاته ولا أبنائه ، لأن الرواة أغفلوا الافاضة فى هذا الجانب من حياته الجدية ، فلم يبينوا كيف كان يعامل

زوجاته ، ولا كيف كان يربى أولاده ، ولا كيف كان يتصرف فى تثمير أمواله ، وتقويم عبيده وإمائه ، ولم يعيّنوا « الحوائج » التي ذكروا فى غير موطن انه كان يعتمد فى قضائها على الخلفاء

ومع أن الرواة حدثونا أنه هجر الشعر بعد الأربعين فقد حدثونا أيضا أنه نظر فى الطواف إلى امرأة شريفة فرأى أحسن خلق الله صورة ، فذهب عقله عليها وكلمها فلم تجبه ، فقال فيها شعراً جزعت منه فقيل لها اذكريه لزوجك فانه سينكر عليه قوله ، فقالت : كلا والله ، لا أشكوه إلا إلى الله ، ثم قالت : اللهم ان كان نوّه باسمى ظالما فاجعله طعاماً للريح . فاستجيبت دعوتها إذ غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل فاستتر بسلمة ، فعصفت الريح فخدشه غصن منها فدمِىَ وورم به ومات من ذلك . والاختلاق ظاهر فى هذا الحديث

ومن الرواة من حدّث أنه مات فى غزوة . والعجيب أن تدون حوادثه الغرامية بما رأى القارىء من التفصيل ، ولا يتفق الرواة فى حديثهم عن وفاته .

أفترام أنصفوا يوم رأوا الموت غير خليق بعناية الأحياء . !

الملح والفكاهات

رأينا أن نختم هذا الكتاب بطائفة من المُلَح والفكاهات التى تتصل بعمر بن أبى ربيعة ليرى القارئ كيف كانت تجرى النادرة على ألسنة الحجازيين فى ذلك الزمان

— ١ —

أنشد عمر بن أبى ربيعة ابن أبى عتيق قوله :

لم تَرَ العينُ للثريا شبيها ... بِمَسيل التِّلاع يوم التقينا [1]

فلما بلغ الى قوله

ثم قالت لاختها قد ظلمنا ... أن رددناه خائباً واعتدينا

قال : أحسنتْ والهدايا [2] واجادَتْ ، ثم أنشد ابن أبى عتيق متمثلا :

أرينى جواداً مات هُزلاً لعلّنى ... أرى ما تَرَيْن أو بخيلا مخلّدا

(١) التلاع جمع تلعة وهي مجرى الماء من أعلى الوادى الى بطون الارض

(٢) الهدايا جمع هدية والمراد بها ههنا مايهدى الى البيت الحرام من النعم لتنحر برا بالفقراء

فلما بلغ عمر إلى قوله :

فى خلاءٍ من الانيس وأمن

قال ابن أبي عتيق : أمكنتْ للشارب الغُدُر[1] ، من عال بعدها فلا انجبر[2] .

فلما بلغ إلى قوله :

فمكثنا كذاك عشراً تِبَاعا فقضينا ديوننا واقتضينا

قال : أما والله ما قضيتها ذهباً ولا فضة ولا اقتضيتها إياه ، فلا عرَّفكما الله قبيحاً .

فلما بلغ إلى قوله :

كان ذا فى مسيرنا إذ حججنا علم الله فيه ما قد نوينا

قال : إن ظاهر أمرك ليدل على باطنه ، فاورد التفسير ، ولئن مت لا موتن معك ، أُفٍّ للدنيا بعدك يا أبا الخطاب ! فقال له عمر : بل عليها بعدك العفاء يا أبا محمد .

— ٢ —

حدَّث محمد بن سلاّم قال : كانت سوداء بالمدينة مشغوفة بشعر عمر ابن أبى ربيعة ، وكانت من مولَّدات مكة ، فلما ورد على أهل المدينة

(١) الغدر جمع غدير وهو مجرى صغير من بقايا السيل (٢) عال : افتقر

نعى عمر بن أبي ربيعة أكبروا ذلك ، واشتد عليهم ، وكانت السوداء أشدهم حزناً وتسلُّباً[1] وجعلت لاتمر بسكة من سكك المدينة إلا ندبته فلقيها بعض فتيان مكة فقال لها : خفضى عليك فقد نشأ ابن عمّ له يشبه شعره شعره ، فقالت أنشدني بعضه ، فأنشدها قوله

إني وما نحروا غداة منًى عند الجمار تؤودها العُقل[2]

لو بُدِّلت أعلى منازلها سِفلا وأصبح سِفلها يعلو

فيكاد يعرفها الخبير بها فيرده الإقواء والمَحْل[3]

لعرفت مغناها بما احتملت منى الضلوع لأهلها قبلُ

فجعلت تمسح عينها من الدموع وتقول : الحمدلله الذى لم يضيِّع حرَمه !

كذلك روى صاحب الاغاني[4] أما صاحب زهر الآداب فقد قال[5] لما مات عمر بن أبي ربيعة نُعِيَ لامرأة من مولدات مكة وكانت بالشام فبكت وقالت : مَن لأباطح مكة[6] ومن يمدح نساءها ، ويصف محاسنهن ، ويبكى طاعتهن ، فقيل لها : قد نشأ فتى من ولد عثمان بن عفان على طريقته ، فقالت أنشدوني له ، فأنشدوها :

(١) التسلب : الحداد ، وتسلبت المرأة وسلبت على ميتها فهى مسلب اذا احدت عليه (٢) تؤودها : تثقلها — العقل : جمع عقال (٣) الاقواء : الاقفار

(٤) ج ٣ ص ١١٤ طبع بولاق (٥) ج ٢ ص ٢٤٠ (٦) جمع ابطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى

لقد أرسلت ليلى رسولا بأن أقم ... ولا تقربنّا فالتجنب أمثلُ
لعل العيون الرامقات لودنا ... تُكذَّب عنا أو تنام فتغفل
أناس أمنّاهم فنثّوا حديثنا ... فلما كتمنا السر عنهم تقوّلوا (١)
فما حفظوا العهد الذى كان بيننا ... ولا حين هموا بالقطيعة أجملوا
فقلت وقد ضاقت بلادى برحبها ... علىّ بما قد قيل فالعين تهمل
سأجتنب الدار التى أنتمُ بها ... ولكنّ طرفى نحوها سوف يعمل
ألم تعلمي أنى — وهل ذاك نافعي ... لديك، وما أخفى من الود أفضل
أرى مستقيم الطرف ما الطّرف أمكم ... وإن أمّ طرفى غيركم فهو أحول

فقلت وقالت : هذا أجلُّ عوض ، وأفضل خلف ، فالحمد لله الذى خلّف على حرمه وأمته مثل هذا

وفى هذا الاختلاف بين رواية القصة كما ذكرها صاحب الاغانى وصاحب زهر الآداب ، دليل على أن فيها أثراً للوضع ، أو التحريف ، وهي تدلنا على أنه كان معروفاً فى ذلك العصر أن فى شعر الحارث ابن خالد ، وفى شعر العرجى ، مشابهةً بينة لشعر عمر بن أبى ربيعة ، وقرباً لِمَنْحاه فى التشبيب بالنساء

(١) نث الحديث : أذاعه . والنثاث : المغتابون ، وهو تمثيل للغيبة بالنثيثة وهي رشح الزق والسقاء

وقد ذكر موريس دونيه فى حياة ألفريد دى ميسيه الغرامية أنه رؤيت سيدة تنتحب فى القطار فسألها الناس عن سبب بكائها فقالت : يا ويحكم ! ألم تعلموا أن ألفريد دى ميسيه قد مات !

وكذلك تتشابه الحياة الوجدانية على اختلاف البقاع والأجيال

— ٣ —

قال عبد الملك بن مروان لعمر بن أبي ربيعة : أنت القائل :

أأترك ليلى ليس بينى وبينها ... سوى ليلةٍ ؟ إني إذاً لصبور (١)

فقال : نعم ! فقال : بئس المحب أنت ، تركتها وبينها وبينك غدوة ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إنها من غدوات سليمان ، غدوُها شهر ، ورواحها شهر !

— ٤ —

قدم عمر بن أبي ربيعة المدينة من أجل امرأة من أهلها فأقام بها شهراً ، فذلك قوله :

بعد هذا البيت

هبونى أمرءاً منكم أضل بعيره ... له ذمة ان الذمام كبير
وللصاحب المتروك أعظم حرمة ... على صاحب من أن يضل بعير

وينسب هذا الشعر أيضاً لأبى دهبل الجمحى ومجنون بنى عامر (ان صح أنه وجد) وفى ذلك تأييد لما أشرنا اليه من أن ابن أبى ربيعة غلب على شعراء عصره فأضاف اليه الرواة كثيرا من شعرهم

يا خليليَّ قد مَلِلْت ثوائي بالمصلّى وقد شنئتُ البقيعا (١)
بلِّغاني ديار هند وسلمى وارجعا بي فقد هويت الرجوعا

ثم خرج إلى مكة وخرج معه الاحوص واعتمرا . ثم مرّا بوَدّان (٢) فى رواحهما فحبسهما نصيب وذبح لهما وأكرمهما، وكان لحقهما سائب راوية كثير ، ثم خرجوا وخرج معهم نصيب . فلما جاؤا كُلّيّة (٣) عدلوا جميعاً إلى منزل كثير فقيل لهم هبط قُدَيداً (٤) وذكر لهم أنه فى خيمة من خيامها . فقال ابن أبي ربيعة لسائب : اذهب فادعه لى . فقال النصيب هو أحمق وأشد كِبرا من أن يأتيك . فقال عمر اذهب كما أقول فادعه لى . فجاءه فهش له . وقال : اذكر غائبا تره . لقد جئت وأنا أذكرك . فأبلغه رسالة عمر ، فحدّد إليه نظره وقال : أما كان عندك من المعرفة ما يردعك عن إتياني بمثل هذه الرسالة ؟ فقال : بلى والله ! ولكنى سترت عليك فأبى الله الا أن يهتك سِترك . فقال له : انك والله يا ابن ذكوان ما أنت من شكلي . فقل لابن أبي ربيعة : ان كنت قرشياً فأنا قرشى . فقال له : لا تترك هذا التلصق وأنت تفرق عنهم كما تفرق الصمغة ؟ ! فقال كثير : والله لأ نا أثبت فيهم منك فى سدوس . ثم قال :

(١) البقيع : الموضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ؛ وهو اسم لعدة مواضع بالمدينة (٢) ودان : موضع بين مكة والمدينة يكثر ذكره فى شعر نصيب
(٣) كلية على وزن سمية واد بقرب الجحفة (٤) قديد : اسم موضع قرب مكة

وقل له إن كنت شاعراً فأنا أشعر منك ! فقال له : هذا اذا كان الحكم اليك ، فقال : والى مَن هو ؟ ومن أولى بالحكم منى اليوم ؟ فرجع سائب إلى عمر فقال : ما وراءك ؟ فقال : ما قال لك نصيب . وأخبره الخبر فضحك وضحك صاحباه ، ثم نهضوا معه اليه ، فدخلوا عليه فى خيمة فوجدوه جالساً على جلد كبش . فلم يوسع لابن أبى ربيعة. فلما تحدثوا ملياً وأفاضوا فى ذكر الشعراء أقبل على عمر فقال له : أنت تنعت المرأة فتشبب بها ثم تدعها وتنسب بنفسك ، أخبرنى يا هذا عن قولك

قومى تصدَّىْ له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت فى خَفَرِ
قالت لها قد غمزته فأبى ثم استُطيرت تشتد فى أثرى (١)

أتراك لو وصفت بهذا هِرة أهلك ، ألم تكن قد قبحت، وأسأت، وقلت الهجر ؟ انما توصف الحرة بالحياء والاباء ، والبخل والامتناع ، كما قال هذا — وأشار إلى الأحوص —

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدورُ
وما كنت زوّاراً ولكن ذا الهوى اذا لم يُزر لا بد أنْ سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر وانى إلى معروفها لفقير

فدخلت الاحوص أبّهة ، وعُرفت الخيلاء فيه ، فلما استبان ذلك

(١) استطيرت : بالبناء للمجهول: أسرعت فى الجرى وروى : اسبطرت. والمعنى واحد

كثير قال : أبطل آخرك أولك ، اخبرنى عن قولك :

فان تصلى أصلك وان تبينى بصرمك بعد وصلك لا أبالى
ولا ألفى كمن إن سيم صرما تعرّض كى يُردّ الى الوصال

أما والله لو كنت خلاً لما باليت ولو كسرت أنفك ! ألا قلت كما قال هذا الأسود — وأشار إلى نصيب — :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركبُ وقل إن تمنّينا فما ملّك القلبُ

فانكسر الأحوص، ودخلت النصيب أبهة، فلما نظر أن الكبرياء قد دخلته قال له : وأنت يا ابن السوداء فأخبرنى عن قولك

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فوا كبدى من ذا يهيم بها بعدى

أهمك من ينيكها بعدك؟

فلما أمسك كثيّر أقبل عليه عمر فقال له : قد أنصتنا لك فاسمع يامذبوب[1] أخبرنى عن تخيرك لنفسك ، وتخيّرك لمن تحب، حيث تقول.

ألا ليتنا يا عز كنا لذى غنى بعيرين نرعى فى الخلاء ونُعزَبُ[3]
كِلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تُعدى وأجرب[2]
اذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما تنفك نُرمى ونضربُ
ودِدْتُ وبيت الله انك بَكرةٌ هِجانٌ وأنى مُصعبٌ ثم نهرب[4]

(١) المذبوب : المجنون (٢) نعزب : نبعد (٣) العر ، بالفتح والضم : الجرب
(٤) الهجان ، على وزن كتاب : هي من الابل البيض — والمصعب : الفحل

نكون بعيرَىْ ذى غنى فيُضيعنا فلا هو يرعانا ولا نحن نُطلبُ

والله لو احتفل عليك هاجيك مازاد على ما بُؤت به على نفسك .

فخفق كثيّر كما يخفق الطائر ، فأقبل عليه نصيب فقال : أقبل علىّ يا زب الذباب[1] فقد تمنيت معرفة غائب عندى علمه فيك حيث تقول .

وددت وما تغنى الوِدادة أننى بما فى ضمير الحاجبية عالمُ
فان كان خيراً سرّنى وعلمتهُ وان كان شراً لم تلمنى اللوائم

انظر فى مرآتك ، واطّلع فى جيبك ، واعرف صورة وجهك ، تعرف ما عندها . فاضطرب كثير اضطراب العصفور وقام القوم يضحكون[2]

— ٥ —

واعدت الثريا عمر بن ابى ربيعة ان تزوره . فلما جاءت فى الوقت الذى ذكرته صادفت أخاه الحارث قد زاره فأقام عنده ووجه به فى حاجة له ونام مكانه وغطى وجهه بثوبه ، فلم يشعر الا بالثريا قد ألقت نفسها عليه تقبله ، فانتبه وجعل يقول : اعزبى عنى فلست بالفاسق أخزاك الله ! فلما علمت بالقصة انصرفت وجاء عمر فأخبره الحارث بخبرها ،

(١) يرميه بالضعف والضئولة (٢) الاغانى ج ١١ ص ١٨ طبع بولاق

فاغتمّ لما فاته منها ، وقال : أما والله لاتمسك النار ابدا وقد ألقت نفسها عليك ! فقال الحارث : عليك وعليها لعنة الله !

— ٦ —

كان لابن ابى ربيعة ابن صالح يقال له «جُوان» وفيه يقول العرجى :

شهيدى جُوانٌ على حبها أليس بعدل عليها جُوانُ

وقد جاء جوان هـذا الى زياد بن عبد الله الحارثى وهو اذ ذاك أمير على الحجاز فشهد عنده بشهادة ، فتمثل

شهيدى جوان على حبها أليس بعدل عليها جُوانُ !

ثم قال : قد أجزْنا شهادتك

وقد غضب جوان من هذا الشعر وجاء الى العرجي فقال له : ياهذا ، مالى ولك تشهّرني فى شعرك ! متى أشهدتنى على صاحبتك هذه ! ومتى كنت انا أشهد فى مثل هذا !

— ٧ —

عرض يزيد بن معاوية جيش أهل الحرة فمر به رجل من أهل الشام معه تُرسٌ خَلَق سَمْج ، فنظر اليه يزيد وضحك وقال له : ويحك ! تُرس عمر بن ابى ربيعة كان أحسن من ترسك ! يريد قول عمر

فكان مِجنّى دون من كنت أتقى ثلاث شخوص كاعبان ومُعصِر

— ٨ —

حدث بُدَيح قال : حجت بنت محمد بن الاشعث الكندية فراسلها عمر بن ابى ربيعة ووعدها ان يتلقاها مساء الغد ، وجعل الآية بينه وبينها ان تسمع ناشدا ينشُد يعلمها بمصيره الى المكان الذى وعدها . قال بديح : فلم أشعر به الا متلثما فقال لى : يابديح ، ائت بنت محمد بن الاشعث فأخبرها انى قد جئت لموعدها . فأبيت أن أذهب وقلت : مثلى لايعين على مثل هـذا . ففيَّب بغلته عنى ثم جاءنى فقال لى : قد أضللت بغلتى فانشُدها لى فى زقاق الحاج ، فذهبت فنشدتها ، فخرجت علىّ بنت محمد ابن الاشعث وقد فهمت الآية ، فأتته لموعده ، وذلك قوله :

وآية ذلك ان تسمعى اذا جئتكم ناشدا ينشُدُ

قال بديح : فلما رأيتها مقبلة عرفت انه قد خدعنى بنَشْدى البغلة فقلت له : ياعمر ! لقد صدقت التى قالت لك :

فهذا سحرك النسوا ن قد خبرّنى الخبرا

قد سَحَرْتنى وانا رجل ! فكيف برقة قلوب النساء وضعف رأيهن ! وما آمنك بعدها ، ولو دخلت الطواف ظننت انك دخلته لبلية . قال : وحدثها بحديثى فما زالا ليلتهما يفصلان حديثهما بالضحك منى

— ٩ —

انشد ابن ابي ربيعة قوله :

ياخليليّ من ملام دعانى وألمّا الغداة بالاظعان

لاتلوما فى آل زينب ان ال قلب رهنٌ بآل زينب عاني

فبلغ ذلك ابا وَدَاعة السهمي فأنكره وغضب . وبلغ ذلك ابن ابى عتيق وقيل له : ان ابا وداعة قد اعترض لابن ابى ربيعة دون زينب بنت موسى وقال : لاأُقر لابن أبى ربيعة ان يذكر امرأة من بنى هُصَيْص فى شعره ، فقال ابن ابى عتيق: لاتلوموا أبا وداعة أن يُنعِظ من سَمَرْقَنْد على أهل عَدَن !

— ١٠ —

قال ابن ابى عتيق لابن ابى ربيعة : ياعمر ! ألم تخبرنى انك ماأتيت حراماً قط ؟ قال : بلى . قال فأخبرنى عن قولك

وما نلتُ منها مَحرماً غير اننا كلانا من الثوب المورد لابسُ

ما معناه ؟ فقال : والله لأخبرنك: خرجت اريد المسجد وخرجت زينب تريده ، فالتقينا فاتعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسطنا الشِّعب أخذتنا السماء فكرهت أن يرى بثيابها بلل المطر فيقال لها : ألا

استترت بسقائف المسجد إن كنت فيه ! فأمرت غلمانى فسترونا بكساء خز كان على ، فذلك حين أقول :

كلانا من الثوب المورد لابس

فقال له ابن ابى عتيق : ياعاهر ! هذا البيت يحتاج الى حاضنة !

— ١١ —

خرج عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد وأبو ربيعة المصطلق ورجل من بنى مخزوم يشيعون بعض خلفاء بنى أمية ، فلما انصرفوا نزلوا بسَرِف فلاح لهم برق ، فقال الحارث : كلناشاعر ، فهلمُّوا نصف البرق ، فقال أبو ربيعة :

أرقت لبرق آخر الليل لامع جرى من سناه ذوالرُّبى فيُنابعُ[1]

فقال الحارث :

أرقتُ له ليل التمام ودونهُ مهامهُ موماةٍ وأرض بلاقع[2]

فقال المخزومى :

يضيء عضاه الشوك حتى كأنه مصابيح أوفجر من الصبح ساطع[3]

(١) ينابع اسم مكان أو جبل أو واد في بلاد هذيل

(٢) ليل التمام هو أطول ليالى الشتاء — والمهامه جمع مهمه وهو الصحراء الواسعة الارجاء — والموماة الفلاة الواسعة الملساء — وارض بلاقع : خراب

(٣) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك

فقال عمر :

أيارب لا آلو المودة جاهداً ... لأسماء فاصنع بى الذى أنت صانع

ثم قال : مالى وللبرق والشوك !

— ١٢ —

لقى عمر ليلى بنت الحارث وهى تسير على بغلة لها وكان قد شبب بها فقال : جعانى الله فداك ! عرِّجى ها هنا أسمعك بعض ما قلته فيك . فقالت : أوَقد فعلت ؟ قال : نعم . فوقفت وقالت : هات ، فأنشدها

ألا ياليلَ ان شفاء نفسى ... نوالك ان بخلت فنوِّلينا

وقد حضر الرحيل وحان منا ... فراقك فانظرى ما تأمرينا

فقالت : آمرك بتقوى الله وإيثار طاعته ، وترك ما أنت عليه !

ثم صاحت ببغلتها ومضت

— ١٣ —

حدث سفيان ابن عيينة قال :

بينا انا ومِسعر بن كِدام مع اسماعيل بن أمية بفناء الكعبة واذا بعجوز قد طلعت علينا عوراء متكئة على عصا يصفق أحد لَحييها

على الآخر ، فوقفتْ على اسماعيل فسلمتْ عليه ، فرد عليها السلام ، وسألها فأحفى المسألة ، ثم انصرفت . فقال إسماعيل : لا إله إلا الله ! ماذا تفعل الدنيا بأهلها ! ثم أقبل علينا فقال : أتعرفان هذه ؟ قلنا : لا والله . ومن هى ؟ قال : هذه «بَغوم» ابن أبي ربيعة التى يقول فيها

حبّذَا أنتِ يا بَغُوم وأسما ... وعِيصٌ يَكُنُنا وخلاءُ (١)

انظرا كيف صارت ، وما كان بمكة امرأةٌ أجمل منها ! فقال له مسعر : لا ورب هذه البَنِيّة ، ما أرى أنه كان عند هذه خير قط !

— ١٣ —

حدثت ذُهيبة مولاة محمد بن مصعب بن الزبير قالت : كنت عند أمة الحميد بنت عمر بن أبي ربيعة فى الجُنيد الذى فى بيت سكينة بنت خالد بن مصعب أنا وأبوها عمر وجاريتان له تغنيان : يقال لاحداهما البغوم ، والاخرى أسماء ، وكانت أمة الحميد بنت عمر تحت محمد ابن مصعب بن الزبير ، فقال عمر بن أبي ربيعة وهو معهم فى الجنيد .

صَرَمت حبلك البَغوم وصدت ... عنك فى غير ريبةٍ أسماءُ

(١) العيص : الشجر الكثير الملتف

والغواني إذا رأينك كهلاً ❊ كان فيهن عن هواك التواء
حبذا أنت يا بغوم وأسما ❊ وعيشٌ يكننا وخلاء

فلما انتهى إلى قوله

ولقد قلت ليلة الجزل لما ❊ أخضلتْ ريطتي عليَّ السماء

خرجت البغوم ثم رجعت اليه فقالت : ما رأيت أكذب منك يا عمر تزعم أنك بالجزل وأنت فى جُنيد محمد بن مصعب ، وتزعم أن السماء أخضلت ريطتك وليس فى السماء قَزَعة (١)

فقال عمر : هكذا يستقيم هذا الشأن

* * *

أما بعد فهذا كتابٌ أشعر بأن خيرهُ نِفايةُ شره ، وأن ما فيه من هُدًى أسيرُ ما فيه من ضلال ، وإني لأقول :

ضاق الفضاء عليَّ من عبثِ الصبا ❊ ورحمت فضلى من هواه العائثِ
فأغثْ فديتك يا مَشيبُ كرامتي ❊ إني سئمت من الشباب العابثِ

وسبحان مَن لو شاء لعجّل التوب ، وعفا عما تسلّف من ذنوب

زكى مبارك

(١) القزعة : قطعة الغيم

أغلاط مطبعية

صحح هذا الكتاب بغاية العناية ، ولكننا بعد الفحص الدقيق عثرنا فيه على أغلاط قليلة رأينا اثباتها هنا ليصححها القارئ فى نسخته إن شاء

خطأ	صواب	صفحة	سطر
الاحوض	الاحوص	٤٨	١١
أحبك	أحب	٨٩	١٤
الحجال حجلة	الحجال جمع حجلة	١٠٧	١٤
أما ترحمنى	أما ترحمنى	١٠٩	٣
تحلف	تحلف	١٢٣	١٧
وأوعدته	وواعدته	١٣٦	٨
بذلا	بزلا	١٦٣	٧
يستفيد	يستقيد	١٦٤	١٧
فولاها اياها	فولاه إياها	١٦٦	١١
الاخشبات	الاخشبان	١٧٦	١٦
الا رائحته	الا راكة	١٧٦	١٧
الذى يرضى	الذى لايرضى	١٨٥	٧
فى قصة	قصة	٢٠٠	٣
يمن	يمن	٢٤٣	٦

فهرس

ص

٣ الاهداء
٥ كلمة الشيخ مصطفى القاياتى
٧ كلمة الدكتور طه حسين
٩ مقدمة الطبعة الاولى
١١ - من النفس إلى النفس
١٥ مقدمة الطبعة الثالثه
٣٥ المحاضرة الاولى : حب ابن أبي ربيعة
٥٩ المحاضرة الثانية : رأى مصعب الزبيرى
٩١ المحاضرة الثالثة: شعر ابن أبى ربيعة
١٢٣ أخبار الملاح
١٢٩ أيام الطواف
١٤٣ عائشة بنت طلحة
١٤٤ جمالها
١٥٠ أخلاقها
١٦٠ عقلها
١٦١ جمالها
١٦٥ أخبارها مع الحارث بن خالد
١٧٣ ما كان بينها وبين عمر
١٨٠ سكينة بنت الحسين
١٨٣ حياتها الادبية
١٧ عنايتها بالغناء
١٩٠ أزواجها

ص

١٩٣ جمالها
١٩٥ أخلاقها
١٩٨ صلتها بابن أبى ربيعة
٢٣٠ الثريا بنت على
٢٠٦ ظرف ابن أبى عتيق
٢٠٩ الثريا وسهيل
٢١٢ الثريا عند الوليد بن عبد الملك
٢١٤ شعر عمر فى الثريا
٢١٧ جناية الثريا على ثنايا عمر
٢١٨ بكاء الثريا
٢١٩ زينب بنت موسى
٢٢٦ فاطمة بنت عبد الملك
٢٢٧ حسابها لعمر على هتك الحرائر
٢٣٥ أزواجها
٢٣٦ هند بنت الحارث
٢٥٢ رائية ابن أبى ربيعة
٢٧٠ لامية جميل
٢٧٤ تأثير ابن أبى ربيعة فى شعراء اللغة العربية
٢٨٦ مصعب بن عبد الله الزبيرى
٢٩٥ الجوانب الجدية فى حياة ابن أبى ربيعة
٣٠٧ الملح والفكاهات

فهرس القوافى

ص

حرف الألف

فيه حكمى أوقضائى ٤١
غيرها وصلها اليها أداء ٦٩
إنه ينفع المحب الرجاء ٨٤

حرف الباء

رب جد جره اللعب ١٥
عدوا ولم نسمع به قيل صاحب ٣٩
ولا هو يسليه رخاء ولا كرب ٥١
وأبر همى والاحاديث زينب ٥٢
وأبى لا أرعاك حين أغيب ٦٩
ولا يحسبون الشر ضربة لازب ٨٢
تمزج الجد مرارا باللعب ٨٣
بين خمس كواعب أتراب ٨٩
وأكرم ان لاقيت يوما لكم كلبا ١٠٥
على الكريم وحق الضيف قد وجبا ١٧٠
عجب وهل في الحب من متعجب ١٧٥
وكففت عن ذم المشيب الآيب ١٨٩
بكل فتى رحب الذراع أريب ١٩٣
منها على الخدين والجلباب ١٩٨
صفيا لنفسى ولا صاحبا ١٩٩
أتحب القتول اخت الرباب ٢٠٦

ص

رجع السلام أو لو أجابا ٢١٢
واعترتنى نوائب الاطراب ٢١٥
يوم الرحيل فهاج لى أطرابى ٢٢٦
فأحب بها من مرسل متعصب ٢٥٦
وقصر شعوب أن أكون به صبا ٢٩٤

حرف التاء

ولو رضيت رشح استه لاستقرت ٣٣
هوانى ولكن للمليك استذلت ٣٩
خليلى مادونه لعجتا ٥٥
فلو جن انسان من الحسن جنت ٧٨
إذا مامشت ولا بذات تلفت ٨٠
به زينب في نسوة عطرات ١٦٢
وأحسن شىء مابه العين قرت ١٨٤
من وجه جارية فديته ٢٨٢

حرف الجيم

نوى يوم صحراء الغميم لجوج ٧١
أن ترحمى عمرا لاترهقى حرجا ١٧٦
انك الا تفعلى تحرجى ١٨٨
لا أنبهن الحي ان لم تخرج ٢٢٨
أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج ٣٠٣

ص

حرف الحاء

فان كريما من تضم الصفائح ٢١
قول تغلظه وإن جرحا ٢٨١
فمضينا مصعبا صباحا ٢٨٩
فابطاى في عداد الفقاح ٢٩٠

حرف الدال

رطب العجان وكفه كالجلمد ٢٧
لكنت اليوم أشعر من لبيد ٣٢
وحل بين عينها وبين فؤادى ٤١
قل الثواء لئن كان الرحيل غدا ٤٧
وتزعمنى ذا ملة طرفا جلدا ٥٠
قد أتانا ماقلت في الانشاد ٥١
رب لاصبر لى على هجر هند ٥٣
فكن حجرا من يابس الصخر جامدا ٨٧
أين المصادر والمورد ٨١
وتعرت ذات يوم تبترد ٩٨
سحيرا وقفقف الصرد ٩٩
كتاب موله كمد ١٠٤
على الرمل من جبانة لم توسد ١١٧
وللدار بعد غد أبعد ١٣٣
وشطت نواها فالمزار بعيد ١٥٤
ان المطايا عاجل غدها ١٦٧
وما بيننا من حزن أرض وبيدها ١٧٢
قل الثواء لئن كان الرحيل غدا ١٧٥
فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى ١٨٤

ص

وشفت أنفسنا مما تجد ٢٤٥
إذا اقول صحا يعتاده عيدا ٢٤٨
ونستفز حشا الرائى بارعاد ٢٨٠
حديث كما هب النسيم على الورد ٢٨٤
منكم ويمرض كلبكم فأعود ٢٨٦

حرف الراء

هواك فليم فالتأم الفطور ٣٢
في أعين الغيد موقوف على الخطر ٤٤
فان كرهته فالسلام على الاخرى ٤٥
وما اهل له الحجاج واعتمروا ٤٧
لها نسق على الخدين يجرى ٤٨
بابياتكم مادرت حيث أدور ٤٨
دون قيد الميل يعدو بى الاغر ٤٨
حملت بلا ترة لنا وترا ٥٣
جديد ماحيت لكم يسير ٥٦
صحيحاً فامسى لايطيق لها هجرا ٥٦
أهذا المغيرى الذى كان يذكر ٦٧
أو انبت حبل ان قلبك طائر ٧٠
مشى الضعيف يؤوده البهر ٩٩
مس البطون وان تمس ظهورا ١٠٠
كما يضىء ظلام الحندس القمر ١٠١
وبمثل وجهك نستقى الامطارا ١٠٤
صدفت فلا بذل ولا ميسور ١٠٥
وقليل لو عرجوا أن تزارا ١١٣
قد قضى من تهامة الاوطار ١٢٩

ص

بمضطرب المتين منبتر الحصر ١٥١
عذافرة تستخف العفارا ١٥٧
فلقد عهدتك اهلا معمورا ١٧٢
ولزرت قبرك والحبيب يزار ١٨٦
حباه ولم يكن ذكرا ٢٢٣
حتى رأيت النقصان في بصرى ٢٢٤
يهذى بخود مريضة النظر ٢٢٥
ويئست بعد تقارب الامر ٢٣٠
وحمول الحى إذ صدروا ٢٣٣
قريع قريش اذا يذكر ٢٣٥
فبت مستنبها من بعد مسراها ٢٣٧
أقوت وهاجت لنا بالنعف تذكارا ٢٤٢
لما غدوا فابتكروا ٢٤٥
أم لا فأى الاشياء تنتظر ٢٥٠
غداة غد أم رائح فمهجر ٢٦١
لنا ولها بالسفح دون ثبير ٢٧٩
تمور بسحر عينها وتدور ٢٨٠
هل يجيد النعت مكفوف البصر ٢٨١
مقالة واش أو وعيد أمير ٢٨١

حرف السين

طويلا كأير الحارث بن سدوس ٢٦
ان تصدق الطير تنك لميسا ٣٣
اهكذا كسرا من غير ماباس ٢١٧
لزينب نجوى صدره والوساوس ٢٢٢
لمن يهوى سريعا نحوها راسى ٢٣٧
فليس على من آنس النار من باس ٢٨٣

ص

حرف الضاد

للتعدى وما بها الابغاض ٢٢٢

حرف العين

قد تمنى لى شرا لم يطع ٧٣
ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع ١٠٥
وعن شتم أقوام خلائق أربع ١٣١
ببطن حليات دوارس بلقعا ٢٣٩
مساكن ما بين الوتائر والنقع ٢٥٤
حبل النوى فهو في أيديهم قطع ٢٧٣

حرف الفاء

فأنا الذى بوصاله لا أكتفى ٤٢
فلنا من وجهها عنها خلف ١٠٠
فالقلب مما أحدثوا يجف ١٦٧
وينهل منها واكف ثم واكف ٢٩٠

حرف القاف

من قلب صب وصدر ذى حنق ٢٨
ورب الهدايا المشعرات صدوق ٥٧
وغيب عنا من نخاف ونشفق ١٠٠
وقول الناصح الادنى الشفيق ١٠٨
نهض الضعيف ينوء بالوسق ١٤٥
وانبذ برملة نبذ الجورب الخلق ١٥٠
وغدوا بليك مطلع الشرق ١٦٤
ليلا إذا نجم الثريا حلقا ١٨٤
رأيت وشاحها قلقا ٢٢٥
جنة الخلد من ملانى خلوقا ٢٥٧
ايها القلب لاأراك تفيق ٢٥٧

	ص
شكوى المحب وليس بالمشتاق	٢٨٨

حرف الكاف

وقلت لها خذى حذرك	٨٢
خرج العراق ومنبر الملك	١٥٩
لولا أبوها ما اهتدى أبوك	١٦١

حرف اللام

عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول	٣٣
فمن المطالب والقتيل القاتل	٤١
فلست بناس ماهدت قدمى نعلى	٤٧
لاتحجى من قولنا بقتيل	٤٨
ماتأمرين فان القلب قد تبلا	٤٩
وأعطيت منى يابن عم قبولا	٥٠
والربع من أسماء والمنزلا	٦٧
ولكن ليقتلن البرى المغفلا	٦٩
تعجلى باللوم حتى تسألى	٧٥
وغرة السابق المختال اذ صهلا	٧٧
اليها فانى واصل حبل من وصل	٧٩
ان المهمات فيها يعرف الرجل	٨٢
لو أبصره الواشى لقرت بلابله	٨٥
قليل ولا أرضى له بقليل	٨٥
ولنظرت غفلة كاشح أن يعقلا	٨٦
اذا استقل عمود الصبح فاعتدلا	١٠٢
عينى اذا أردت ارتحالا	١٠٣
فقربنى يوم الحصاب الى قتلى	١١٠
وصبا فلم تترك له عقلا	١٤١
وأترابها بين الاصيفر والخبل	١٤٦
يقرب من ليلى الينا احتيالها	١٧٥
من أجلها وملقى الرحال	٢٠٣
عن حال من حله بالامس ما فعلا	٢١٠
بالبليين أن أجزن سؤالا	٢١٦
سوى ما ادعى يوما فليس له فضل	٢١٧
ليتنى مت قبل يوم الرحيل	٢٣٢
قتلت قتلت فهاتها لم تقتل	٢٤٠
بثينة أو ابدت لنا جانب البخل	٢٧٠
تمتعت من لهو بها غير معجل	٢٧٥
وان ليس يبقى للخليل خليل	٢٨٨
طوال أى آمال	٢٩٢
وعلى الغانيات جر الذيول	٢٩٧

حرف الميم

وهو في أصبعين من اقليم	٢٨
والعين إن تطرف بها تسجم	٥٦
كالرئم فى عقد الكثيب الا يهم	٥٦
رفيقكما حتى تقولا على علم	٧٥
وأصابت مقاتل القلب نعم	٨٩
من خيال بنا ألم	١٣٢
وعاودت ذكرى لام الحكم	١٤٢
لذيذ المقبل والمبتسم	١٤٨
مقيما على الهم احلام نائم	١٥٨
فلما انجلت قطعت نفسى الومها	١٦٦
بسراتنا ووقرت في العظم	١٧٠
وأبن لنا خبرا ولا تستعجم	١٧٢
حمى في القلب لايرعى حماها	١٧٤

	ص
على ومن زيارته لمام	١٨٥
يرى الموت إلا بالسيوف حراما	١٩٣
وبين لو يسطيع أن يتكلما	٢٠٤
على العهد باق ودها أم تصرما	٢٥٤
باعلى النقع اخت بنى تميم	٢٥٤
بسقام ليس كالسقم	٢٥٥
في وجهها لك اذ تبتسم	٢٨٠
رهينة عام في الدنان وعام	٢٨٩
مالى رأيتك ناحل الجسم	٢٩٢
ولى نظر لولا التحرج عارم	٣٠٢

حرف النون

من نيلك الجزل أو من رأيك الحسن	٣
هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا	٢٠
اذا ماانثنى من لينه فضح الغصنا	٢٩
وجدى عليكن أشجانى فأضنانى	٣٦
وإيانا فذاك لنا تدان	٤٢
ولا أحدث الامور اثنان	٤٦
ولم تر العين شيئاً بعدكم حسنا	٥٣
عمرك الله كيف يلتقيان	٧٧
فشفينا غليلنا واشتفينا	٨٦
ظهر الحب بجسمى وبطن	٨٧
طربت وكنت قد أقصرت حينا	١٢٠
أو بعده أفلا تشيعنا	١٣٦
مقصداً يوم فارق الظاعنينا	١٣٩
الى اليوم أخفى حبها واداجن	١٥٤
لازلت ماعشت كذا تحجين	١٦١
جلل الله ذلك الوجه زينا	١٦٨
فالاقحوانة منا منزل قمن	١٧١
للهوى والقلب متباع الوطن	١٧٧
مستكيناً قد شفه ما أجنا	١٧٨
فأتمر أمر رشيد مؤتمن	١٧٨
قتلنا ثم لم يحيين قتلانا	١٨٦
حصان عليها نظم در يزينها	١٩١
عمرك الله كيف يلتقيان	٢٠٩
وألما الغداة بالاظعان	٢١٩
وتذكرت ميعتى في زمانى	٢٢٠
تزحزح فالها الهجران	٢٢٤
إذا حللنا بسيف البحر من عدن	٢٩٨
من الورد أو من الياسمينا	٣٠٤

حرف الهاء

من حبيب أمسى هوانا هواه	٨٨

حرف الواو

ولا كليالى الحج افلتن ذا هوى	٣٠١

حرف الياء

من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا	٢٧٣

فهرس الاماكن والاعلام

ص

حرف الالف

أبو بكر بن أبي الجهم ١٩٧
أبو بكر الصديق ٢٥ و١٥٧
أبو علي الفارسي ٢٦٧
أبو فديك ١٦٠
أبو الفرج الاصبهاني (صاحب الاغاني) ٢٤ و٦٠ و٦٣ و٦٤ و٦٩ و١٢٦ و١٢٧ و١٤٩ و١٥٢
الابيوردي ٢٨٣
أبو نواس ٢٤ و٢٩
أبو الحارث جميز ٦٧
أبو الاسود الدؤلي ١٣٠ و١٣١
الاخياب ٢٥٤
ابن أبي عتيق ٤٨ و٥٢ و٨١ و١١٣ و٢٠٦ و٢٠٨
ابن أسماء ١٠٨
ابن جريج ١٠٧
ابن الاحنف ٤١
ابن الرومي ٢٨ و٩٢
ابن سيرين ٣٣
ابن سريج ١٨٧ و١٨٨ و١٨٩ و١٩٠
ابن الفارض ٤٢
ابن قتيبة ٢٤ و٢٦
ابن قيس الرقيات ١٥١ و١٩٥
ابن منظور ٢٤

ص

ابن خفاجة ٢٨٤
ابن مقبل ٢٤٢
أبو حيه النميري ٢٣٥
اسحق الموصلي ٢٠٢ و٦٢٧ و٢٨٩ و١٩٠
اضم ١٣٢
أم اسحق بنت طلحة ١٥٨
أم القاسم بنت زكريا ١٤٥ و١٤٧
أم كلثوم ١٤٩
أم كلثوم بنت أبي بكر ١٥٧
أشعب ١٥١ و١٩٧
أم البنين ٢١٢
ابن سلام ١٥٣ و١٥٤
ابن عباس ٢٥٨
أم عمر وبنت مروان ١٣٩
أمة الوهاب ٢٩٨
أم الحكم ١٤٢
امرؤ القيس ١٠٦ و٢٧٥
أم نوفل ٢٠٥ و٢٠٨
أم عثمان (أخت الرباب) ٢٠٤
آمنة بنت وهب ١٩٦
أسد بن عبد العزى ١٩٣
الاحوص ٤٨ و٧٨ و١٦٨ و١٨٤
الاخشب ١٧٥
أبو قبيس ١٧٥

ص

إبنة الحميد ١٩٢
أيوب بن مسلمة ٢٠٣
أبو السائب المخزومي ٣٣
أناتول فرانس ٣٨
احمد بن هشام ٢٨٩
الاصمعي ٣٦
احمد ضيف ٩ و١٠ و١١ و١٦ و٩٨
أسماء ٥٣ و٦٧ و٢٤٨

حرف الباء

بافنيس ٣٨
بثينة ٨٥
بجاد مولى عثمان ٣٢٣
بديل بن ورقاء ٣٥
بشار بن برد ٢٨٠
بشرة ١٧٢
البصرة ١٣٨
البليان ٢١٢
بلال مولى ابن ابي عتيق ٢٠٧
البها زهير ٨٢
بور سعيد ٣٦
بيرون ١٢٦

حرف التاء

توفيق دياب ٢٣ ، ٣٠
تهامة ١٢٩
تيم بن مرة ١٥٧ ، ١٧٤
تيموكليس ٣٨

ص

حرف الثاء

الثريا بنت علي ١٠٤ و١٠٥ و١١٨ و ١٣٩ و ١٤٠ و١٥٤ و ٢٣٠ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١٢ و ٢١٧ و ٢٩٧
الثعالبي ٢٤

حرف الجيم

الجاحظ ٢٤
جحدر ٤٢
جرير ٢٦ و ١٨٣ و ٢٦٠
جعفر بن الزبير ١٦٨
جليلة بنت مرة ٧٥
جمل ١٤٦
جميلة ٣٠٠
جميل ٨٤ و ٩٣ و ١٠٩ و ١١٠ و١١١ و ١١٣ و ١٢٦ و ١٥٤ و ١٨٣ و ١٨٤ و ٢٦٧ و ٢٧٠
جنادة العذري ٢٣٧
الجامعة المصرية ٧ و٩ و١١
الجند ٢١٥

حرف الحاء

الحارث بن خالد المخزومي ١١٣ و ١٤٤ و ١٥٧ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٢ و ١٧٩ و ٢٤٧
الحارث (أخي عمر) ٢٩٨
الحارث بن سدوس ٣٦
الحجاج ١٦٢ و ١٦٣
الحجاز ١٨٨ و ١٨٩

ص

الحزين الدؤلى ١٥٧
الحصرى (صاحب زهر الاداب) ٢٧و١٢٧
الحجر ٤٥ و ١١٩
حسين الحكيم ١٣ و ٣٦
الحزين الكنانى ٢١٧و٢٤٥
حسان ٢٤٠
الحسين بن على ١٥٨ و ١٨١
حليات ٢٣٩
حماد الراوية ٦٢
حميد بن ثور ٢٦٩
حنين الحيرى ١٩٠

حرف الخاء

خاخ ١٣٢
خالد الخريت ٢٣٨
الخيف ١٢٩ و ١٤٥ و٢٠٣

حرف الدال

داود بن سليمان بن مروان ٢٣٥
درافيس ١٩٤
دمشق ١٦٦

حرف الذال

ذو بقر ١٤١
ذو العشيرة ٢١٣

حرف الراء

الرباب ٥١ و٧٠
الربذة ١٤١
الرشيد ٢٠٢

ص

رسول الله ٢٥ و٣٢ و١٤٤ و١٩٨ و٢٠٢
رملة بنت عبد الله ١٤٠و١٤٩و١٥٠ر
روسو ٩٢

حرف الزاى

الزبير بن بكار ٦٤ و١٠٨
زكى مبارك ٣ و٥ و٧
الزمخشرى ٢٦٥
زيد بن عمرو بن عثمان ١٩٦
زينب بنت موسى ٤٧ و٥٢ و٢٠٠ و٢١٩
٢٢١ و٢٢٥
زينب بنت يوسف ١٦٢

حرف السين

سالم بن قتيبة ١٤٥
السبرح ٢٣٩
سعيد بن العاص ١٤٥
سعدى بنت عبد الرحمن ٢٠١
سفيان بن حرب ١٩٦
سلامه موسى ٣٣
سلمى ٨٤
سليمان بن عبد الملك ٣٠٢
سكينة بنت الحسين ١٤١ و١٥٠ و١٦١و١٨٠
١٨٣ و١٨٩ و١٩٢ و١٩٣ و١٩٨
سنتريس ٣٥ و٣٦ و٣٧
سيد مبارك ١٣ و٣٦
سيد المرصفى ١٠
سهيل بن عبد العزيز ٢٠٩ و٢١٠ و٢١٢

ص

حرف الشين

الشافعى ٣٢
شبيب بن البرصاء ٧١
الشعبى ٢٦ و١٥١ و١٥٥
الشماخ ٢٤١
الشنفرى ٧٧ و٨٠

حرف الصاد

صاح بن خاقان ٢٨٩
صريم ١٠٨
الصوران ٤٧

حرف الطاء

طه حسين ٧و١٠و١٧و٥٤و١٢٤و١٤٣و٢٥٣
الطائف ١٦٢و٢٠٤و٢٠٥
طرفة بن العبد ٧٩
طلحة بن عبد الله ١٥٧و٢٦٠
طلحة بن عبيد الله ١٧٤

حرف الظاء

ظبية ١٠٦

حرف العين

عائشة ام المؤمنين ١٤٤و١٥٧و١٦٠
عائشة بنت عثمان ١٤٥و١٤٧
عائشة بنت طلحة ٩٨ و ١٤٣ و ١٤٥و١٤٦
و ١٥٣و١٥٥و١٥٦و١٦١و١٦٦و١٦٧و١٧١
و ١٧٢و١٧٣و١٧٦و١٧٩و١٩٢و١٩٣و٢٠٣
و٢٥٢
عاتكة بنت يزيد ١٦١و١٦٩و١٧١

ص

عبد الرحمن بن ابى عبد الرحمن ٢٨٩
عبد الله بن عبد الرحمن ١٤٥و١٥٧
العباس بن الاحنف ٢٩١
عبد الله بن ابى فروة ١٥٢و١٥٦
عبد الله بن قيس ٢٠٣
عبد الملك بن مروان ١٠٠ و ١٦١ و ١٦٥
و٣٠٢و١٦٦و١٩١و١٩٢
عبيد بن حنين ١٨٨
العبلات ١٥٤
عثمان بن ابراهيم الخاطبى ٢٣٦
عزة الميلاء ١٤٥و١٤٦و١٤٧و١٤٨
العراق ١٣٤و١٣٨و١٨٨و١٨٩و٢٠٦
عمر بن عبد العزيز ١٩٦و٢٣٥و٣٠١
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ٣٢
عبد الجواد رمضان ١٥
عبد السلام مبارك ٣
عبد الوهاب النجار ٩و٥٤
عمر بن الخطاب ١٠١
على بن ابى طالب ٢٦و١٠١
على بن هشام ٢٨٧
على عبد الرازق ١٠
العرجى ١٦٨و٢٥٤و٢٧٩
عبد الله بن عباس ٣٢و٣٣و٦١
عبد الملك بن صالح ٢٨
عبد الله بن عمر ١٣٩
عبد الله بن مصعب ١٠٦و٢٨٦
عمر بن عبيد الله ١٥٨ و ١٦٠ و١٧٣و٢٠٦

ص

عزة ٤٤
عبدة ٥١
عمرة ٥٣
عثمة ٥٤
العريش ١٦٤
عرفات ٢٠٥
عمرو العراف ٢٩١

حرف الغين

الغريض ١٥٤ و ١٦٧ و ١٦٩ و ١٧٣ و ١٨٨ و ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢١٨ و ٣٤٨
الغزالى ٣٤ و ٣٨ و ١٨٠
غسان ٨٢
غمدان ٢٩٤
غمر ذى كندة ١٣٤
الغميم ٧١ و ١٩٩

حرف الفاء

فاطمة بنت عبد الملك ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٣٥
فاطمة بنت عمر بن مصعب ١٠٦
فاطمة بنت محمد بن الاشعث ١٣٣ و ١٣٥ و ٢٥٣
فخ ١٦٣
الفرات ١٩٩
الفرزدق ٢٦ و ٣٣ و ٦١ و ١٠٨ و ١٠٩ و ١٨٣ و ١٨٥
فرعون ١٠٨
الفرماء ١٦٤
فينوس ٢٣

ص

حرف القاف

القاهرة ٣٦
قدامة بن موسى ٢٢١
قريش ٦٢ و ١٠٨ و ١٣٩ و ١٦٥ و ١٨٨
قرن المنازل ٢٠٥
القس ١٦٤
قعيقعان ١٧٥

حرف الكاف

كثير ٣٩ و ٤٤ و ٤٧ و ٥٨ و ٩٣ و ١٣٧ و ١٨٣ و ١٩١
كداء ٢٠٤
الكديد ١٣٨
الكوفة ٦١ و ١٩٢
الكوثر ٣١

حرف اللام

لكسمبور وغابة بولونيا ٢٩
اللهبى ٣٠٤
ليلى ٥٠ و ٨٧ و ١٥٤ و ١٧٩

حرف الميم

مالك بن أسماء ٣٠٤
المتلمس ٢٦٤
المتنبى ٢٠
محمد بن عبد الله بن الحسن ٢٨٦
محمد المهدى ١٠
مر ١٣٨
مزاحم العقيلى ١٧٥

ص

مذحج ١٨٨
مسلمة بن ابراهيم ٢٠٣
مصطفى القاياتى ٥ و ٩ و ١٠ و ٥٤
مصعب بن الزبير ١٤٥ و ١٤٨ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٧٣ و ١٩٠ و ١٩٢ و ١٩٣ و ٢٥٥
مصعب بن عبد الله الزبيرى ٢٢ و ٦٤ و ٢٣٦ و ٢٥٥ و ٢٨٦
مسعده بن عمرو ٢٠٩
المدينه ١٦٢ و ١٧١ و ١٧٧ و ١٨٥ و ٢٠٠ و ٢٩٠
المربد ٢٨٨
المحصب ٥٥ و ١١٠
مصر الجديدة ٣٤
مضرس بن قرط المزنى ٥٧
موسى شهوات ٢٣٥
مونتين ٩٢
ميسيه (الفريد دى ميسيه) ١٢٦ و ١٢٧
معاوية بن ابى سفيان ١٤٤
معبد ١٨٨
مكة ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٥ و ١٧٦ و ٢٠٠ و ٢٠٧
منى ١٨٨
المنصور ٢٨٦
المهدى ٢٨

ص

حرف النون

النابغة ٢٧ و ٨٢ و ١٠٤
نافع بن الازرق ٢٥٨
نصيب ٩٨ و ١٨٣ و ١٨٤ و ٢٩٢
نعم ٢٥٣ و ٢٥٦
نعمان ١٦٣
نصر بن حجاج ٣٠٣
النميرى ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٥
النوار ٥٣ و ١١٣ و ١٤٠ و ١٤١

حرف الواو

الوليد بن عبد الملك ٢١٢ و ٢٦٠
الوليد بن عقبة ٢٢٣
الوليد بن يزيد ٢٤٨
وجرة ١٣٤

حرف الهاء

هامان ١٠٨
هند بنت الحارث ٥٣ و ٧٢ و ١٢١ و ١٤١ و ٢٣٦ و ٢٣٨
هشام ١٦٠ — الهماء ١٦٢

حرف الياء

ياقوت الحموى ١٧٦ و ٢٠٣
يزيد بن منصور الحميرى ٢٨١
اليمن ٣٠٥

کتابخانه
مجلس شورای ملی
۱۳۲۲

سرائر الروح الحزين

شعر و نثر

بقلم

زكي مبارك

بعون الله يظهر هذا الكتاب بعد قليل